



أحمد فريد المُرسِي

مُنْروفيَا

رواية

T t.me/tea_sugar

هذه رواية فيها من ملامح وأحداث وشخص
الواقع شيء، لكن الأكيد أن فيها من الخيال
الشيء الكثير.

إهداء

إلى سلمى وليلى
رافدي الحياة في عمري

تحية حب

إلى كل من عاش في منروفيا أثناء الحرب

تقديم (١)

عندما يتوقف الليل عن الصراخ من حناجر المكومين، وتصم الأيام مسامعها عن أصوات الرصاص والقنابل، وتلتئم جروح تبكي الآن جرم الإنسان، ويتوارى الخوف المجدول على نظرات المستضعفين، وينتزع هذا الموت الوحشي ذلك الحقد من صدور القتلة، وتطمئن القلوب المرتجفة التي ترتعد لهبة ربح تلهو في الأعراس، ستطل الشمس الأزلية على المرج السرح كما لم تشرق منذ عهود، ويعود أسد غرب أفريقية ليزار منفردًا مزهواً بملكه، ستتمايل غابات المطاط طربًا بنقاء الإنسان الذي يتطهر من خطاياہ في أتون الحرب الآن!

نعم، أكيد أن الأشلاء بالطرقات ستحتضنها الأرض الطيبة وهي تبكي، وتعود نواجذ حام الطيب لتلمع بابتسامته، وتهتز القدود على أنغام الطبول الشبقة، وسأعلم أن هذه الأرض الأم بخير.

أما أنا فأرحل وقد فقدت هنا أشياء كثيرة، لم أملك أكثر من تساؤلات عندما وطنتها، جئت أبحث عن شيء لا أعرفه، لكنني وجدت ذاتي التي أكرهها الآن! أرحل بعد أن سقطت ورقة التوت عن سوءة نفسي، وتركت بحمرة تراب هذه الأرض نبضًا من قلبي الذي ينن للفراق، ودمعات على رحمة وجدتها، وفررت خوفًا على حياة لا تساوي شيئًا بدونها.

حياة ستظل كأطلال خلفتها الحرب بمنروفيا، صامته، باردة، مظلمة، مخيفة.

(الرحلة الأولى)

(1)

كانت ليلته قلقة، يعرك وسادته تارة بين ذراعيه
وتارة بين فخذه، دار وتقلب في سريره كثيرًا.
يبحث بمكان ما في نفسه عن سكينة تستدعي
النوم، أو إرهاق يسلم له جفنيه فيغفو.
زفر وفرك جبينه على ملل وتأفف!

منى!

يفكر فيها كثيرًا، يستعيد ذكرياته معها كل
ليلة، كمن يخشى ضياع التفاصيل في ليل البعد!
تلك القبلات الحارة بينهما في المصعد وفي
السيارة وطلسة في صالون بيتها، دلال جمالها
الأسر، ذكاؤها الفطري الذي يفرض على همسها
ولمسها ألغازًا! حركتها فوق خطاها المحسوبة،
مثيرة هي في إيماءاتها، شهية في انحناءاتها،
تعطيه من مَعِين أنوثتها بقدر، فله منها كل
شيء لكن بمقدار.

يفغشاه عطرها الناعم كلما راودته الذكرى، مذاق
شفاها البضة، بريق عينيها الشبقتين، ولمس
شعرها الليل الساحر، ألق بشرتها في ليل
الإسكندرية.

هو يعشق القراءة والكتب، ولا هواية لديه
أفضل من المطالعة وارتداد المكتبات، لما رآها
لأول مرة بمكتبة الأكاديمية البحرية ابتسمت
فسحرتة، وأحس أنها هي من كُتبت بالمقدور له!
أغراه جمالها وغموضها وعدم تكلفها، تحب
اللون الأسود! ترتديه كأنها في حداد دائم!

لكن ما سحره حقًا هو ابتسامته مرحبة متفائلة
وعينان حاليتان تلشدان الحب!

فاجأته عندما اقتربت، أقبلت على مساعدته

فيما جاء من أجله لما رآته حائراً بين الأرفف زائغاً
بين المصنفات، بينما يختلس النظر إليها! شكرها
وسألها عن بعض العناوين بمجال الفلسفة ظاناً
أنها من أمناء المكتبة!

ضحكت بصفاء وهي تخبره بأنها ليست كذلك،
وما يطلبه لا تعرف عنه شيئاً!

تخجل، تلعثم واعتذر، ابتسمت مجدداً!

حقاً يشعر بالأسى! فكما يبعث طيفها دفء
الحنين في قلبه يلهبه بسوط الخزي!

يا لذلك الطيف الذي يزور خياله ضاحكاً مستبشراً
لعوباً، ويقتحم أحلامه غاضباً ساخطاً لؤاماً!

تساءل إن هو يحبها حقاً!

لو أنه الحب، فكيف يخون!

أكان ما وقع بقلبيهما قبساً من جمار الرغبة التي
تأججت في نفسه الفقيرة إلى أليف!

أكانت ملجأه من وحدة أيامه! فإذا هي غابت
نسيها!

لماذا توارى ضميره في ظلال المتعة وتلذذه
باللحظة التي أدمنها منذ استسلامه!

كيف لم يصمد!

هل أراد أن يصمد!

كيف سولت له نفسه أن ينغمس بكل كيانه في
عالم غير عالمها!

كيف تسلفت تلك الغريبة عنه عبر محاذيره
ونواهيته!

كيف تخطت حواجز خوفه من المجهول وإحجابه
عن المغامرة!

يكاد يجن!

قرر أخيراً أن يعلن استسلامه للأرق، فقام على
مضض يفرك فروة رأسه، ولج الشرفة، وقف عند

حدها، مال وأجال نظره حول ظلمة الشارع والبيوت البائسة.

يستطيع أن يرى من موقفه الأحياء الفقيرة غرب منروفيا، أسطح البيوت المتهالكة المتناثرة حول الأشجار الكثيفة، كذلك يميز إلى الجنوب القصر الرئاسي الكبير والمباني الحكومية التي تتناول وكأنها زبانية تقف فوق رؤوس المسحوقين المدقعين.

بالمدى غير البعيد، ما بين غرب وجنوب، هناك يختلف المشهد؛ حيث يسكن المحيط تحت لواء القمر الذي توسط الفراغ أمام عينيه ساطعًا، يصبغ صفحة الماء بلجين سارج رائق مضيئًا قوافل الغيمات التي تمر سلافاً حوله.

(2)

قادته أقداره إلى منروفيا، ليبيريا لم تكن ذات معنى في وعيه، معلوماته عن هذا البلد الصغير على الشاطئ الغربي لأفريقيا أقرب للاشياء، معرفته بالدول الأفريقية بشكل عام لا تتعدى بعض أخبار متفرقة عن فرق كرة القدم واللاعبين الأفاقة المحترفين في أوروبا، هذا غير أنه بالأساس ليس شغوفاً بالكرة وأخبارها.

أفريقيا، ليبيريا، منروفيا، أسماء لم يكن لها دلالات خارج الخارطة العامة للقارة التي درسها تلميذاً، وبعض الوجوه السمراء التي يلاحظها تمر في طرقات الإسكندرية من آن لآخر.

قال له صديقه وزميل المكتب بشركة الشحن العالمية التي عمل بفرعها في الإسكندرية، إنها فرصة جيدة جداً لكسب مزيد من المال وتأمين مستقبله، وأن الحياة في إفريقيا سهلة، وأنه ذاته كان ليفكر في هذا العرض لولا أسرته الصغيرة ومسعاها للانتقال لفرع الشركة في قبرص لقرب المسافة من مصر، مؤكداً أن عليه أن يتحرك في سرية تامة وبسرعة إذا أراد انتهاز هذه الفرصة قبل أن يخطفها غيره، خاصة أن الأوروبيين يحبون الحياة في إفريقيا، ونصح له مخلصاً بضرورة تكتم الأمر عن مديرهما فلا يعرقل مسعاها.

لم يفكر كثيراً، لم يكن هناك ما يخسره، فموت أمه فرغت حياته من أحد غير منى!

إلحاح أمها، وحلمه المستعر بالزواج دفعه دفعا لخوض المغامرة عكس طبيعته المتحفظة؛ آملاً توفير متطلبات الزيجة المرجوة.

بعد بضعة أسابيع، وعندما جلس إلى مديره متحرّجاً يخبره بقرار قبوله للوظيفة بالشركة الصينية لتقطيع وشحن الأخشاب وانتقاله لمنروفيا في غضون أيام قليلة لتسلم عمله هناك، دهش

المدير وأخبره أنه كان قد رشحه بالفعل لفرع الشركة بقبرص!

صحيح هو يحمل جواز سفر أمريكيًا، لكنه لم يسافر إلى أمريكا يومًا! «غزال» كان حريصًا أن يبني في نفسه جدازًا من الكره لذاك البلد كلما سافرت إليه هي!

كرر له أن مصر أحلى وناسها أحلى، وأنه إذا ذهب إلى هناك لن يتركوه يعود إليه! هو يحبه؛ لذلك لم يفكر يومًا في السفر إلى هناك، إلى حيث ولدت!

ربما عليه أن يمشي قليلًا ليريح أعصابه، يعي أنه لم يمش على قدميه في شارع منذ قديم إلى هنا، إلى منروفيا!

من عادته أنه يسير كثيرًا، حتى وإن كان مسيره على غير هدى أو غاية.

منذ زمن، وقر في يقينه أن خطاه ستقوده حتمًا إلى حيث ينتظره مصيره، فيمشي ليحرك أقداره أو هكذا ظن. يبعثر الخطى في كل الدروب لإغراء الحياة كي تلتفت إليه، فلربما تتبدل وجهتها لتلقاه بعد أن أفنى عمرًا على هامش الأيام يسري سرايبًا في مجهول!

لم يعرف مثل هذا الإحساس بالغرابة قبل الآن، وإن حَبَرَ الاغتراب عمرًا طويلًا، كانت أسفاره السابقة قصيرة عملاً أو سياحة، هذه المرة تختلف.

يشعر بالكثير من الضغوط ويزيدها رغبته في أن ينجح فيما أتى من أجله، لكن الواقع يفرض نفسه قهراً، إرادته تكاد تلين تحت مطارق القلق. أشباح الغربة تطارده في كل ملاحى منروفيا، وإن عاد خائبًا بالتأكيد ستتركه ملى لشبح الوحدة

الذي جثم على صدره طويلاً! لا بد أن يسيطر على
أشباحه!

**

(3)

رحمة!

تلك البدايية التلقائية، الباسمة، الجامحة،
المتعطشة، المباشرة، المقبلة، الغريزية! غريبة
على حواسه، مختلفة في إدراكه، تقتحم عواطفه!
لم تترك له فرصة ليتحسس سبيله إليها، تجتاحه
بنزق!

تحاشاها بتردد البدايات، خوفاً من المجهول
وإحجامه عن المغامرة، قاومها حيناً، ستر عورة
رغبته بقميص الوفاء، فقدت كل أستاره بعنفوان
رغبتها وجموح مشاعرها، أصبحت ملجأه في
خضم جزعه من الجنون حوله وميقاناً من يومه لا
يخلفه ولا يريد أن يفقده، سواء كان صباحاً حين
الفطور والقهوة والشهوة، أو مساءً حين الكأس
واللهفة والرغبة!

يستثيره شغفها الدائم وإلحاحها الجامح
وإصرارها على الظفر منه بما تريد، لم يصمد طويلاً
أمام إقبال أنوثتها المتأججة على كيانه المكبوت!
هل دفعته غريزته الحبيسة نحو اكتشاف هذه
المختلفة في كل شيء عن كل من عرف في
حياته؟

ربما خرجت له رحمة من بين طيات قساوة
الاعتراب، وصمم الوحدة، وشجو الفراغ!
أنت تتسلل خلف أشباح الخوف، والفقد،
والشوق، والمجهول!

تلك الأطياف التي تتلبس فرائسه منذ وطني
هذه الأرض الغريبة، وتتمثل لعينيه خُلُقاً لا يفارقه
إلا عندما تنبري لهم رحمة! ما إن يقع ناظره على
بسماتها العذبة تلزوي كل الأشباح في غياهب
نفسه، تهدد إطلالتها سحياً من علامات استفهام
تطلق فوق رأسه منذ ساقته أقداره إلى هنا،
يبعث فيه حديثها اللاهث إقدام مغامر ولهفة

مراهق، ودعة طفل. يطمئنه صوتها المبتهج في
 خضم الصخب المتبجح حوله!
 هي بكيانها الهش تبت الأمان في وجوده
 المرتجف!

رحمة، يا له من اسم في هذا المحيط المعدب،
 اليوم ليله وحشي ونهاره قايس!

هذه الليلة، يعلم ما ينتظره، فأعد العدة للمبيت
 كما يحب، غرفته ظلماء صامته باردة إلى حد،
 شراشف نظيفة بها شيء من رائحة الورد التي
 تذهب برائحة المبيد الحشري الضروري، فلا هوام
 ولا باعوض، وأيضاً لا نوم!

طوال عمره يعاني من صعوبات في النوم،
 فعقله ينشط جداً أثناء الليل ويسبح مع الأفكار،
 خواطر كالموج تتوالى عشوائية في خلده المورق،
 لكن مؤخرًا منذ قابل رحمة أصبح ضميره هو ما
 يُسّقه!

عيناه تأبى إلا أن تحقق فيما حوله، يميز كل
 أشياء الغرفة على غسقتها، أركانها، قطع الأثاث،
 الصورة على الجدار.

تناهى إلى أسماعه تلك الأصوات الخفية التي
 يكشف أستارها السكون الذي فرضه توقف مولد
 الكهرباء في مواعده المعتاد كل ليلة. يتوقف
 جهاز التكييف والثلاجة وذلك الأزيز المميز للمصباح
 «الفلوريسنت» في بهو الشقة، الآن لا يسمع غير
 أصوات الصمت!

رفع رأسه على هدى نور تسلل عبر زجاج باب
 الشرفة الموصد معلناً تألق البدر في ليلته الثقيلة
 هذه، إنه وجه القمر، الوجه المألوف القريب لقلبه،
 قبلة ناظره. منذ حدائته تعلق بوجه القمر واتخذة
 خليلاً، سامره وسمع معه الحاناً طرب لها في
 شرفة بيته بالإسكندرية.

قدمه والده للقمر في صغره، منذ ذلك الحين

تعاهدا للأبد! كثيرًا ما يرفع رأسه للسماء تدور
عيناه بين أبراجها، تسبح روحه بين أفلاكها، ثم
يعود فتنجذب روحه لوجه القمر، ثمّة وشائج خفية
تمتد ما بين قلبه والقمر.

إن القمر مخلوق عجيب يقبع في مكانه هنالك
بعيدًا بعيدًا، يراقب الأرض يبتهج لها حينًا ويبكي
عليها أحيانًا. سحره يحرك القلوب، ويلهم الأطلام،
ويفتن العيون.

يشق للأرواح النور بسجون الأبدان الطين طريقًا
سندسًا في الفضاء البراح لتتحررا!

ليل منروفيا بلا حُرمة، غير معقول أو مفهوم،
كل شيء فيه مباح، كل شيء هنا يعبر عن ذاته
ليلًا، هذي السكارى وتغنج الغواني، حيرة العاجز
ودعاء المضطر، وجزع الخائف، غل القتلة، عضة
الجوع، آتة المرض وشهقة الموت!

فإن كانت ليلته هذه صامتة، فقد خلت ليال شج
سكون الليل صرخة منتهكة، أو عويل لائحة، أو
أزيز رصاصات تحيل الشوارع والأزقة مشاعلَ وصخبًا!
الصمت هنا لا ينضوي إلى سكينة، بل يكفر خوفًا
بغلالة من ترقب أو تضرع!

يا لهذه المدينة المنهكة! لقد قتلت فيها
الحروب أشياء كثيرة إلا الخوف! الخوف يستشري
في المكان ويتنطع بالأركان، يطل من نوافذ
الشك التي تبدو أكثر سوادًا بهذه العتمة، الخوف
في أنحاء منروفيا أكثر جراءة وأعلى نباحًا من كلاب
شوارعها ليلًا وبانعيها الجائلين صباحًا!

في شوارع منروفيا يصبغ الزمن بالرهبة
ويقود أهلها قطعانًا إلى أشباح تلوك أعمارهم
وهم عاجزون! وكان فجأة الموت هنا هي الحتم
المنتظر دائمًا، يسكن العقول ويملك الأرواح،
الخوف يسوس كل شيء، كل شيء.

(4)

في أول مرة يدخل متجر البرجي، كانت هناك، تتحدث بين صديقاتها عاملات المتجر. ولج من الباب مكفهرًا حائرًا، مر بهن، تلقفنه بنظرات التساؤل والفضول والإعجاب، تهامسن عنه وتغامزن على استحياء.

أما هي فلم تلبث أن فاجأته، تعمدت اعتراض طريقه معلنة عن نفسها بجرأة!

اختلس نظرة لوجهها فلمح بريق عينيها بعد غمز، وشفاهها ترميه بقبلة قبل ابتسام.

أدرك وجودها، تنبئه بأنها هنا تراه، لكن حواسه لم تكن بعد استوعبت محيطه المائج، وبمنطق طبيعته تحاشاها وانتحى!

ضحكن منه جميعًا، فجفل وأشاح!

فاجأته أيضًا بعد أيام قليلة من سكناه عندما وجدها عند بابها!

لم يدر ماذا يفعل!

سألته:

- هل أستطيع الدخول؟

لم يصدق أنه دعاها للدخول!

أما هي فدخلت بإقدام طبيعتها، تصرفت بأريحية كما لو كانت ببيتها!

سألها على استحياء أتشربين الشاي؟

رحبت بدون تكلف، عندما عاد بالشاي قرّبه إليها وجلس على الأريكة مقابلًا لها، فقامت بغنج واختارت مجلسها بالقرب منه، اقشعر جلده واحتقن وجهه، تقوقع في حيزه، وقبع صامتًا!

لم تتصرف كغريب أو ضيف، بل ثرثرت وحثت عن وقائع الحياة في منروفيا، وكيف أنها مدينة عانت كثيرًا، أناسها طبيون يحبون الأجانب ويكرمون وفادتهم، وأن بها أحياء راقية ولها شواطئ خلابة.

دون مقدمات، توقفت عن الكلام، حلّ صمّ النظر
أن تقطعه هي. تفرست في ملامحه وقالت: أنت
وسيم جدًا! يعجبني اتساع عينيك وشعرك الأجد
الفاحم، ثم سألته: ما يوم ميلادك؟

استغرب لعشوائية السؤال وجدوا، أجب
باقتضاب:

- الثاني عشر من فبراير!

تفجرت ابتسامة في محياها وطفقت بسعادة
وقالت:

- إذا أنت دلوا!

- ماذا؟

- رمزك النجمي هو الدلو! خمنت ذلك منذ رأيتك
في المتجر!

- نعم أعتقد ذلك!

- هذا رائع، تعرف أنا رمزي هو الجوزاء، يوم
ميلادي هو التاسع عشر من يونيو، أتعرف ماذا
يعني ذلك؟

- لا.

- يعني أننا متوافقان تمامًا، ونسبة نجاح العلاقة
بيننا تقارب 90%، يمكننا أن نعيش حبيين دون
مشكلات حقيقية!

- ماذا؟

- أجل، نحن هوائيان نعشق التجديد والسفر
والخيال ونكمل بعضنا، ويمكن لكل منا تحقّل
عيوب شخصية الآخر!

استغرب ما قالت! تذكر أن منى قالت له يومًا
أنهما يحاربان الأبراج، فلا توافق نجمي بينهما
إطلاقًا!

تأمل وجهها وتعلقت عيناه بخطوط شفيتها
المكتنزتين، شعر بالتحرج من فكرة أنهما مناسبان
لعلاقة، دائمة أو غير دائمة!

أراد تغيير الموضوع فسألها عن مغزى اسمها؟

قالت، اسمي رحمة أحبه كثيرًا، اختار لي أبي هذا الاسم؛ لأنه آمن بأن المسيح أرسلني إلى هنا رحمة بالمعذبين في ليبيريا وإيذانًا برضا الرب وانتهاء الحرب!

توقفت لحظات، ثم رفعت كوب الشاي الذي أعده لها بين أناملها العشرة ارتشفت منه ثم وضعت، نداوة شفتيها تغريه!

تأملت في ملامحه برهة، نبس محياها بابتسامة ثم تزحزحت في مجلسها فلامسه ردفها، اقتربت بنعومة أنثى حين الرغبة، مسحت بكفها فوق كتفه وتحسست زنده، ثم قربت فاهًا!

تخرج، تلعثم، انتحى، تحجج، ثم هب واقفًا! لاحظت، فهمت، لم ترد أن تخيفه فتفقده، قامت ولم تزل البسمة بمبسمها.

قبل أن تخرج من الباب، لوحت بيدها، أطلقت قبلة في الهواء وذهبت!

تأمل كوب الشاي البارد على المنضدة لم تنل منه شيئًا!

تناوله فارتشف من حيث وجدت عيناه أثرًا لشفتيها!

جريئة في إعلانها الصريح عن إعجابها به، وسعادتها لتوافقهما النجمي، ونسب نجاح العلاقة بينهما! لم يخطر له قط أن امرأة تقتحمه بهكذا سفور!

أحاسيس اضطربت في صدره ما بين الأقبال والإحجام، والافتتان والصدود، ود لو ذاق من رضاب مبسمها، ود ألا تعود! ود لو أنه اختلس مزيد نظرات إلى مفاتنها، حمد الله أنها ذهبت قبل أن يسلم لها ويختان نفسه وملى!

في يوم آخر عادت، كان مستعدًا متحفظًا، لكن أهدأ! تحدثت كثيرًا، استمع بتلذذ!

تكررت الزيارات في أوقات مختلفة. تأتيه دائماً وقت احتياجه لها، تحادثه هاتفياً بمجرد أن يفكر فيها، ألفها، استأنس بها، تطرد إحساسه المتعاضم بالوحدة والاعتراب، رغبته ترضي غروره، تبت تفاؤلاً ودفناً بصدرة وتوقد عنفوان فتوته، لا تمل عيناه رؤيتها في كل أحوالها، يستمتع باهتمامها المبالغ به وبصحبته.

قسمات وجهها تزداد جمالاً في كل مرة يراها، يتفرس في كل تفاصيلها ويروق لها ذلك. مع كل لقاء يرى فيها سمات جديدة يعكف على تأملها حضوراً، وتذكرها غياباً.

جسدها الغض المثير يغريه ويؤجج شهوة يكبتها بصعوبة. الرغبة التي أسفرت له عنها في اللقاء الأول ما زالت تسكن عينيها بالتأكيد، لكنها أقل نزقاً، ربما بدأت تفقد أملها فيه!

تلك الليلة، في أعقاب عشاء ونبيذ وسمر، أقبلت عليه بكل أنوثتها فاستسلم لغريزته ينهل من رحيق شفاهها، تتحسس أناملها تضاريس جسده تتدفق كالموج في كل حناياه، تلقف وجهها بين راحتيه يلثمه أيما شاء، رفعت فخذها فوق خاصرته والتفت الساق على عجز ومالت فضمها بقوة، لكنه استفاق عندما التفت سواعدها حول رقبتة ونشبت أظافرها في أعلى ظهره.

تذكر منى!

عبس وتولى، طلب منها مخزياً مقطباً أن تذهب، تحاشى نظراتها التي سألتها ما الخطأ الذي اقترفته! شعرت بالإهانة وانحدرت من عينها دمعة، وولت حزيناً!

قضى ليلته يؤلب نفسه، أنفق عمره حتى هذه اللحظة يكبت رغبته، يكبح شهوته، تشتت نظراته المختلطة تفاصيل أجساد عابرات في حياته، أنه يستجدي عطورهن لكنه يلهزم ويحجم أن ينساق وراء رغباته، لكن في سكون وحدته

يتخيل ويعيش مع أطيافهن في عالم يخلقه.
صمٌ وظلام ووحدة، لكن ما زالت تستثيره تلك
اللحظات السريعة التي أدرك فيها أن لذكورته
سلطاناً في مواجهة عنفوان امرأة تهواه، خيالات
تجسدت له، أكملت ما ابتدا ولم ينته، فأطلق مائه
للوحشة لا لها!

اختفت بعض من أيام مرت رتيبة مملة، لكنها
عادت تراوده بنزق البدايات. سألته، تتأجج في
عينيها نيران هواها، هل تريدني؟
لم يجب!

دنت! فتدنى مفتتناً، أقبل برغبته المتقدمة على
أنوثتها المتلدنة، لم يستطع أن يتردد أو يقاوم
نفسه! أطلق العنان لرغبته.

قفزت بسنابك شبقها فوق حواجز عزلته، أطلقت
في مرجها سراح فحولته، سبقت أنفاسها أنفاسه
إلى صدره، امتطت صهوة عنفوانه الذي أجمه
الإحجام والرهبة والمحذور.

لم تقتحم ذكورته أنوثة قبلها، فتخلقت في
عالمه حوائية لأدم عاش العزلة منذ التكوين الأول!
لصوتها وهي تذكر اسمه بنعومة عند ذروة
انتشائها صدى تهتز له كل خلايا جسده.

**

(5)

لا يستطيع أن يقاوم إغراء المحيط! المحيط هو القوة والعظمة والمجهول والخيال والمحال، هو السلطان ذو الرهبة والمليك ذو السطوة، المعلم بالحكمة حياً وبالقسوة في آن، هو الجيد بلا منع والقبض بلا رحمة، هو ذلك القريب البعيد هو الجلي الغامض!

تقتحم النسائم المفعمة بعطر المحيط شرفة مكتبه الصغيرة فترقص لها الستائر الرقيقة تحيةً وابتهاجاً، وقف كثيراً على سواحل المتوسط في أنحاء عدة بالإسكندرية، مكانه المفضل صخرة في منطقة «بئر مسعود» يقف فوقها فتتجلى مشاهد الثغر من الغرب إلى الشرق، لكن البحر المتوسط بكل ما له من رصيد في قلبه لا يضاهاه هذا الجمال المنفتح على المحيط العظيم بكل مرآيته.

الحب، الخوف، الحكمة، الديمومة، معانٍ تتقافز في ذهنه كلما أطل على المحيط من شرفته هذه.

الشرفات علامات في حياته، من حظه أن كل ما ألفه من أماكن له شرفات، شرفة منزل العائلة بالقرب من محطة قطارات سيدي جابر؛ حيث وقف كثيراً يرقب نمط حركة المارة والجيران، شرفة مكتب الشركة بكورنيش الإسكندرية التي تطل من زاوية على محطة الرمل؛ حيث الميدان الجميل والمشهد البانورامي الفخم وصوت مسير عربات الترام فوق القضبان الحديدية القديمة.

بمحل عمله الجديد غير البعيد عن ميناء منروفيا الغاص بروّاده له هذه الشرفة التي لا تتعدى مساحتها المترين، مسورة بحديد مثن على زخارف نباتية يعلوه سوار من خشب أملس به حمرة، ضيقة شرفته لكنها تطل على منظر رحب جليل.

المدى مفتوح على مواخر وحاوليات تجيء وتذهب
بالخط الملاحي التاريخي الذي تدور فيه السفن
حول سواحل أفريقيا منذ قديم الدهر. يعرف الآن
أن ليبيريا تمنح رخصة التسيير لأي سفينة؛ ولذلك
فكثير من السفن في المحيط تحمل علمها بغض
النظر عما تحمل، أو بأي ميناء ترسو!

يطرق فيرى ساحلاً عذراً تحتضن صخوره البازلتية
المتراكبة مياه الأطلسي الهادر. بسبب تضاريس
المكان الصخرية، لا شواطئ رملية غير شريط
ضيق يمتد كيلومترين على الأكثر، لا يفصله عن
الشاطئ غير منحدر صخري يهبط من حيث مبنى
الشركة إلى حيث خربة مُتهدمة لا تعيق مدى
بصره، فبالرغم من أن مكتبه بالدور الأول فإن مقر
الشركة مرتفع فوق هضبة عالية، تساءل ما السر
في بقاء هذا البيت عند الشاطئ خرباً! لم يمتلك
حتى هذه اللحظة الشغف الكافي ليقدم على
اكتشاف المكان، لكن رومانسية الشاطئ أمامه
كثيراً ما تداعب أفكاره.

ما زال قلقاً ضجراً، قام يدخن سيجارة للمرة
الثالثة خلال ساعته هذه! يرغب بشدة أن يبيل
قدميه بمياه هذا الشاطئ القريب، شوقه لمناعة
الزبد والرمال يستحثه ليقتمم العقبة ويصل إلى
الشاطئ المهجور، قر في ضميره منذ مقدمه أن
تخطي الخربة بهذه البقعة الرومانسية المختبئة
خلف الأطلال والأحراش سيكشف عن قصة ما
تنتظره هناك!

البيت الذي أضى طلاً بعد أن نالت منه
إحدى المعارك التي شوهدت المشهد العمراني
بالمدينة، يميز على الجدران المتصدعة آثاراً لشطايا
ورصاصات من معارك احتدمت هنا في زمن مضى،
زمن ترك هذه المدينة اليافعة في رداء مهلهل
يكشف عن سوءاتها، ويخبر عما كانت عليه من

عذوبة وحسن قبل أن يغتصبها الدمار القبيح.
تساءل، تُرى من كان يسكن هذا البيت وأين هو
الآن!

أجانب أم لبيبريون؟

أقتلوا في الحرب أم فروا؟

لو تأتي له استكشاف هذه الأطلال أيرى
هياكلهم العظمية وشيئاً من بقاياهم؟ يستشعر
أن أشباحاً تسكن الخربة!

حدثته نفسه لو أنه يملك هذا البيت لجعل منه
جنة خاصة يعيش فيها مع رحمة مستمتعاً بهذا
الشاطئ الساحر أسفل المنحدر.

لسبب ما ومنذ مجيئه إلى منروفيا يشعر أنه
مراقب بعد أن عاش عمره في الظل، اعتاد ألا يراه
أحد، لا يابه لتجاهل من حوله له، تألف منذ صغره
مع أن يسعى بين الناس دون يلتفت إليه أحد
وكانه طيف أو ظل، صاغ في رأسه قصصاً وخيالات
عن كونه الصبي الخفي البطل الخارق! واخترق
أضداداً وحلفاء وخاض معارك انهزم في بعض
وانتصر كثيرًا، لم يختلف إحساسه بالاختفاء في
صباه أو شبابه، بل تعلم أن يستمتع بتلاشيه بين
الجموع يسترق النظرات قريبًا وبعدًا، يدرس العابرين
في حياته ويأنس لتكرار بعض الوجوه في أيامه
حتى وإن عبرته غير عابئة به.

في حياة الظل لا يحمل الوقت قيمة! فما الزمن
غير ترجمة لتلك الدقات التي يسمعها تصدر عن
حركة عقارب الساعة حين يجثم الصمت، أو تلك
النبضات التي يحسها حين يضع يده على صدره
وهو راقد في سريره قبل النوم.

غزت لسعات محملة بعبق المحيط أنفه، أفاق في
موقفه بالشرفة، تداعت على عقله صور وروائح
الإسكندرية وشواطئها الحميمة، موجة أتت هادرة

فتكسرت على الصخر، غمرته وانحسرت. عادت تداهم الشاطئ موجات تكسرت فوق صخور عاندت المد الذي يتسلل فيما بينها ليذوب بين حبات الرمل على حد السيف الممتد.

رنا بناظره إلى ما بعد الخربة، النوارس تتلهى عند الشاطئ المهجور، لاحظ حركة السحالي الملونة التي تسكن الصخور المنحدرة إلى هناك، منذ بضعة أيام رأى درافيل تلهو بالمياه الضحلة، وهذا الصباح يكاد يجزم أنه رأى زعنفة قرش هائلة الحجم لاحت عبر الموجات المتلاحقة، ثم ما لبثت فاخفت تحت صفحة المياه شديدة الزرقة.

يشتاق أن تلمس قدماه المياه باردة كانت أم دافئة. قدر أنها عشر دقائق يتسلق فيها تلك الصخور منحدرًا نحو الشاطئ، ماذا لو أنها مسكونة! هناك طاقة ما تشده إلى هناك لكن ماذا؟ ولماذا؟ لن يعرف إذا لم يقتحم الخربة!

(6)

لم يكن مُرحبًا عندما قابله لأول مرة! بدا له باردًا عمليًا إلى أقصى درجة، حاد في أسلوب حديثه، واضح المغزى، إنجليزيتة تفتقد إلى السلاسة. يبدو أنه قد نايف الستين، ممتلئ الجسد، منتفخ الأوداج، أحمر الأنف، خفيف شعره الأبيض، تصرخ زرقعة عينيه الضيقة وملامحه الحادة المتعجرفة بعرقه الآري الخالص.

قال له إنه الثالث الذي يأتي إلى هنا خلال أقل من عام، وأنه يتوقع له أن يترك العمل ليعود من حيث أتى خلال أسابيع على الأرجح، وبالطبع على نفقته الشخصية!

أعاد التأكيد على بنود التعاقد، من حيث إن الشركة لا توفر سكنًا أو وسيلة تنقل، شدد أن السكن داخل المقر للمدير فقط، وأنه أخذ على عاتقه البحث عن بدائل مناسبة له بوسط المدينة، وأن سيارة من الشركة سئقله ذهابًا وإيابًا لفترة محدودة إلى أن يشتري سيارة أو يتدبر وسيلة مناسبة للقدوم إلى العمل.

أرشده إلى مكتبه ومهامه كنائب له؛ حيث إن عمله دفترى محاسبي في المقام الأول، إلى جانب التواصل مع المقاولين والعملاء، وربما حلقة للوصل مع الإدارة في بكين إذا ما استدعى ذلك أمر.

أما القرارات فهي من اختصاصه هو وحده! وعليه استشارته في كل ما يعن له من تساؤلات أو مقترحات، أما غير ذلك فهو حر فيما يفعل!

بعد أن أنهى تلقيه، استدرك قائلاً: ما دمت تحمل جواز سفر أمريكيًا، فعليك تسجيل بياناتك بالسفارة!

كلاوس جاد منظم غامض، في أحيان كثيرة تشي أنفاسه برائحة الخمر دون أثر لسُكْر على منطقه أو حركته الدؤوبة. العمل معه محدد الساعات، لمطي

قضى أسابيع يجد فيها صعوبة بالغة في فهم إنجليزية الليبيريين وإنجليزية الألمان! لكنه بدأ يتأقلم في صمت على المشاهد اليومية والروائح المتكررة وهدير المحيط المستمر وصخب العمال وزيارات النوارس الجريئة لشرفة مكتبه الصغير المتناسق.

بدأ يعتاد ما يبديه له الليبيريون من احترام وحذر مبالغ فيه، لم يفهم ذعرهم الدائم في حضرة كلاوس أو عند سماع صوته، لكنه أدرك السبب في ذلك عندما شاهده يطرد أحد العاملين بصلف وبرود لخطأ تافه!

المفاجأة السارة أن وجد بينهما قاسمًا مشتركًا كسر حدة البدايات! الكهل البافاري حاذق وشغوف جدًا بلعبة تنس الطاولة، ويضع طاولته الألمانية الصنع بالشرفة الواسعة بشقته الأنيقة الرحبة المطلة على المحيط بالدور الثالث والأخير بمقر الشركة!

تغيرت لهجة « كلاوس » معه عقب أول مباراة بينهما لما وجده فعلاً يجيد اللعب! طلب منه بتأدب أن يلعبا ساعة كل يوم صباحًا أو مساءً كيفما تسمح ظروفه، وسرّه ما أبداه من مرونة في هذا الأمر!

قدم له الجعة الباردة بعد اللعب مساءً، وعصير فواكه طبيعية صباحًا، لا يتحدث معه كثيرًا، ولكن يبدي قدرًا أكبر من الود والارتياح مقارنة بالمقابلة الأولى!

تعلم لعبة «البلج بولج» على سطح بيت جده ذي الطوابق الثلاثة في حي العطارين بالإسكندرية؛ حيث حرص والده على اصطحابه إلى هناك أيام

الجمعة حيث يلتقي بأقاربه الذين يتجمعون دائمًا بالبيت العتيق وينتشرون في أرجائه، من أهم أحداث اليوم هو اللعب على السطوح، يتحلقون شبابًا وأطفالًا حول الطاولة المتهالكة.

كان ينتظر لساعات يراقب أقرانه في صبر وهم يتضاربون الكرة الصغيرة بصخب وحماس، يدرس أساليبهم وتحركاتهم، خاصة عبد المجيد الذي يكبره بسبع سنوات ويضرب الكرة بقوة. فإذا مل أكثرهم وجاء دوره استمتع باللعب حتى وإن كان نده من فتيات العائلة، ظل مواظبًا على اللعبة طيلة فترة شبابه، وعلى الرغم من مهارته وشغفه فإنه لم يهوَ المنافسة، لسبب ما فإن إيقاع الكرة الصغيرة وحركتها السريعة فوق الطاولة هو كل ما يعنيه، يريح أعصابه ويبدد توتره.

في فترة لاحقة أصبح عبد المجيد شريكه الدائم في اللعبة، اللعبة فقط! لم ير فيه الشاب المختال غير مضرب للكرة، لم يجد في هدوئه وصمته ما يثير اهتمامه، هو رضي بذلك لكنه ود لو اعترف عبد المجيد يومًا أنه كفاء له!

ليلة أخرى قاسية! غادرت رحمة منذ قليل، فظل لبعض الوقت منتشياً مفعماً بما فجرت في كيانه من مشاعر، إلا أنه لم يلبث فعاد الصراع يستشري في خلده ما بين تدفق إحساسه وتعلقه الماجن برحمة وذكريات حبه لمنى وأمنيته بحياة مستقرة وادعة معها. حلم يدفعه نحو مستقبل مثالي، وواقع يشده إلى متعة آنية.

ضميره يؤرق وعيه، وعاطفته تهرر غريزته. تناهى إلى مسامعه حفيف أوراق وأصداء وطء ونعيق بوم، فتح مغاليق عينيه على مهل، نظر عبر الشرفة، أعتم الأفق، غاب وجه البدر، تحجبه غيمات تمر متسارعة أمامه كقطعان بريّة تفر من أسدٍ متربصة بالأحراش.

كل ما يحدث حوله هنا يؤرقه، ليله أطياف

تتكالب في فضاء خياله، ونهاره مشاهد جريئة
تثير فرائسه!

لا نمطية في الشخوص أو العلاقات أو الأحداث،
العيون هنا تراقبه بشغف، تتبعه، بل تبحث عنه
أينما ذهب، الشحاذون والباعة الجائلون والعابرون،
الكل يقتحم حيزه الضيق، لم يعد مجهولاً
يتلاشى، أو خفياً يذوب بين الجموع.

الخوف من المجهول يكاد يتجسد أمامه مسيطراً
على أحاسيسه، أحياناً يضيق صدره حتى ينطبق
فيشعر بصعوبة في التنفس لكنه يجاهد أشباحه
ليتماسك!

وحشة شديدة ثقيلة، لا شيء هنا يشبهه أو
يشبه شيئاً يألفه، ما بداخله ملتبس، ما حوله
مبهم الرؤى مختلط في إدراكه، كل شيء شائه
غامض، كل شيء عدا رحمة!

رحمة هي فقط من يفقهها عقله، ويسكن لها
قلبه، وتنصرف عنه أشباحه أحيان حضورها.

رحمة المفاجأة التي كشفت عنها المغامرة ويجد
فيها مبرراً فلسفياً لبقائه، بينما تفرض غربته جدلاً
لا ينتهي حول مدى راحة قرار مقدمه إلى هذا
العالم الجديد بكل عنفوانه وقساوة ملامحه.

تنفس بعمق على ضجر، خرج إلى الشرفة. هناك
بالمدى، عند التحام الماء بالسماء رأى بارقاً يشق
وجه الأفق ليضرب جسد المحيط الداكن، الرعد
المهيب طبول ذات رجع تعلن مقدم موكب ملكي.
لقد كان أنفه على حق، إن المطر قادم!

(7)

تركيبة إنسانية غريبة، مُقتجِم، مبتسم، عليل، متقد الذهن، ذكاؤه الاجتماعي واضح، عواطفه مرسله، لا يصرح إلا بما يريد، بصمت كثيرًا وعندما يتحدث يحكي كثيرًا، غامض عميق أحيانًا السكون، جهوري حاد حين الغضب. يحدث كل شخص بما يفهمه لغة وفكرًا، يتحدث العربية بلكنة وفصحى، والإنجليزية والفرنسية ولغة محلية بطلاقة، هو كهل لا ريب، لكن أن تحدد عمره الفعلي أمر صعب جدًا! فكل حالة انفعالية أو زاوية تنظر منها إلى وجهه تنحت في ملامحه تفاصيل مختلفة تقره من العقد الرابع حينًا، أو تقذف به حتى ستينيات العمر أحيانًا أخرى!

وسيم، جذاب، شعره الأبيض الكثيف المنمق به خصلات شديدة السواد فوق مفرق جبينه وخلف أذنيه، لحيته المشذبة بعناية حول فمه اختلط سوادها ببياض، ليس ذا طول ولا يعيبه قصر، أقرب للنحافة، مهتم بتناسق ملبسه، لا يمانع في ارتداء الملابس والأزياء الأفريقية مفعمة الألوان. تحمل شخصيته متناقضات كثيرة، لا يدخل ولا يقرب الخمر ولا يأكل اللحم الحرام، يحب زوجته الغائبة وزير نساء أيضًا! معتر بأصله كلباني جنوبي شيعي، لكنه مستغرق في واقعه الليبيري بكل تفاصيله. يخلص النصح لكن لا يحكم برأيه أو يعاتب! الجميع يرونه صديقًا، أما هو فيرى الصداقة في ثلة ملهم. هو أبو عبد الله سمير البرجي التاجر اللبناني الذي استقبله بعد أيام قليلة من وصوله إلى منروفيا، واستثار حفيظته بفضوله، لكن استماله بما يوحيه من أبوية.

جاء أبو عبد الله إلى أبيدجان شابًا «مُعتزًا» قادمًا من قرينته في الجنوب اللبناني هربًا من الفقر والبطالة وجحيم الحرب الأهلية، مغامرة خاضها

أملًا في تحقيق الثروة مثله في ذلك كمثله أي من أبناء جلدته، خاصة في سبعينيات القرن الماضي حين هاجر لبنانيون كثير في أرض الله الواسعة بعد أن أرهقتهم الطائفية والتناحر، وأتت الحرب الأهلية على أرزاقهم.

للبرجي أقرباء في كل أنحاء المعمورة، في أوروبا والأمريكيتين والدول العربية، في مستهل الرحيل رغب في السفر إلى أي من الأمريكيتين، لكن أبناء عمومته في ساحل العاج نصحوه أن يبدأ رحلة الثراء في الأرض السمراء لخيرها الوفير وسجية أهلها، وهكذا فعل.

حمل حقيبة صغيرة وبضعة دولارات وآماله وذاكرياته مغادرًا «الضيعة» إلى العاصمة الإيفوارية «أبيدجان». عمل منذ اليوم الأول في تجارة أقاربه بمواد البناء. اللبنانيون منتشرون ليس بساحل العاج فحسب، بل في مختلف الدول الأفريقية، ويمثلون مع التجار الهنود ركيزة تجارية مهمة في اقتصاديات هذه القارة.

في أبيدجان، يسيطرون على تجارات عدة في المدينة الصاخبة، تتشعب أعمالهم وعلاقاتهم في كل دوائر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

بدأ الشاب المتحمس سمير عمله في تجارة أحد أبناء عمومته، مشرفًا على أحد مخازن البضائع، مهمته الأساسية هي أن يراقب حركة البضائع والعمال، فيمنع السرقات أو الاختلاسات، بدأ حاذقًا مبتكرًا قياديًا.

سرعان ما فهم طبيعة الحياة في حاضرة الغرب الأفريقي، أتقن اللهجة الإيفوارية الفرنسية، واستقر مقامه.

مرت شهور عدة يجتهد في عمله ويخلص لابن عمه، بيد أنه أيقن أنه لا يريد البقاء في ظل أحد بقية عمره، فهو لم يعترب ويرد هذه الأرض لينتظر راتبا شهريًا. هداه تفكيره وروحه المغامرة

وبعض ما سمعه من أخبار تناقلت بين أصحابه ومعارفه إلى أن يسافر إلى ليبيريا المجهولة، فكان في طبيعة المغامرين القادمين إلى منروفيا في مطلع الثمانينيات، حمل إليها حقيبتة الصغيرة وما اكتنزه من دولارات عمله لدى ابن عمه.

عندما دخلها وجدها مدينة مهلهلة أنهكتها النزاعات والصراع على السلطة، شهد مقتل الرئيس صامويل دو وسحله في الشارع، كما شهد استيلاء تيلور على السلطة، ورأى بأس زبانية الحرب وقادتها، لكن في الوقت ذاته وجد في أهلها سجية رقة لها، يعيشها بساطة اتفقت وطبيعته الميالة للتحلل من الماديات وطلب المثاليات.

يدرك -بالحاسة الوراثة- جشع وغل المتكالبين عليها، ويستشف بهبة البصيرة حكمة الخالق في عذرية خلقها الأول.

يعيش يتلذذ بما يأكل ولا يشتهي غير ما يأكل، لا يتأفف من مأكلة البسطاء، يتعفف عن موائد الساسة والمتغطرسين بمال أو بقوة، باع السيارات ولم يملكها، استورد أثاثًا إيطاليًا للأغنياء وبنام على سرير صنعه ليبيريون، لولا أنه تاجر بالسليقة لكان زاهدًا بالفطرة.

رأى البرجي بين أطلال خرائبها ظلًا لزمان جميل، عُرِفَتْ فيه منروفيا بأنها «سويسرا غرب أفريقيا» لتضاريسها ونضارة طبيعتها التي تحتضن معمارها في تناغم بديع.

كما ارتأى فيها ما يكفي من الفرص لبناء ثروته وتحقيق إرادته بتفكيك عالم يرفضه وبناء عالم يحلم به!

يعيب عليه أقرانه تهاسطه وعناده وعدم سياسته للمال كما ينبغي، فالتجار الحاذقون يجمعون الثروات هنا ليصدروها إلى لبنان أو أمريكا أو أوروبا، ثم إذا ما حان الموعد يهجرون إلى العالم المتحضر؛ حيث الرفاهية والتمدن.

حلم البرجي لم يكن الثراء فقط بقدر ما كان تحقيق الحياة المثالية كما يراها. فوقر للتاجر المغامر أن يبني الحلم هنا، أعجبه أن الدولة قامت أساسًا على وعد الحرية وأن دستورها كتب ليتوافق ومبادئ الدستور الأمريكي، فكان من الأجانب القلائل الذين سعوا لحمل الجنسية وجواز السفر الليبيري!

لان قلبه لوجوه المعذبين بالفقر والجهل والحروب، فبش وسخا، ذاع صيته لاختلافه وأخلاقه الحميدة، وقرّه الجميع لكرمه، اجتهد وعمل في تجارة مواد البناء، ثم توسعت تجارته للمقاولات والاستيراد، فتح أبوابًا كثيرة للرزق، نمت ثروته بأسرع مما ظن، فأيقن أن حدسه حق، وأن حلم الإنسان في إعمار أرض الحرية قابل للتحقق!

الفقير المغامر الذي جاء من بلاد لا تكل التناحر إلى هذه البلاد التي تتناحر أيضًا، قد قرر أن يتخذ موقفه من الحياة للحياة هنا! يتابع جهود المبشرين المسيحيين حوله، يدخل معهم في جدل عقيم كثيرًا من الأحيان ليس على أساس ديني بقدر ما هو اختلاف حول فلسفة الحياة، هم يعدون الناس بالجنة في حياة بعد هذه! أما هو فيبني معهم الجنة في هذه الحياة.

أفنى عمرًا يعاند الحرب والجهل والفقر، يحنو على المعدمين الذين أحبوه وأحبهم، يعلمهم كيف يبنون عالمًا أفضل في هذه الأرض، يراه كل من اللبنانيين والليبيريين مختلفًا، قد يختلف الكثير مع منهجه ورؤيته، لكن يوقره ويحبه الجميع.

اعتاد البرجي الشاب زيارة «ضيعته» في الجنوب اللبناني ما بين سنة وأخرى، بنى لأهله بيتًا جميلًا من طابقين ظل مثار إعجاب أهل الضيعة الصغيرة لسنوات.

ولما أحس باستطاعته وحاجته للاستقرار، اختار من بنات رجمه غادة فقيرة، على الفطرة، جميلة،

طيبة، حمولة. تزوجها وأحضرها لتعيش معه في منروفيا، شرح لها أحلامه بالتفصيل، انبهرت به أحبته فأحبها، أنجبت له ولدين وبناتاً.

جزعت لما شهدت وقائع بعض الأحداث والمعارك التي قضت على نظام «صامويل دو»، لم تطق الحياة خارج إطار ما تعرف وعادت بأطفاله الثلاثة لمسقط رأسها بعد سنوات قليلة كانت كفيلة بأن تظل تحبه للأبد!

أما هو فرغم توسلاتها ودموع الخوف على الحبيب لم يصحبها، بقي! مع كل حرب تستعر يخسر الكثير من تجارته وماله، لكن يكتسب مزيداً من التشبث بهذه الأرض، يزداد عناداً، يبحث من جديد عن نقطة بداية ليعيد بناء حلمه وجمع ثروته التي يضيع منها ما يضيع ما بين السرقات والإتاوات والهدم!

أما الآن وبعد ربع قرن في الأرض الموعودة للأحرار، فما زال البرجي يطارد حلمه في منروفيا التي شاد فيها ما نايف العشرين بناية، يدرك في قرارة نفسه أن الحلم يبتعد، لكنه بكبرياء المحاربين الشعراء، لا يكل عن مطاردته، يعود من وقت لآخر إلى «الضيعة» ليرى غادة والأبناء، في كل مرة يراها تطلب منه غادة أن يعود ويعيش بينهم فيربي أطفاله، ترى أنه يكفي ما جمع، لكنه لم ينته بعد.

سنوات اختلفت واختلفت وجوه، إلا أن البرجي ما فترت عزيمته وإن قل جهده، يعمل الآن بتجارة العاديات والأواني المنزلية، ويقوم بتحصيل إيجارات بعض المباني التي ما زال يمتلكها في أنحاء المدينة بقدر ما تسمح به الظروف، جميع الليبيريين والليبيريات حوله ينادونه بلقب «Papa»، وهو يروق له ذلك.

يعيش متصالحاً مع ذاته وتناقضاتها؛ أملاً في غد مسالم رائق كمياه شواطئ ليبيريا، يضحك أكثر أوقاته، لا يابه بخوف اللبنانيين الآخرين على

بيوتهم وتجارتهم، هو الوحيد في منروفيا الذي يعيش في شقته مشرعًا بابها لا يغلقة إلا ساعات النوم أو المتعة.

تخلق حول البرجي واقع مغاير، يعيشه منفردًا عن أقرانه، هو غير الكل، واقع يراه جليًا لا غموض فيه، حلم أرض الحرية ما زال يسطع في سماء وجدانه، إن كان في منروفيا ما يعبر عن ماهية منروفيا، فإن البرجي هو مرآة المدينة بكل تفاصيلها المتناقضة.

(8)

كان ولم يزل حديث العهد بالمكان، ولم تشِ مرأيه بالمدينة حتى ساعتها بما يشهده في ساعته! حمله السائق إلى هنا من فندق «المامبا بوينت» المشرف على الخليج في أرقى ضواحي المدينة حيث السفارات والمصالح الأجنبية.

أما المسكن الذي اقترحه كلاوس بوسط المدينة فغير بعيد عن مقر الشركة بحي الميناء، إيجار مسكن بوسط المدينة أرخص كثيرًا من إيجار بالمامبا بوينت، وافق هو على ما اقترحه رئيسه فهو لا يعرف أفضل!

طوت السيارة الطريق من الفندق إلى حيث توقفت في زمن يسير، لاحظ أنه كلما ابتعد عن الفندق واقترب من وسط المدينة، زاد عدد الناس وارتفعت معدلات الصخب والضوضاء. نزل السائق النحيف على عجل وانشغل بإخراج حقيبته بينما هو مستغرق قابع مندهش لما يرى ويسمع ويشم حوله!

فتح له السائق الباب بابتسامة عريضة، مشيرًا إلى متجر بيع عاديات وأدوات منزلية بالدور الأرضي في بناية عالية واجهتها من «البلاط القيشاني» فزدقي اللون!

البنائة مرتفعة مقارنة بما حولها، تستطيع أن تميزها قبل الوصول إليها بعدة كيلومترات، علامة لا تخطئها عين بالحي المنتهك المكتظ بمبانيه ورواده، هذه الواجهة الغربية كأنها جدار «حمام» كبير به شرفات! لم يفهم لماذا يستحثه السائق لدخول المتجر! أيريد شراء شيء؟

خرج من السيارة مُتريبًا مشوشًا، خشعت عيناه للشمس الساطعة، ولفحت وجهه حرارة الجو، شق عليه تنفس الهواء الثقيل الرطب! على الرغم من الإيقاع السريع للحركة المائجة حوله، كُهل له كأن الجميع توقفوا لحظات يتفحصون هذا الغريب! بدا

له أن الوجوه حوله فطنت إلى أنه قلق متحضر،
عيون كثيرة تحديق في وجهه، سواء مرت بالقرب
منه أو عن بعد.

الشمس تتوسط قبة السماء، حقا درجة الحرارة
عالية وزادت الرطوبة من لزوجة العرق تحت إبطيه
وأسفل ظهره وفوق جبينه المكفهر. صخب وزحام
في كل الأرجاء، محيطه يدب بحركة دائبة في كل
الاتجاهات.

لم ير في حياته كل هذه الوجوه السمراء التي
لا تشبهه في مكان واحد، العيون واسعة ثاقبة،
والأسنان ناصعة الصفرة أو البياض، أزياء أفريقية
غريبة، وأزياء أوروبية مألوفة، رثة في معظمها.
روائح متداخلة، رطبة، عطنة، مدخنة. ربما رائحة
شواء، أبخرة طعام، زيت محروق، مياه راكدة! لا
يدري، أنفه لا يفقه ما استجد عليه.

واجهات لمحات متلاصقة أكثرها قديم أو
مهمل، أكشاك صغيرة متناثرة تبيع كل شيء
وأي شيء، باعة جائلون وآخرون مستقرون فوق
الأرصعة العتيقة. غير بعيد، لسبب ما استرعى
انتباهه وجه أفريقي فتىّ باسم، يشير له ليتقدم
نحو لوحات فنية مفعمة بألوان الزيت تفتersh
مساحة من الرصيف، على الرغم من المسافة فإن
الفتى أخذ يلوح له ليقترب مشيرًا إلى لوحاته
التي تختلف عن أي ما رأى!

تعجب كيف ميزه الفتى في خضم الزحام!

قريبًا على بعد خطوات منه، عجوز ضئيلة قبعت
مستندة للجدار، تبيع لفافات من أوراق الموز في
سلال بدائية أمامها، قدر أن بها طعامًا ما! رفعت
له إحداهما بيد أوهنها الزمن، تستجديه بابتسامة
أطلت بين تجاعيد وجهها، تريد أن يكتري اللفافة
التي لا يدري ما حوت!

غير بعيد لاحظ نحيبًا رث المظهر يرمقه بحقد،
يستند لجدار أمامه، بضع أزواج من نعال بلاستيكية
زاهية الألوان. تساءل لماذا كل هذا الحقد بعيني

هذا البانس! تحاشى النظر إليه وزاغ بصره بين الجموع.

إنهم كالنمل يملؤون المكان! لا يتوقفون عن الحركة! لاحظ بعضهم يتراقص على النغمات المتقاطعات في محيطه الموتور، يسمع بوضوح موسيقى وأغاني أمريكية معروفة تتقاطع مع أنغام وإيقاعات أفريقية، أصوات البشر وضجيج السيارات، ضوضاء تدك قدرة عقله على الاستيعاب. يكاد يقسم أنه يسمع لحناً لسيد درويش بصوت فيروز!

كيف يستطيع أن يعيش وسط هذا الصخب يوماً واحداً! ربما عليه أن ينادي السائق فيحمله عائداً إلى الفندق فيحزم حقيبته!

حواسه مستنفرة في هذا المجال الذي لم يخبر مثله طيلة حياته، ما يعرف عن ماهية العالم لا يمت لما هو فيه الآن بأي شيء! عالمه الذي يختفي فيه فلا يلحظه أحد لا يشبه هذا العالم الذي يتفرس تفاصيله وتتخاطفه فيه العيون.

فجأة اشتم رائحة كريهة ونفاذة! فطن أن شحاذاً مبتور الأرجل اقترب منه وجذب طرف بنطاله برفق، انتحى لا إرادياً ووضع يده على جيب برزته حيث حافظة نقوده لقا وجل وجفل. في ثوانٍ كثر الشحاذون ذوو العاهات، تحلقوا حوله يتضرعون بإصرار سمج. يتجاذب بعضهم أطراف ملابسهم مادين إليه أياديهم السائلة المتسخة، وألسنتهم المتلاهجة وعيونهم الضارعة الخائنة المتحينة!

استدعت مخاوفه ومحاولاته للتخلص من الشحاذين نظرات من بعضهم وبعضهن، فتنبهوا له يترصدون حاله!

رعدة بأطرافه، وعرق ينحدر بارد فوق فقرات ظهره واحدة تلو الأخرى! فكر أن يعود ليقفل في السيارة القريبة، لكنه قدر أنهم سيستمرون في التحلق حوله، مد رقبتهم فرأى السائق غير بعيد يتغلج مع سمراء ممثلة ترتدي زياً أفريقيًا فافع

اللون، هو الوجه الوحيد المألوف من بين كل ما يتحدى إدراكه في موقفه هذا. همّ بالتحرك، حاذرت خطواته الاصطدام بأيّ ممن حوله، سار حتى وصل إلى السائق الذي تنبه له، وأشار له أن يدخل المتجر فولج مترددًا.

المكان منعش بحكم الظل وتيار الهواء القادم من جهة مراوح السقف التي تدور بسرعة، فشعر كمن كان يتلاطمه تيار نهر ثم أوى بعد عناء إلى ضفته!

المتجر واسع المساحة متخم بالبضاعة الصينية من أواني مطبخ وأجهزة كهربية وأطباق وأكواب وبلاستيكيات قد رتبت في أرفف متوازية، وبه بعض من نسوة ورجال يبيعون ويشترون.

جالت عيناه بخجل وتوجس في الوجوه التي ارتسمت عليها علامات استفهام عن مكنون هذا الغريب القادم!

بالركن القريب من الباب وجد البرجي وقد جلس مبتسمًا فوق كرسي جلدي ضخم وثير، فاخر الصنعة، قديم الهيئة، خلف مكتب خشبي فاره المنظر، لا ينتمي لمحيطه وينم عن جودة الحرفة، وعلو قيمة خشبه الأسود الصلد الصامد لتحدي الزمن، البرجي ومكتبه لا يشبهان شيئًا هنا.

قام له أبو عبد الله في مكانه ماذاً يده بتهلل، وبلكنة لبنانية مألوفة ومميزة: أهلييين ابن النيل! حمدالله عاسلامتاك! أني سمير البرجي صاحب ها البناية!

عرف الآن لماذا أراد له السائق دخول المتجر! فتلقف يد الرجل بحماس ورد:

- أهلاً بحضرتك.

قال ضاحكًا:

- تعرف! واحد لبناني قابل واحد مصري قال له أهلاً ابن النيل، رد عليه المصري قال له أهلاً ابن الكلب، نسبة لنهر الكلب بلبنان.

ابتسم له مجاملاً ورد:

- أنا متشكر جداً، وآسف إذا كنت أزعجتك.

- ولو! حبيب! أنا لما عرفت إلك مصري، قلت لهم
أهلين على راسي ضيفنا، ويسكن بلاش بالشقة
اللي تعجبه.

- ربنا يخليك.

- اتفضل.

أشار لكرسي بجانبه خلف المكتب العتيق واتبع
بلكنة مصرية ركيكة مصطنعة:

- تشرب شاي ولّا قهوة لبناني؟

رد بحياء:

- أي حاجة.

- لااا بدي إياك صوتك عالي وقوي منشان تعيش
هون.

ثم عاد للكنته المصرية مبتسماً:

- مُتوة يعني متل ما بتقولوا بمصر.

نظر إليه بلامح حائرة مستفهمة!

أتبع أبو عبد الله:

- إنت طويل وعريض وحلو ماشا الله عليك لازم
يخافوا منك منشان ما يزعبروا معاك ما هيك؟
انتبه لحالك هون!

فهم هو أن أبا عبد الله بحسه الفطري قد قرأ
فوراً ما كتب بلامحه من خوف وقلق. فأوما
برأسه متفقاً مع ما قال.

استدرك البرجي:

- أول مرة بأفريقيا ما هيك؟

- آه، أول مرة!

- راح تنبسط وخاصة هون، الليبيريين إمعترين ما
في أطيب ملهن، صدقلي!

- ربنا يسهل يا أبو عبد الله، دعواتك!

- لا تخاف من شي، أخوك موجود!

واضعاً راحته على صدره باعتزاز ثم استدرك

يسأله:

- إنت مزوج؟

- والله لسه يا أبو عبد الله.

- ليش؟

رد بنبرة بها مسحة من ضيق:

- النصيب!

- ما تشيل هم، راح تتزوج عن قريب.

ثم صرخ بأعلى صوته:

- زونجا زونجا!

لسبب ما ظن أنه سيزوجه في الحال من هذه «الزونجا»! لكن حمداً لله هرع إلى داخل المتجر ليبيري كهل رث الثياب تفوح منه رائحة كريهة كرائحة الشحاذين، أمره أبو عبد الله أن يأخذ حقيبته للشقة التي اختيرت له بالدور الرابع بالبناية، خاف على الحقيبة وتردد أن يسلمها إلى زونجا! لكن أشار له أبو عبد الله أن يطمئن!

ترك الحقيبة لزونجا، شيء ما دعاه أن يثق في أبو عبد الله!

كما أن البرجي مختلف عن أقرانه، البناية ذات الطوابق الست مختلفة عما حولها، فواجهتها مغلفة بالقيشاني الأخضر الذي استورده أبو عبد الله لحمامات منروفيا، ولما لم يجد رواجاً لهذه البضاعة، تفكّر ذهنه عن استخدامه في تزيين واجهة العمارة!

أراد البرجي لهذه البناية أن تكون سكنى لعلية القوم والتجار الأغنياء، فشيدها لتكون الأفضل فيما عقر. عمد إلى أن تكون الأعلى في الحي، ردهاتها واسعة وأسقفها عالية، كل طابق فيها مؤمن عند منتهى الدرج بباب حديدي من السقف إلى الأعتاب، أمام أبواب الشقق الخشبية أبواب حديدية مزخرفة! فلزمه حمل ستة مفاتيح ليفتح أبواب الطوابق ويغلقها عند قدومه أو رواجه!

بتصميم البناية بئر لمصاعد كهربية، لم يتم تركيبها لحين إصلاح شبكة الكهرباء بالمدينة! حماماتها مكسية بقبشاني واجهتها! فوق سطحها صهريج لتخزين المياه، من المفترض أن يُملأ أوتوماتيكياً لكن لا مياه تصل لأنابيب البنايات في منروفيا!

بعد أيام، اكتشف أن هذه البناية ليس بها ساكن غيره! لا مستأجرين غير مكتب لتجارة الألماس يجاوره بالطابق الرابع يغلق أبوابه عند السادسة مساءً، فبييت هو وحيداً بالبناية الخاوية! الردهات الواسعة ترجع صوت خطوات زونجا وصوت صرير الأبواب الحديدية، النور خافت بمصابيحها التي تنطفئ في السادسة أيضاً!

الوحدة هي الرفيق الذي اعتاده طيلة حياته، البناية الصامتة تستدعي هذا الشعور، مساءً مع مغيب الشمس يخيم سكون تتوق له نفسه في خضم محيطه اللاعج، سكون يعيده إلى ذلك الهدوء الذي ألفه في حياته قبل منروفيا.

لسبب ما، شُخص أبو عبد الله جعله يراجع نفسه بشأن عدم السكنى في هذا الحي الصاخب، ربما عليه المكوث لبعض الوقت! فعلى كل حال البناية مؤمنة كسجن! كما أنها جديدة ونظيفة.

البناية نقطة ضعف ألا وهي زونجا! مع زونجا نسخة مفاتيح كل أبواب الطوابق، فماذا لو سولت له نفسه أمر سوء؟ يبدو خبيثاً ضعيفاً لا يوحى بالثقة، لكن بالتأكيد يثق فيه أبو عبد الله لسبب وجيه!

البرجي لا يتركه يدخل أو يخرج دون أن يحتفي به، ويدعوه باستمرار للقهوة في متجره حتى صارت عادة، وأياماً كثيرة يتقاسمان طعامهما أياً كان. قدمه البرجي لأصدقائه ودعاه لجلسات السمر

و«الطرنيب» - لعبة يلعبها اللبنانيون بأوراق اللعب - مساءً، كما قدمه إلى شاطئ المحيط الأطلسي صبيحة يوم أحد.

شطان منروفيا عذرية بديعة، ما زالت تحتفظ المياه بنقاوتها، تتناثر في رمالها البيضاء الناعمة أشجار نخيل وبامبو.

في أحد أيام سكناه الأولى، خرج إلى الشرفة وأزعج ناظره أن بعض المنازل المقابلة تعيق رؤيته للمحيط، كما أنه في مرمى عيون تتجسس! فقرر أن يطلب من أبو عبد الله أن ينتقل لشقة بالدور الخامس، لم يمانع البرجي في ذلك فارتقى طابقاً، أضاف مفتاحاً آخر، لكن المنظر من أعلى أفضل ولا تصله نظرات المتجسسين!

من الشرفة العالية يستطيع أن يرى أطراف المدينة وألوان الغروب تنعكس على المحيط وأسقف البنايات، فتدثرها برداء رومانسي به شيء من دعة، بدا له من هذه الشرفة أن منروفيا كل ما فيها قريب!

(9)

خارت قواه على كرسي الخيزران القريب، بل العرق جبينه وقميصه الرياضي الأحمر، زائغ العينين، يلهث لا يدري إن كان من نصب أو من غضب. قبل مباراة تنس الطاولة -التي طلبها بإصرار وعلى غير موعد هذا المساء- لاحظ أن به شيئاً من سكرٍ وخمول، لكنه ما إن شرعا في تبادل الكرة حتى دبت فيه حيوية ووجدته شديد التركيز حاضر الهمّة كما هو في كل أحواله، وإن استجد عليه هذا الليلة بعض التوتر ظهر في تحركاته العنيفة وصراخه وسبابه لذاته على غير اعتياد عند خسارة النقاط!

بحقٍ يصم نفسه بالغباء كلما ضاعت منه نقطة، يضرب رأسه بالمضرب إن طاشت ضرباته، مقطّب يكشر عن أنيابه يرمقه بغیظ غير مفهوم! عليه أن يتركه يفوز، هكذا أرشدته البديهة!

جلس إلى جواره قلقاً، يرقب شروده وهو يعاقر كأساً من الويسكي أيضاً على غير عادة، هو يدمن النبيذ الأحمر يشربه بنهم وتلذذ في معظم أوقاته، يبدو أثر ذلك جلياً على لون أسنانه وأنفه الأزرق المشوب بالحمرة ورائحة أنفاسه العطنة!

لم يره على حال كهذه منذ التقيا أول مرة، يجده مختلفاً في جلسته هذه، لأول مرة تبدو عليه أمارات ضعف وهزيمة وبؤس، فهذا الجائم فوق أحزان نفسه يحدق في غياهب ذاته لا يمت للرجل الصارم الذي كان يدير أعمال الشركة صباح اليوم بحزمه وصلفه المعتاد، يأمر وينهى، يصرخ ويعاقب!

ترى ما جدٌ في حياته؟ هو بالتأكيد مهتم لأمر ما، أدرك أنه لا يعلم عن حياة الكهل البافاري شيئاً، لم يجرؤ أن يسأله سؤالاً شخصياً منذ التقيا قبل أسابيع، هو حذر لأقصى درجة في تعامله

معها، لا يريد أن يغير من نمط علاقتهما المريح من ناحية، ومن ناحية أخرى كلاوس نفسه لا يتيح له أي فرصة لإزاحة أستار غموضه، ترى أيسأله الآن عما يحزنه!

أنباته سليقته ألا يفعل!

أشاح بوجهه ناحية المحيط، يرنو إلى وميض يلوح فوق صاري حاوية تمخر عباب الظلمة في الأفق الداني، يتناهى إلى سمعه صوت تكسر الموجات على الشاطئ القريب، أصبح بينه وبين هذا الصوت ألفة، فطن إلى أن المحيط وادع هذا المساء! هو يسمع الموجات تتكسر يوميًا عند صخور الشاطئ، هو يجيد الإنصات للرتابة، يدرك من استماعه الدائم لهدير الموج ما تفعل الريح بالمياه، أهما متوائمان أم يدفع بعضهما بعضًا، تأسره تلك العلاقة السحرية بين الريح والمياه.

تداعت عليه أفكار وذكريات قريبة وبعيدة، تجسدت له صور من طفولته، وجه أمه حزين، جسد أبيه ميت، منى، وداعه لها في بيتها ساعات قبيل السفر، ثم ما لبث واستغرقت مشاهد لقاءاته مع رحمة، كيف هي، ابتسامتها البريئة، نظراتها الألقية، حرارة جسدها، رائحة أنوثتها، إيماءاتها، لمساتها، احتواؤها له وكأنها خلقت من أجله.

لم يحسب زمنًا لمجلسهما، ولكنه أحس أنه طال، فقد فرغ من كأس الجعة التي قدمها له مضيفه، في اللحظة التي تململ وأراد أن يستأذن في أن يذهب، فاجأه كلاوس قائلاً: أتدري ما أشقى ما في الوحدة؟

رد مرتبًا وقد فاجأه السؤال:

- لا! لا أدري على وجه الدقة، لكن أعتقد أشياء كثيرة!

- أن يجبرك عليها من تحب!

- ماذا تعني مستر كلاوس؟

نظر الكهل إليه بعينين مغرورتين انكسارًا

وحسرة، وأجابه كمن فاض به الألم:

- لقد أحببتها جدًا، وفعلت كل ما في وسعي لإرضائها، لقد رعتها طفلة كأحسن ما يكون الأب، أفرح عندما تستقبلني بفرح لدى عودتي للمنزل، لحظة أنتظرها طوال اليوم، أجلب لها الحلوى وطواع البريد والمجلات المصورة، أهديتها أول دراجة، أخذتها للمسرح لأول مرة في حياتها، كانت متحمسة للغاية، أذكر ذلك اليوم جيدًا، ليلة من خريف ميونخ، باردة الطقس منعشة النسيمات، ارتدت معطفًا أحمر وقبعة سوداء وقفازات وجوارب بيضاء، بدت ملاكًا يتهادى على الأرض!

شرد مع الذكرى قليلًا، ثم أتبع صارخًا:

- لا أعلم ماذا أفعل! كيف تركتها تكرهني لهذا الحد! اللعنة!

وانتفض من مجلسه مطيحًا بكأس الكريستال في يده عبر الشرفة ليبتلعها الظلام!

امتزج صوت تهشم الكأس على الصخور وصراخه بعبارات ألمانية لم يفهمها!

قام هو الآخر من مجلسه وقد تملك منه مزيج من ارتباك وتريب، فقال بصوت خفيض:

- اهدأ مستر كلاوس، لا بأس!

رغم السكره وقسوة الذكريات فإنه أدرك أن أعصابه انفلتت، فعاد يتمالك نفسه، توجه إلى حيث زجاجة الشراب، صب لنفسه كأسًا آخر، رمقه متحرجًا وأوماً له معترضًا عن اضطرابه، وأشار له ليصب لنفسه كأسًا، ثم دار على عقبيه يقترب بخطوات حائرة من حافة الشرفة، أفرغ كأسه دفعة واحدة في حلقه ووضع على الحافة.

شبهك ساعديه أمام صدره واستنشق عليلًا من هواء المحيط، اضطربت وقفته، ظن أنه يسقط لكن استند براحتي يديه إلى الحافة ورفع كعبيه من فوق الأرض مائلًا بجذعه في الهواء يحدق في الظلام!

لوهلة، بدا أنه مال أكثر مما ينبغي وكأنه يريد القفز! لكنه ظل على وضعه دقيقة من وقت يحرق في اتجاه الخربة التي كفرها الإعتماد!
اقترب منه وقال على وجل واستحياء:

- لم أعرف أن لك أطفالاً مستر كلاوس!

لم يلتفت إليه، ولكن اعتدل في موقفه، أجاهه بصوت واهن:

- كان! لا! هي ليست ابنتي، بل هي ربييتي! عندما التقيت أمها كانت لم تكمل بعد أعوامها الخمسة، بريئة عيناها كسما منروفية في ليلة صيف!

تهادت إلى حياتي كربيع زار مرج بعد أن استبدت به الثلوج. لم أعرف بهجة قلبها، ولم يفرح قلبي بشيء بعدها!

غاب هنيهة تشببت فيها الذكرى بفؤاده، تنهد ثم تهدج صوته بشوق مشوب بحسرة:
- الآن هي شابة يافعة جميلة.

- مستر كلاوس! تتحدث عنها كشاعرا!

التفت إليه، حدق في وجهه قليلاً بتلك النظرات الباردة الثقيلة، ثم قال وقد استعاد صوته شيئاً من صرامته المعهودة:

- لا عليك، لا عليك، أعتقد أنك تريد أن تذهب، أليس كذلك؟

- أستطيع أن أبقى إذا أردت؟

- لا، لا اذهب! سأوي لسريري الآن، لقد تعبت جداً، كانت مباراة جيدة حقاً. شكراً لك!

في طي ذكريات الألماني الصلف والده رجل متأنق يرمقه بنظرات ملؤها الحسرة واللوم! كان يراه في مناسبات معدودة كل عام، أما أمه فلا ذكريات! في محياها كثير من ملامحها، زرقة العينين والألف الآري والوجه المسحوب ودقة الذقن! ماتت أثناء ولادته ولم يعرفها أو ينهل من

حنان عاطفتها.

هي له صورة فوتوغرافية بغير ألوان لامرأة رائعة الجمال بشوشة المحيا، توحى هينتها وجلستها وملابسها بكثير من الأرستقراطية.

منذ زمن قرر ألا يحمل هذه الصورة، تناساها. يغزو البرد والضيق قلبه كلما تذكر أنه نشأ بلا أم. دسّ الصورة بأعماق ذكرياته، إذا ما جالت في خاطره، ينعيها للراح في صمت.

تتفرق مرائي طفولته المؤلمة بين بيوت ومنازل تنقل فيها، ووجوه مربيات اختلفن عليه، ليال باردة بطيئة، ووحدة لم يفهم يومًا ما اقترب ليستحقها!

أفجّ قصاصات الذكرى هي وجه شاحب عابس ضخم، وذلك الخزف الذي أرجف أوصاله لرؤيتها، قصيرة شقراء صارمة، لها رائحة كالصوف المخزون، اعتادت أن تصفع صدغه بقوة لأي سبب كبر أم صغر، عندما تتسخ ملابسه أو يسقط من بين يديه صحن أو كوب أو عندما يبيل ملابسه أو فراشه لا إرادياً! تلك المشكلة التي لازمته حتى بدايات مراهقته وسببت له الكثير من الأذى والحر، فعوّد نفسه ألا يشرب الماء أو السوائل إلا في الصباح عندما يستبد به العطش. ساءله ذلك الخوف الذي سكن طفولته مرارًا لماذا لا يستجيب أبوه لاستغاثاته!

شعوره بالحقارة والذنب أحاسيس سكنته أعوامًا، كل ما حوله يهينه، هكذا أحس وهو يتلقى تعليمه في المدارس الداخلية، في البداية ارتاح لفكاه من المربية القاسية، لكن تلك الردهات الموحشة وأصوات المعلمين الجافة، فتیان من أقرانه يضربونه بقسوة؛ لأن جسده النحيل لم يقو لمقاومتهم، عناصر المبيت المظلمة الموحشة الخطرة، الزواؤه، مشاهد لم تهدد الخوف، بل زادتة جزعًا!

عدم اختلاطه برملاء دراسته الجامعية، نظرات

تحاول أن تفك أغاز صمته الدائم، زواجه الفاشل من الكي.

شخوص وأحداث من معاول وأزاميل نحتت منه هذا الكيان الذي يحس به ينسحق يومًا بعد يوم، يتعجب كيف قاوم إلى الآن، ليس على هذه الأرض ما يستحق الحياة!

لماذا نشأ في عالم متبدل لا يشعر فيه بحنان من أحد! لقاءاته بأبيه أثناء تلك الجلسات الباردة القصيرة، نظراته الجامدة التي لم تحمل له غير الأسى والانتقام، كان غرًا يتمنى أن يقفز إلى ذراعيه ليبكي ويسأله ألا يتركه وحيدًا مذعورًا، لكن لم يجرؤ، فبرودة عيني أبيه هي ذاتها برودة عيني الشقراء الشاحبة التي ترعاه كما يرعى السجن سجينه!

أيقن أن الأب قرر ألا ينشغل به أو تشاغل عنه؛ ربما لأنه رأى في وجهه صورة لامرأة أحبها فقدت حياتها لتتعبه حياته! فدفن في تابوتها قدرته على أن يحبه! أم أنه كان يمقتها وأراد أن تنقطع صلته بها تمامًا فأهمل وليدها! لماذا لم يعرضه للتبني؟ ربما التقطته امرأة لم تنجب فتعبه!

سأله يافعًا:

- لماذا لا تحبني؟ لماذا أهملتني؟

أجاب:

- أنا أغدق عليك المال، ورعيتك قدر ما أستطيع.

- لماذا لم تأخذني معك لأربي في بيتك مع

أولادك الآخرين؟ إخوتي الذين لا أعرفهم!

- لا مكان لك في ذاك البيت!

غضب كثيرًا ولزمن طويل، قرر ما دام لا مكان له في بيته فلا مكان له كأب في حياته! اعتزم أن يعيش حياة يختارها هو ويدخل فيها أشخاصًا ينتقاهم بعناية فيسمح لهم بدخول عالمه.

فر وهجر كل ما ومن يعرف، ترك حياته خلفه، وارتحل، سكن مدناً عدة، خبر حياة أخرى وأناسًا

آخرين لا يعرفهم ولا يعرفونه، كابد الكثير من المشقات في توفير قوته وتأمين عمل مستقر يحقق له دخلاً يغنيه.

استقر به الحال في أحد أحياء مدينة «ميونخ»، دفعه إصراره على النجاح في حياته الخاصة والعملية أن ينتحل شخصية لنفسه، أتقن ارتداءها في العمل وفي محيطه الاجتماعي المدروس بعناية، وجاء ارتباطه بامرأة -لأول مرة- تتويجاً لحياته الجديدة التي صنعها على ما رغب. انبهر بآنا، لم يدر حينها إن كانت علاقته بها نتيجة اختيار أم انسياق!

آنا ليست كمثله في شيء، هي منطلقة شغوفه مجربة، تضرب على آلة الجيتار، وتشم جسدها برسومات وعبارات مثيرة، تكبره ببضع سنين، راقه أنها انجذبت إليه في تلك الحفلة عند أحد الأصدقاء، رآها تعزف وتغني، التقت نظراتهما على اهتمام متبادل ورغبة، تحفظ شيئاً لما علم أن لها بنتاً صغيرة من رجل عبر حياتها، إلا أن ذلك لم يحل دون التماذي في العلاقة التي ألهمت أحاسيسه لفترة!

علاقته بآنا لم تكن اختياره الراشد، فاجأته كثيراً، استثارته دائماً، أحب فيها أشياء ومقت أشياء، لكن ما لم يتوقعه هو أن يحب ربيبته ألكي التي فتحت أبواباً في قلبه لم يعلم بوجودها، بثت في حياته أحاسيس لم يعهدها، عرف الأبوة في هذه الطفلة التي رأى في حياتها أطياً من حياته التي طالما زارت ذاكرته أياماً، رأى في ملامحها وجهه المعذب يطل من بين صفحات ماضيه البائس! فقرر ألا تمر هي بنفس تجربته، فوجد كل منهما ضالته في الآخر، أغدق عليها الحنان الصادق ووهبته الحب اللقي، كان أفضل تعويض لها عن أب لم تعرفه! اهتم بها وبكل تفاصيل نشأتها، هي أيضاً أحبته وتعلقت به، لم يحب أمها كما أحبها، لولا وجودها في حياتهما كانا

قد انفصلا منذ سنوات! ارتضيا أن يتقاسما حياة من أجل ألبي. لقد كان وما زال متحفظًا ملتزمًا في كل علاقاته، يضع حدودًا لنفسه وللجميع، أنا لا تحب الحدود ولا الجمود ولا القيود. ألبي كانت هي الوحيدة التي تقتحمه كما تريد وقتما تريد، لا يستطيع أن يرفض لها طلبًا، يحطم كل حواجزه ويخترق كل حدوده! لأجلها فقط!

ذهبت للتسوق وتركتهما بالبيت، هو منكب على بعض شواغله، بينما ألبي تستمع إلى موسيقى «الآر أند بي» في غرفتها بالدور الثاني كما اعتادت مؤخرًا، وكما هي الصيحة بين أقرانها من المراهقين، تميل جدًا للموسيقى وتحب الغناء، وبالرغم من أن أمها هي من تمتهن الغناء فإنه هو من زرع فيها هذا الحس الفني منذ نعومة أظفارها!

أحس بإعياء عينيه من فرط التحديق في الأوراق المبعثرة أمامه، قرر أن يستريح قليلًا، أراد أن يتجاذب وألبي أطراف الحديث كما ألف، فهمم يصعد إلى حيث غرفتها.

كان صوت الموسيقى يتصاعد كلما اقترب من الغرفة، لا يهوى هذا اللون من الموسيقى يفضل الكلاسيكيات، اقترب من الباب الموصد، طرقه بلطف، فلم تجبه! دفع الباب برفق، تفاجأ لما رآها عارية بسريرها!

ميز تحت صخب الموسيقى تأوهات اللذة المكبوتة، رمقها مشدوهاً وقد انغمست تناغي أنوثتها التي تفجرت فجأة أمام عينيه، استفاقت ألبي لما أحست وجوده، لعلمت غطاءها فوق محاسنها وقد نضح وجهها خجلًا!

لم يدر ماذا يفعل! انسحب بحركة لا إرادية مغلقًا الباب خلفه!

لأسابيع طويلة شاقة حاول تصلح أن شيئًا لم يحدث، جاهد نفسه ليهتاجل صورتها كأنثى، تلك

الصورة التي فاجأته وعلقت بذهنه، فحتى تلك اللحظة كانت في وعيه طفلة، مجرد طفلة! هي من قررت أن تتحدى خجله وإحجابه، وبغريزة اللعوب التي تلبستها والرغبة في التجريب، أقبلت عليه لما أحست منه ما يخيفه وكاد يخفيه! هو في عالمها الرجل الذي تحب، فلم تعد تراه بعيني الطفلة وهي تشب وتكتشف شيئاً فشيئاً مواطن قوة أنوثتها، قاوم كثيراً لكنه استسلم لإصرارها.

لعن نفسه ولم يستطع استيعاب ما فعل، كيف يجرؤ على اقتحام عذريتها، صحيح هي أرادت ذلك لكن أين إرادته هو، لماذا انصاع، لماذا تملكته منه حيوانيته!

التقيا مرات عديدة كانت ترحب به كل مرة، بل هي من تطلبه في أحيان كثيرة، تغار عليه من أمها، أنهه ضميره كثيراً لكن لم يستطع دفعاً لشهوتها المحمومة وعواطفه الماجنة.

استعذب تحول عاطفته، لم تعد طفلة بعينيه، بل أصبحت عشقه الأول والأخير، يتعامل معها بكل رقة وحب وعطف، واستباحت غريزتها المتأججة فحولته، واكتشفت معه ما لم يعرفه عن نفسه.

سنوات لم يشعر بما بينهما من مسافات إلا حينما بدأت تتجاهله وتميل عنه! هل فعل ما يغضبها! هل اختلف فيه شيء ما؟ سألتها، نفت! قالت بخجل مصطنع أنها راجعت نفسها، وأنها تريد أن ينتهي ما بينهما وأن تعود العلاقة كسابق عهدها!

صعقته الكلمات!

كيف!

لقد منحها كل شيء في الحياة!

لقد تنازل عن روحه للشيطان من أجلها!

كيف تتركه الآن!

تطرده من جلثها! إن كياهه يكاد يتحطم على

أسوار الحنق الشوق والرغبة! لم يعد له في
ظلماء أيامه بصيص من ضوء من دونها، كيف
تتركه يهوي في هوة لا يعلم مداها، أهذا جزاء
حبه غير المشروط! يكاد يجن!

تجسس وتلصص حتى رآها مع شاب في مثل
سنها، استشاط غضبًا، وشعر بضعفه أمام عنفوان
شباب ذلك الآخر، عاتبها ردت بصف!
صفعها مرة ومرة ومرات حتى سقطت مغشيًا
عليها!

لم يصدق أنه فعل ذلك، حاول أن يتدارك خطاه،
لم تقبل استجداءه ولا توسله، تركت المنزل، بحث
عنها كثيرًا.

ندم على كل شيء، فكر في الانتحار مرات لكن
جن، حاول بإصرار التلهي عنها، لكن لا يستطيع،
كلما استبد به الشوق استعر في جوفه الغضب!
قرر الانسحاب من ألم قلبه في ميونخ إلى جحيم
نفسه في منروفيا!

سنوات تمر وجمر عاطفته لا ينطفئ تحت ركام
قلبه، من آن لآخر تعاوده الذكريات فتستعر الجمار
لتحيل كيانه حريقًا!

يعاقر الكأس ليناجيها، يعاشر اليافعات لعله يجد
في إحداهن رائحة بكارتها، يبحث في كل جسد
حرارة جسدها الغض وعنفوان عاطفتها!
ينظر إلى وجهه في المرأة فلا يعرف فيمن
يحدث!

خلف هذا الوجه الذي يمقته يختبئ شخص
شهواني حقير، ينسلخ من إنسانيته ويتحول إلى
شيطان يومًا بعد يوم!

(10)

ارتضى رحمة دليلاً لحياته، هي ملاذته الدائم هنا، ينسى على صدرها المنحوت منغصات الحياة، يسمع بوضوح نبضات قلبها حين تضم رأسه بحنان بين جناحيها، تداعب خصلات شعره بين أناملها، تستقبله مراشفها دائماً بابتسامة تسبق قبلة تبدووها وينهيها، تقبل عليه بلهفة العاشقين، تغمره بملذات رغبتها وجموحها الدائم.

يسائل نفسه أحياناً وهو يتأمل ملامحها، أهى حقاً بهذا الجمال، أم أنه يراها بعيون قلبه الذي يصوغ تفاصيلها على أروع ما تكون امرأة؟

المرأة الأفريقية بلون بشرتها ولامحها تختلف عن الصورة التي صاغها خياله فيما سبق، رحمة أعادت صياغة خياله ومعايير الجمال في ضميره.

كان يكره إن وضعت مساحيق أو ألصقت رموشاً اصطناعية بأهدابها، أو فضت جدائلها، سجيبتها أكثر ما يجذبه إليها.

لجلدها رائحة جوز الهند، لم يخبر هذه الرائحة قبل لكنه أدمنها، رائحة الدهن الذي تدلك المنروفيات به أجسادهن فلا تجف تحت وطأة الشمس.

إن وضع رأسه فوق نهدبها فاحت كأنها زهرة يتجدد ربيعها كلما التقيا، إذا احتواها يسبل جفنيه يتنسم رائحة وجودها على جلده، يطوف كرجال فوق جسدها الأغيد المجهول على فطرة من عنفوان العشق وأجيج الرغبة!

حناياها تناسب هيكله فيشعر بالانتماء لأحضانها، بها دعة لم يالفها حتى على صدر أمه.

هي ملدفة لحد يكاد يجزم معه أن بها مثلاً من جنون، تلهو وتمرح وترقص كثيراً، تقبل على كل شيء وأي شيء ممتع ومتاح، لا محاذير لا خوف! دفقة ربح تلهو بشراعه كيف شاءت، وحين السكون لحضورها سكبنة ولمجلسها أس،

تستهويه سذاجة أفكارها، عالمها صغير جدًا، وأحلامها عريضة جدًا! تريد الهجرة للولايات المتحدة الأمريكية وأن تمتلك سيارة فارهة ومنزلًا جميلًا ومالًا كثيرًا لتشتري ملابس وأحذية وحقائب، ستنجب أطفالًا رياضيين أصحاء البنية، ولا بد أن يدرس أحدهم الطب!

تتحدث عن ذلك كأنه أمر واقع سيحدث غدًا! تلك أمانيتها، تُعينها على تحمل واقعها القشيف القاسي، شغفٌ بالغد الزاهر ينقلها خارج إطار عوز اليوم المخزي، من وقت لآخر تطلب منه بضعة دولارات دون تكلف لتشتري أشياء، لا تغضب إن تعلل حتى لا يعطي، تتهلل إن منح، تحمد إن أهداها أي شيء غالي أو بخس!

يفهم تمامًا سر سعادته بمسامرتها، فهي تملأ فراغه، يُشتت أفكاره إيقاع كلماتها المتسارعة وتوارد خواطرها المتنافرة! يختار كيف تنتقل بسلاسة من موضوع لآخر غير ذي صلة دون أن يزعجه ذلك! في كل مرة تغمره بروايات عن أشخاص وأشياء جديدة، دائمًا عندها ما تقول ولها رأي قاطع واضح في كل موضوع، يعرف الآن الكثير عن أخواتها وأمهات المريضة وأبيها المدرس الذي مات وبنات أخواتها وصديقاتها وأصدقائهن. هو بطبعه منصت صامت، لا يهوى الثروة لكنه يحب أن يسمع لها، ينادي صوتها شيء في نفسه وربما روحه، لرنين كلماتها صدى في أذنه وللكنتها هوى بقلبه. يهواها، ينتظر لقاءها كل يوم!

عندما جلسا إلى الطعام، أثنت على رائحته الزكية فهي تستمتع بالماكل كما تشرب النبيذ بلهم وتلذذ! يعجب كيف تكون شرهة ولحيفة في ذات الوقت!

أكدت أنها تستطيع أن تطهو بمهارة، ودعته أن يشاركها في افتتاح مطعم يقدم أكلات أفريقية

وغربية وعربية.

ثم بدأت تحدثه عن الشُّعر المستعار، ثم عن الاختلافات بين الأزياء القبلية في ليبيريا، وأكدت أن أمها تحيك بمهارة وستطلب منها أن تحيك قميصًا أفريقيًا له!

وقالت له أيضًا إن المتمردين اقتحموا قرية صغيرة إلى الشمال من منروفيا على بعد ساعات قليلة من هنا، ازدردت آخر لقيمة من طبق الغذاء الرئيسي، واستدركت تسأله عن الحلوى!

اليوم، صحن الختام هو قطع «حلاوة الجبن» الشامية الطازجة -التي برعت في صنعها السيدة الحلبية التي تقطن منروفيا وتطهو الطعام يوميًا في منزلها وترسله له ولغيره مقابل مبلغ اعتبره زهيدًا- لما أشاح الغطاء عن صحن الحلوى، تمايلت رحمة وشفقت كطفلة، ثم اتبعت بحماسة وهي تتناول قطعة من الصحن بأصابعها الممشوقة، قتلوا الرجال وقطعوا أئداء النساء واختطفوا الغلمان واليافعين تاركين الأطفال الصغار يكون مروعين فوق جثث أمهاتهم!

- يا لها من قسوة.

- نعم! صحيح! قسوة! نعم، يقال إن هذه لعنة «الجوجومان» أسقطها عليهم؛ لأنه سبق أن طلب من زعيم القرية قرايين للآلهة ليخفي قريتهم عن أعين القتلة، فتعذر ولم يقدمها، لهذا حلت اللعنة وبادت القرية كلها، إنه رجل قوي حقًا!

- رحمة! هل تؤملين حقًا بالسحرة وتعاويذهم!

- اسمع! إن هذه القرية الصغيرة في مكانها هذا منذ الأزل، واندلعت في ليبيريا حروب كثيرة، فلماذا لم يهاجمها المتمردون غير الآن؟ أعلم أنكم لا تؤملون بقدرات السحرة لكلنا لصدقهم، أنا بعيني رأيت أحدهم يخرج من جوف شجرة بعد اختفائه أياها ورأيت أمي تقدم قرايين لتلجأ أختي رجالًا، فحملت خمس مرات كلهم ذكورًا!

مطّ شفتيه متعجبًا، سمع كثيرًا منذ مقدمه عن أفعال السحرة أو ما ينسب إليهم من معجزات، ما يتداول عن فعالهم يقشعر له جلده، فمنهم من يخطف أطفالًا ويقتلع قلوبهم أو عيونهم لعمل تعاويذ والإتيان بأعمال خارقة مستمرئين جهل الناس وتصديقهم لقدراتهم، وهم في سبيلهم لذلك لا يتورعون عن فعل أي شيء سواء بالقتل أو التشويه، لا ينجو منهم أحد رجالًا أو نساء أو أطفالًا، بل حتى الرضع!

يشيعون أنهم يغنون الفقراء ويحصنون قادة الحرب ويهبون الشجاعة للجناء والبنين للعُقر. تخيل مرات إحساس هؤلاء الضحايا والساحر مقبل عليهم ليقوم بجرائمه الشنعاء، ماذا لو كان هو نفسه هدفًا لسحريومًا ما!

رحمة حاضرة كالسحر في حياته، تهدئ من روعه، تقرب له العالم الجديد وتسد كل ثقوب ذاته. أما منى فما بينهما الآن أبعد مما بين منروفيا والإسكندرية، لم تمر دقائق مكالمته الهاتفية معها كما أراد، لم تكن رومانسية حاملة! ولم يكن صوتها رقيقًا وادعًا، ولم تكن مسامعها تشتاق إلى كلماته، سمع عباراتها شرطية فجّة، جملاً أمرّة متعالية النبرة!

نُصّر منى أن يشتري لها شقة غير التي يملكها إرثًا عن أبيه، واتفقا على الزواج فيها، حاول أن يقنعها أن ذلك سيعطل زواجهما لفترة أطول، لم يملك من المال الكثير ليقدم على هذه الخطوة، فما زال حديث العهد بعمله الجديد، ولم يدخر ما يكفي بعد!

يعي تمامًا أن عليه السيطرة على ما اعتل في صدره من غضب، قلة حيلته وخيائته لها كبلت لسانه إلا عن كلمات مهزومة تُسبل هدوءًا حذرًا على حديثه، من المؤكد أنها لا تجد مبررًا لفتور مشاعره تجاهها غير بعد المسافات، وقطعًا

تستبعد أن تنافسها على قلبه منروفية!
ويعي تمامًا أن حججه رغم وضوحها لم تقنعها،
ولم يتقبل هو صلف أفكارها وغرور منطقتها
الذي يتوعده بالانفصال إذا لم يذعن لما ترغب،
مل وأعياء النقاش الذي تنتصت له أمها وتحركه
تصاعدًا بهمسات ولمزات يكاد يراها عبر الأثير!
يعي تمامًا أنه آثم، كما يعي أيضًا أنها لا تعلم!
فما الذي استجد في محض أسابيع؟ لم يفهم
دواعي الغيظ والشرطية والكبرياء! أهو مصطنع؟
ترى هل من آخر؟ أوجدت بديلًا؟ ربما! ضاق بالفكرة
لكن لم يغضب! على أي حال بدا الطريق إلى
تحقيق حلم الحياة الوادعة مع منى أكثر ضبابية
ووعورة من أي وقت مضى، سجيته تنبئه أن
النهايات أضحت وشيكة!

آخر ما كان يتوقعه عندما قدم إلى منروفيا أن
يجد فيها ما يثير غرائزه، ويكشف عما في نفسه
من سلطان يدحر ضميره، كان يظن فيما قبل رحمة
أنه يعيش وفقًا لمبادئ وقيم لا تلين لا تحيد، فإذا
هي تطرى وتتلون بألوان الشبق المفعم افتتانًا
ونهمًا.

في ضميره ينتقد رحمة في مجونها واندفاعها،
لكنه يعي أنها في ذلك أكثر اتساقًا منه مع ذاتها
وواقعها، عقله لا يتوقف عن الشك، ونفسه
تفرض الخوف وروحه تتلظى بالفتنة. عصفت رحمة
بقيمه، بمحرماته ونواهيته.

رأى صورة لنفسه لم يعرفها من قبل، الصورة
لشخص غريزي يتبع هواه يخفي عن رحمة ارتباطه
بمنى، ويخفي عن منى علاقته برحمة، ينتهز كل
فرصة لبشبع شهواته، يفعل ذلك بسلاسة لا
يؤرقه ضميره إلا أوقات وحدته، لم يعرف في
نفسه القدرة على التلون والإخفاء.

يتعجب لهذا اللهم المفاجئ للحياة وهذه الرغبة
المحمومة التي تتملكه وإقباله على التلذذ بكل

شيء، وكان قبلًا لا يهفو لشيء إلا لمنى، والآن منى محض وازع يورق انتشاءه بواقعه الجديد! عقله يبرر له شططه، الواقع الآن هو الحقيقة الوحيدة التي لا تقبل التأويل ما قبل ذلك ذكرى تُنتخب، وما بعد ذلك فرضية تُحتمل، ليس للذكرى أن تعود، ولا ضامن لتحقيق فرضيات الغد.

الإنسان كائن مثل كل الكائنات، غريزي إن غاب عقله وكفرت نفسه ضميره، يبحث دائمًا عن إشباع شهواته، يتحرك دائمًا للبحث عن الأمن والراحة والمتعة أيما كانت.

لماذا لا يعيش كرحمة؟ فهي بسيطة تدفعها رغباتها بحثًا عن متع العيش دون أيما استحياء، لا تعول كثيرًا على منطق الأشياء، ولا تنتظر عما سيسفر عنه الغد من غيب، تطلق الأحلام وتعتلي صهواتها، فإن كبت قامت وأطلقت أحلامًا أخرى، الحب عندها تدفق لحظي لا محدود، غايته التمتع بمن أو ما تحب، تخلص للحاضر فتبني ماضيًا وتستلهم آتيا، هو قطعًا لا يؤمن بالحب من النظرة الأولى، لكن يزعم أن الحب قد يبدأ من النظرة الأولى. رحمة تهب له الحياة، ومنى تطلبها منه!

(11)

عمر كوليبالي من مالي.

صباح الإثنين، وقف كعادته في صالة الشقة ينتظر إفراغ السقاء ما معه من ماء في البرميل الأزرق الضخم القابع في ركن الحمام، البرميل الذي يملأه مرتين في أول وآخر الأسبوع، فلا مياه تجري للبيوت في منروفيا، ويعتمد هو كغيره على السقاء لإحضار مياه من الجب لأغراض الغسل والتنظيف؛ حيث يضيف إليها المواد المطهرة لقتل الطفيليات، أما لغرض الاستحمام والطبخ فإنه يبتاع جالونات من المياه المفلترة من تاجر لبناني يكرر مياه الجب هذه ويعيد بيعها، فيشرب منها من يستطيع شراءها من المنروفيين! أما هو فلغرض الشرب له نصيب من مياه ينابيع فرنسية ترده ضمن بضاعة مستوردة يجتلبها تاجر لبناني آخر من فرنسا شهرياً، كما أنه يستورد من صنوف الأطعمة المعلبة والجبن والزبد والدقيق والأرز والمياه المعبأة. التقى تاجر المياه الفرنسية في متجر البرجي عندما جاء للثروة وتحصيل ثمن ما ابتاعه لأبو عبد الله الشهر الماضي.

كانت مرتته الأولى، فلم يطلب أشياء كثيرة، يفكر في طلب بعض المعلبات والتونة والصابون والشامبو المرة القادمة، فهي أشياء لا وجود لها في منروفيا، تساءل هل يوجد فول مدمس بالبضاعة الفرنسية؟ ربما عليه أن يسأل أبو عبد الله من أين يحضر الفول المدمس المعبأ الذي يعده في بيته لفظورهما يوم الأحد، ومن المفيد أيضاً أن يتعلم منه صناعة الجبن من الحليب المجفف!

أشار عليه أبو عبد الله أن يستحم من المياه التي يحضرها السقاء بعد إضافة المواد المطهرة لها، فهو شخصياً يفعل ذلك ولا ضرر منها، فكر لكن عندما وقف أمام البرميل ورأى معاناة المواد

المطهرة التي صبها، فالتحمت وما حملت المياه في قتال عنيف! لم تطاوعه نفسه على فعل ذلك! خرج إلى البهو، نظر في ساعته، ما زال لديه متسع من وقت قبل الذهاب للعمل، يعلم أن البرجي لن يتركه يذهب دون قهوة الصباح المعتادة بالمتجر، ولا الشحاذون سيتركونه يمر بدون استجداءٍ لا فرار منه إلا بإعطاء اليسير، ما زال يشعر بالذعر عندما يقبلون عليه بأطرافهم المبتورة ووجوههم التعسة، فيلقي لهم بعض العملات ليتكالبوا عليها، فيهرول هو داخلاً متجر البرجي!

قرر أن يجلس في الصالة لدقائق قبل بدء المغامرة اليومية، مرت أسابيع على تأجيله للشقة، لا يستطيع فهم قراره الشخصي بالبقاء على الرغم أنه يعلم يقيناً الآن أنه يبببب في هذا المبنى الضخم وحيداً هو وزونجا!

الشقة نظيفة وجديدة ومؤمنة بالحديد، كما أنها بعيدة عن ضوضاء الشارع فتمنحه ساعات صامتة يرنو إليها في صخب الأيام المنروفية، لكن ما يبقيه حقاً هنا هو العلاقة التي بدأت تتشكل يوماً بعد يوم مع البرجي، مجلسه معه صباحاً ومساءً يزيد من معرفته بالمكان والناس، ويشجعه على مواصلة المغامرة، أحياناً يعرف ما يطمئن قلبه، وأحياناً يسمع أو يرى ما يقض مضجعه ويهيج هواجسه، خاصة ما يتواتر عن معارك الكر والفر مع المتمردين في الأحرش والمناطق النائية.

لا يريد أن يترك عمارة البرجي فيغضب الرجل فيبعده، البرجي مهم جداً لتعزيز قدرته على البقاء في منروفيا، بقدر ما استثاره اقتحام الرجل لحياته منذ تعارفاً بقدر ما أصبح جزءاً لا غنى عنه في روتينه اليومي، يروقه اهتمامه الأبوي لأمره.

بينما هو غارق في أفكاره أتاه صوت متردد من خلفه يقول بلغة عربية ركيكة:

فزع وانتفض لسماع الصوت الغريب، وزاد فزعه عندما التفت فوجده واقفاً بالقرب من الباب! شاب فارع السمعت، رياضي الهيئة، يقف قريباً جداً منه في صالة بيته دون أن يسمع وقع قدميه أو يأذن له بالدخول!

وقف له متأهباً، وتراجع خطوتين للخلف، سأله باستنفاً:

- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟! كيف دخلت إلى هنا؟

رد الشاب متحرّجاً مطرّقاً وقد ضم يديه إلى صدره:

- والله بالله طرقت الباب المفتوح قبل أن أدخل!
- لا بد أن السقاء لم يوصد الباب خلفه، لكن هذا من روعه ما لمسه من خجل الفتى وتأدبه الشديد معه، فعاد يسأله:

- من أنت؟ وماذا تريد؟

- أحس الشاب بعزير من الخجل، فرد متلعثماً:
اسمي عمر كوليبالي من مالي، أخي «إسماعيل كوليبالي» يعمل في مكتب شركة الألماس في الطابق الأدنى، وقال لي أن أصعد إليك فأسألك Bossman إذا كنت تريدني أن أعمل عندك؟

- تعمل عندي! تعمل ماذا؟

- أي شيء! أستطيع تنظيف المكان، وأستطيع غسل وكوي الملابس أو إحضار الطلبات من الخارج، أستطيع أن أقوم بأي شيء أرجوك Bossman!

نظر في وجهه بتمعن، شيء ما في سمات الفتى ونظراته المتوسلة، هدأ من روعه ونفى احتمالية أن يكون مصدر تهديد أو خطر. قد يكون بالفعل في حاجة لمن يعاونه بالمنزل، هو يقوم بأعباء نفسه بلا غضاظة، أحياناً تساعد رحمة، لكن ولم لا! يستطيع بالتأكيد دفع راتب له، رواتب العمال في منروفيا زهيدة حقاً!

لكن من يكون هذا الفتى؟ إنه رياضي طويل!

أشبهه بلاعبي كرة السلة! هل هو حقًا يريد أن يخدمه! أم أنه لص ماكر جاء يحتال عليه! لكنه يبدو طيبًا حقًا!

بعد برهة من تفكير تمالك نفسه ونظر إلى عمر وقال:

- عُذ مساءً ربما أحتاج إليك. ثم أشار له بيده أن يغادر!

بدأت ابتسامة على وجه عمر وهو يتفهم خارجًا، وقال بتفاؤل كمن حاز العمل بالفعل:

- شكرًا Bossman لن أذلك!

أراد أن يقول له إنه لم يوافق على عمله هنا بعد، لكن الفتى كان قد اختفى عبر الباب!

فاجأه أن السقاء لم يذهب، كان لم يزل بالحمام وتسمع للحديث مع عمر، فتطوع قائلاً:

- Bossman إذا أردت أحدًا ليعمل في البيت أستطيع أن أحضر لك أختي! ستعجبك جدًا، هي حاذقة في الأعمال المنزلية، وعملت عند أسرة لبنانية من قبل، ليست كهذا المالي المتحذلق! ثم لمعت عيناه وهو يقول كما أنها جميلة وجسمها مثير!

تعجب لكلمات السقاء الذي يعرض أخته بمنتهى السلاسة، فرد وهو يشير له ليخرج:

- لا لا، شكرًا، شكرًا لا أريد أحدًا!

- إن المالبين شرفاء يتمتعون بخصال طيبة وأمانة، وأنا رأيت الفتى عمر بضع مرات، كما جاءني الأسبوع الماضي يطلب عملاً، بدأ صبيًا طيبًا وذا همّة.

هذا ما قال أبو عبد الله عندما حدثه عن اقتحام عمر للشقة!

كما قال له إنه يعرف إسماعيل أخاه، لكن استدرك قائلاً بتخابث:

- لو أردت أرسلت لك فتاة تعجبك من العاملات

في المتجر لتنظيف البيت!

باغته ما قال أبو عبد الله عن إرسال فتاة تعجبه
لتنظيف المنزل! تذكر عرض السقاء منذ قليل! ماذا
يجري هنا!

أم تراه يقصد رحمة؟ هل لاحظ شيئاً؟ أقالت له
شيئاً؟ أم هو زونجا!

أكيد يتجسس اللعين زونجا لصالح البرجي!

يحاول جاداً أن يخفي علاقته برحمة عن البرجي!
هل تراه يعترض على ما يحدث بينهما! هل
يطردها من العمل؟ يشعر بكثير من الخجل!

جال نظره بين وجوه أحاطت به، ليس بينهم
رحمة، لكن بدا له أن الجميع يعرف شيئاً ما، ترى
هل أخبرت رحمة صديقاتها؟

بالتأكيد أخبرت ميمي! ميمي تهمزها كثيراً،
ونتضاحك مع البرجي من سذاجة ردود أفعاله
خاصة فيما يتعلق بفهمه للنساء!

هي ثرثارة! وهو لا يريد مشاكل من أي نوع مع
أي شخص هنا، خاصة البرجي. لسبب ما قرر أن
يستأجر عمر كوليبالي لتنظيف المنزل!

(12)

راقب مسهد في سريره، لا يستطيع القراءة، حمل معه من مصر عدة روايات وكتباً فلسفية وتاريخية اعتزم قراءتها تباعاً، لكن منذ حضر إلى هنا لم يقرأ غير سطور قليلة على غير عاداته!

حياته المنروفية لا تدع له مجالاً للقراءة التي اعتادها وعشقها منذ الصغر، الروايات إلى وقت قريب كانت تفتح له نوافذ على عوالم وشخوص وحوادث، يستمتع بالانغماس الكامل في التفاصيل وتصور الأماكن والتنبؤ بالنهايات، كأنه يعيش أحداثها ويتقمص شخوصها.

من بين ما أحضر كتاب يتناول أساطير الإغريق، بدأ يقرأ عن زيوس والآلهة الآخرين بعدما ما حكى له منى كيف أن زيوس ضاق ذرعاً بضجيج كائن عاش عند سفح جبل «الأوليمبوس»، وكان مخلوقاً براسين؛ رأس لرجل، ورأس لامرأة، يتقاسمان جسداً له أربع أذرع وأربع أرجل، متلاصقان في كيان ومصير واحد، إلا أنه كان مخلوقاً بانساً كثير الصياح كثير التشاحن مع ذاته، فقرر زيوس أن يشقه نصفين، نصف رجل ونصف امرأة، وضع كلا منهما في ناحية من الجبل ظناً أن ذلك سينتهي مشاكل هذا المخلوق، فلا يسمع صياحه وشجاره، إلا أن صوتاً أعلى جاءه من الجهتين، كان عويلاً وبكاء! نصف المخلوق يشتاقي إلى نصفه الآخر ويبكي لفراقه!

غضب زيوس غضباً عارفاً وقرر نفيهما في الأرض، تباعد بين النصفين المسافات، ومن يومها طفق كل رجل وامرأة ينجوب الأرض بحثاً عن الآخر ليلتئم النصف مع نصفه الآخر.

قصت عليه منى هذه القصة، ولمست يده ونظرت إليه بعينين ملوئهما الحنان والرغبة.

★★

هل منى حقاً نصفى الآخر؟

ليس طيف رحمة ما يشغله عن القراءة هذه الليلة، بل ترددت كلمات كلاوس في فضاء أفكاره «أشقى ما في الوحدة أن يفرضها عليك من تحب»، بدون رحمة يرتدي الصمت البارد كل ما حوله. الصمت لغة سادت حيث نشأ طفلاً بين جدران اصطبغت بكآبة النفوس التي سكنتها، صمت حناجر لم يعفه من سماع نواح الأرواح التي تعريها عيون واجدة!

بعد سنة من نعاس، إذا به يفزع من مرقدته! تجسدت لناظريه! أتت على هيئتها في أواخر أيامها لتحقق في وجهه!

يكاد يحس أنفاسها على جبينه!

جاءه طيفها على ذات الصورة التي كانت عليها قبل رحيلها مباشرة! ذات الوجه الشاحب والعيون الغائرة، اقشعر جلده وضاق صدره، لقد تبعته إلى هنا!

خرج إلى الشرفة ملجئه وملجأ أبيه من قبله، أشعل سيجارة، تذكرها وحيدة تهذي وتبكي بحرقة في ظلام غرفتها!

ظن أنها بموته تستعيد شيئاً من حيويتها وتنتصر لحربتها، إلا أنها أصبحت أكثر حزناً وعصبية، بعينيها شرود وفي حديثها شطط، كثيرة الشكوى من آلام لم يجد لها الأطباء تفسيراً!

اعتادت في سنواتها الأخيرة تعاطي الكثير من الحبوب المسكنة والمهدئة، تعيش ملفصمة عن الواقع حولها، كان عليه إطعامها فهي لا تشعر بالجوع أبداً ولا تمتد يداً إلى طعام أبا كان! نادرة تلك الأوقات التي نظرت إليه وشعر أنها تدرك وجوده بجوارها!

قضى والده وبقية هي سنوات بعده متشرقة على اكتئابها، تعيش في غياهب ذاتها البائسة، ظل هو يرعاها ويقوم على احتياجاتها، أحياناً ترى

في ملامحه وجه أبيه فتشبح عنه فزعة، أو تصرخ فيه بكل العقمت والكره فيصمت ويصمد، يصغي ولا ينطق، وفي مرات يستبد بها الحنق فتصفعه، فيظل على وضعه من الجمود والصمت يتلقى عقابًا ظن في أوقات كثيرة أنه يستحقه!

في كل مكان بالمنزل تتناهى إلى مسامعه تلك الآثات والتمتمات التي ظنّها في معظم الأحيان حديثًا مع من لا يرى!

ظلت هذه التتمات تتردد في أركان المنزل حتى بعد موتها!

فجأة صدع في رأسه صوت عمته الحاد وهي تناديه معايرة مستهزئة «يا ابن أسماء»!

«أسماء» ولدت ونشأت في مدينة هيوستن الأمريكية؛ حيث عاشت في كنف أبيها المهاجر الذي اختار الانفصام عن واقعه الأمريكي، يُمَيِّ النفس بالعودة للوطن ساخطًا على غربته رافضًا للثقافة الوافد عليها متقوقعًا في «الجيتو» العربي، يخلق شعر زبائنه ويثرثر عن أيامه الرائقة في بلدته عروس البحر المتوسط!

انقضت طفولتها في شبه عزلة ما بين تحفظ الأب المصري وصرامته وإهمال الأم المكسيكية ونشوزها، في سني الدراسة الأولى عُرف عنها قلة الكلام والخجل الزائد، تعلمت منذ الصغر أن تكبت مشاعرها وتواسي نفسها!

الصياح والعناد والسباب مشهد يومي في حياتها، في غرفتها الصغيرة المهملة اعتادت أن تتقوقع على عالم لا يشاركها فيه غير أطياف ودمى!

في صباح صيف أفاقت من نومها لم تجد أمها، أياهاً أخرى تصحو فلا تجدها، أما ذاك الصباح كان شعورها باختفائها مختلفًا، بحثت عنها في كل غرفة، البيت واجم صمته، أغراض الأم اختفت

وأغراض الأب وثيابه ممزقة متناثرة، بشفافية إحساس الطفلة أدركت أنها خرجت ولن تعود، فرت وتركتها لحياة خواء وهي لم تزل بنت أعوام سبعة، بكت ذاهلة.

لم تفهم ما اقترفت لكي تهجرها الأم! قام الأب بكل ما يستطيع لبث كرهه لأمها الخائنة في صدرها، وقر لها حياة مستقرة كما ارتأى، كرر كثيرًا على مسامعها أنه يعيش حياته من أجلها، تزوج من ثانية عربية لكنها أيضًا لم تطق عيشهما فطلقها بعد شهور.

أجمل ما في طفولتها كانت أسابيع من كل صيف تزور فيها الإسكندرية صحبة أبيها، تستمع بوصول الأهل المحنطين، فتشعر بدفء العاطفة التي افتقدتها، خاصة من عمته الحنون التي كانت تحل عليها ضيفًا مكرمًا في بيتها، تلك العمّة أقرب ما حملته ذاكرتها لنموذج الأم.

في هيوستن شبت على منوال وحدتها، تحمل في صدرها خزي فرار الأم الخائنة الذي دائمًا ما يذكرها به الأب الساخط على كل شيء. اجتهدت في دراستها وتفوقت ورحبت بقرار والدها بأن تسافر إلى مصر لتدرس الصيدلة في جامعة الإسكندرية ثم تعود بعدها لأمريكا لتبدأ حياتها العملية.

بساطة الحياة واحتفاء العمّة والأقران بالأمريكية ذات الملامح المصرية الجميلة، وسهولة العيش في الإسكندرية، ألمى في قلبها حبًا لهذا المكان لا تنازعه فيه أرض أخرى.

استقرت حياتها حينًا وانضبط إيقاعها، تعلمت أن تكون أقل تحفظًا وأكثر إقبالًا على العيش، لم يعد الوالد الساخط حاضرًا في كل التفاصيل وتناست خزيها في أمها الذي لا يعرف عنه أحد هلا، لكن لسبب ما في نفسها لم تجد القدرة على اقتحام عواطفها والاستجابة لمحاولات الشباب حولها من زملاء الدراسة أو الأقرباء.

جاءت صيدلية «أسماء» بشارع خالد بن الوليد المفعم بالحركة تكملة لمخطط الوالد الخفي، وتكليلاً لهذه الحياة الجديدة، وإيذاناً لها بالاستقلالية والاعتماد على الذات، مازالت تحب شهور الصيف حين يعج الشارع بالمصطافين المقبلين على الحياة، كما ألفت شهور الشتاء الدافئة الأكثر هدوءاً، يروق لها مداعبات المترددين على الصيدلية وإعجابهم بجمالها.

في إحدى إجازاته الصيفية، سؤل لها أبوها الزواج وأقنعها باختياره من بين خطابها رجلاً وسيماً تقياً صالحاً من أنساب عمتها، قبلت الخطبة لأنها لم تعتد أن تعارض أبها في قرار يخص حياتها!

بالفعل كان عجب غزال وسيماً صالحاً، بدأت العلاقة بود وحنان فأحبته، ألبسها الحجاب لكيلا يفتتن بها رواد الصيدلية فأطاعت. بعد الحمل والولادة رأى أن تفرغ للبيت وأن تجد من يباشر لها الصيدلية، فلم تجد بدأً من القبول.

شخصيته فرضت نفسها، ربما لفارق السن أو لكونه مغرماً في مصريته بكل ما تحمل من معتقدات وقوالب عن ماهية علاقة الزوج بامرأته، أسلوب حياة ثقيل وأفكار سوداوية زحفت ببطء على حياتهما كفرت ما في قلبها من حب له، رتابة وإرهاق الأمومة ثم فتور وجفاء الزوجية أهالا رماداً فوق جذوة حياتها.

ثار عقلاها ولم يقبل ضميرها هذا العيش بما يحمله من جمود وموروث يمنح الرجل عقال زوجته، واجهت وناطحت وتصادمت. طلبت الطلاق، لكن أرغمها الجميع بدعوى الدين والأصول وأهمية الحفاظ على الأسرة من أجل الولد!

كلما قاومت بعنف قوبل بعنف أشد، أجيح أنهكهما استعر لياكل كل شيء بينهما، ثم خبا وصارت الحياة صمناً لا يقطعها إلا أئين أو صراخ ليس كصياح الثوار، ولكن كاستغاثة مساجين

الأقبية.

لم تستطع فرارًا فرضخت، أسلمت للعزلة والاكْتئاب وتجليات الطفولة وسنوات الصفا وعذابات الحاضر. بعد موت عمّتها ما عاد أحد يابه لها، حتى الأهل ما عادوا يكثرثون لكثرة شكواها، إحساس دائم بالظلم والامتهان والسجن، تحولت مع توالي الأيام إلى امرأة حانقة على كل شيء! تشاغل أبيها عنها بمسامرة الصباح ومناجاة القمر في الشرفة واحتضانه وسادته في سريرها جعلها امرأة مغازبة، سليطة اللسان، لا أعباء، لا متعاطفين.

ترى في المرأة صورة أمها بتفاصيل ملامحها تلك الصورة التي سقاها أبوها مقتها ورفضها. لا حياة لها في مسقط رأسها ولا في مسقط رأس أبيها الذي قدمها للإسكندرية تقريبًا وتكفيرًا عن خطيئته بالهجرة!

تأنيب النفس وشعور مقيت بالذنب يحمله تجاه حياتها، إحساسه بها إحساس ثقيل لا يطيقه ولا يفهم كنهه، يتجاهله أحيانًا كثيرة في صلف وتحذّر، لكنه دائمًا يعود خاصة في الليالي الصامتة! شعر بشيء من الارتياح عندما ماتت إلا أن ضميره يوبخه لذلك.

كثيرًا ما أخبرته أنها كانت لتهرب لولا أنها أشفقت عليه من تكرار حياة عاشتها بغير أم! كُرّه للحياة وضعف أمام الانتحار وانغماس في تعذيب الذات، بثت فيه منذ طفولته ما يوغر صدرها من أبيه وأبيها اللذين أسلماها من شقاء لشقاء، ليالي طوآلا انتحبت وهو بين يديها لا يدري ماذا يفعل ضميره يؤرقه؛ لأنه لا يستطيع لا يعرف ماذا يفعل كي يريحها!

سلوات مرت، أصابته حالة من التبدل والوجوم الدائم في حضرته، كلما كهر اختفى الحنان في نظراتها أمام زحف البغض وسيطرة الاكْتئاب.

تساءل، إن لم تلده أكانت تقبل العيش التعس
الذي أفنت عمرها فيه! سألت دمة من تحت
جفنه، نزع له أن ميلاده كما هو سجن له كان سجناً
لها!

(13)

كانوا في مسيرهم يرقصون ويبتحبون في آن واحد، لم يفهم في البداية، لكن أندريه سائق الشركة الذي أزمه كلاوس بأن يقله يومياً من وإلى العمل -على غير المتفق عليه في البداية- أخبره بأن اليوم هو يوم الاحتفال بالموتى!

يخرج أهل المدينة إلى ساحات المقابر يعودون موتاهم ويمارسون طقوسهم الموروثة، كان عليه أن ينتظر حتى يعبر الموكب من الرصيف إلى الرصيف المقابل؛ حيث المقابر التي ازدانت بالزهور الملونة والأغصان الغضة، رمقهم وهم يعبرون الطريق يغنون ويقرعون طبولهم في مشهد كرنفالي، حاملين صولجانات وفروع أشجار وزينة، يرتدي بعضهم أقنعة قبيحة وريشاً. يترنحون، يدورون على أعقابهم، ينتصبون ويتثنون، منهم من بدا حزيناً حقاً، ومنهم مفتعل.

هكذا مروا أمام ناظريه تباغماً حتى عبرت في ذيل الموكب تلك العجوز التي ترتدي قلائد من أصداف وتضع ريشاً وعرشاً جاقاً حول خصرها.

لاحظ أيضاً أن الكثير من المنروفيين يرتدون هذه الأيام أزياء متشابهة هيكت من أقمشة مزركشة مطبوع عليها صورة الرئيس، عندما استفسر أخبره السائق أيضاً أن هذه الأقمشة منحة من الرئيس بمناسبة العيد! كما جرت العادة في المناسبات السياسية والدينية، وأخبره أيضاً أن البعض يبيع حصته من وجه الرئيس لتجار الأقمشة!

تتجلى الملهاة صباحاً، مروراً بمركز تجمع الحافلات بوسط المدينة، فوضى وإيقاع متفاوت، راكضون متلطفون قادمون رائحون، يلفت نظره دائماً أولئك البسطاء المتراصون جلوساً فوق الرصيف بجوار قدر كبير يغلي به نوع من شاي يتناوله الليبيريون في كل أوقاتهم وبالأخص صباحاً، بدا له أن الكل في منروفيا اتفق عرماً على هذا

الشاي المر القاتم، فمن لا يتناوله اليوم بالتأكيد غداً هو شاربه! جربه هو على مضمض لما قدمه إليه أحد من العاملين بالشركة، لم يستسغ طعمه اللاذع ولا رائحته القوية، مع رشقات الشاي من الأكواب القصيرة، يتقاسمون قطعاً من أرغفة الخبز الفرنسي الطازج قد يصعبه بعض حبات من الفول السوداني (ياكلونه نيئاً منقوعاً) أو مسحة من زبد يحمله أحدهم، أو ملء ملعقة من حُق «مايونيز» يدور بها صانع الشاي حولهم.

يعلو صخبهم ويتضحكون فتياً وفتيات، رجالاً ونساء، حتى أطفال الشوارع والشحاذين. متابعتة الدقيقة لوقائع الحياة، رسخت في عقله أن الكل هنا يتضاfer لدفع البؤس ولو خطوات معدودة!

غير بعيد، يتدافع السقاؤون حول صنوبر المياه الوحيد بالحي لملء دلائهم وحملها فوق كواهلهم المُضناة للبيوت مقابل أجر زهيد، لاحظ بينهم وليام المتحذلق الذي يملأ برميله بالمياه، يبدو بين أقرانه قوياً واثقاً، بينما يراه في شقته ضعيفاً خانعاً!

أخبره أبو عبد الله أن ميمي -التي يطلق عليها إرضاء لها «مديرة المتجر» ويضع ثقته فيها عن سواها- تعول بنتيها وأمها وأختها الأيم وأطفالها وأطفال أخيها الشارد، إنها تطعم وحدها من راتبها الهزيل أحد عشر فماً يومياً، هي دؤوبة في سعيها لتوفير الحد الأدنى، لا تكل ولا تهدأ، وهي على ذلك أمينة سمحة ضاحكة السن إلا عند الشرود!

ميمي وأمثالها يرفعون هذه الأرض فوق كواهلهم لكي يعيش المترفون حياة النعمة والبهذخ!

استرعى انتباهه بصحيفة محلية «تابلويد» -ملقاة على مكتب البرجي مساء أمس- صورة في الصدارة بالألوان لعدد من رجال المليشيات

الحكومية يرفعون عدداً من الرؤوس المقطوعة متهللين بهزيمة أعدائهم من المتمردين في معركة!

تصفحها فرأى جثة لطفل مفقوء العينين مكتوب تحتها «جثة الطفل الذي وجدوه بالقرب من النهر بعد أن أخذ الجوجومان عينيه» صور وأخبار، فظانع يشيب لها شعر الرأس، لكنها تنشر في الصحف اليومية بشكل طبيعي!

يتعجب كثيراً لما يرى من نحو أهل هذه البلدة، هم يفرحون ويضحكون لأي شيء بقدر ما يستطيعون لأطول وقت ممكن، ويبيكون بحرقة وبعمق، ولكن لأقصر وقت ممكن!

يتلقون الحياة ببشر والموت بتسليم!

يقفون بإجلال للزائر الثقيل الذي يقل المختارين من هذا العيش إلى المجهول، ثم تعود موجات الحياة تتقاذفهم في محيطهم الهادر!

هم يستمتعون بالحاضر إلى أقصى درجة رغم خوفهم الدائم من ألم الفراق، ولما يصل الأجل بأحدهم تنتهاه يقبلون مذعنين للأقدار!

قد تبدو على الكثير منهم أعراض لا مبالاة أو تباد غير أنه تحدّ صامت للواقع الصارم! حياة بشري هنا ليست أعلى من أي شيء! فلسفة الحياة والموت تحتم عليهم أن يروا الإنسان أعظم من جسد فان أهون من وريقة تلزعها الريح عن غصنها لتسقط فتلدثرا!

اليوم أهم من الغد، حلول الليل لا يعني بالضرورة مقدم الصباح، وعندما تغيب الشمس كل شيء ممكن ومنتظر!

الخوف يجبرهم على تقديس ما يخافون، يصبغون على السحرة القتلة مشوهي الأجساد قداسة، يروجون أن لقادة الحرب قدرات خارقة، فملهم من يخترقه الرصاص ولا يحدث به أثراً، وملهم من يلوح ويختفي، وغيره سريع كالبرق، أبطال خارقون

يتناقل بطولاتهم العامة كأنهم أساطير حية، ولا يفكرون كثيرًا إذا قُتل أحدهم، بل تزداد الحكايات حوله، وكيف تحامل وأصاب أعداءه قبل أن يقرر الانتقال للعالم الآخر حيث الأجداد.

قيل له إن من عادات أهل بعض القرى أنه إن مات فيهم زعيم أو بطل أو من يُكبرونه، شيعوه في أسى إلى «قِدر» ضخم فيطهون من جثته حساءً يتناوله أهل القرية حتى يتماهى جسده في أجسادهم ما بقيت الحياة فيهم!

ويستمر العيش إلى الأجل القادم، يتشاغلون بالروايات والخرافات والسحر؛ ليضمنوا بقاء الأحبة في دنياهم إلى أن يحملهم القدر إليهم، يرقصون ويشربون ويتلذذون بكل ما هو متاح كما لو أن ليس بالغد ما يرجى أو يهاب.

مشاهداته رسخت في يقينه أن البشر في هذه البلدة وعلى اختلافهم يعيشون فرائس في غابة وحوشها من الفقر والجهل، أما مليكها فهو الموت!

جائعون ضجرون لكن متهافتون متكافلون، لا تحمل النفوس كبرًا إلا فيما ندر، تواءم وتضامن مشاركة حقيقية للعيش أوجبها الفقر والخطر.

يتقافز الأمل بينهم كالبهلوان يتحسس خطواته ألا يسقط في الجحيم تحت ذاك الخيط الرفيع الممتد من شفا اليأس إلى حافة الرجاء، علمتهم غريزة البقاء أن «الآن» أئمن من أن يضيع دون متعة وانتشاء! وإن تبكي القلوب لا تكف الجذوع عن الرقص!

(14)

عاش غزال حياة تتوازي خطوطها ولم تتقاطع إلا عنده، فهو لكثير ممن يعرفونه الأستاذ عجب مدرس رياضيات، نابه وملتمزم دينياً، حيي، هادئ الطبع، محمود السيرة بين أهله وزملائه، ولثلة من أصحابه هو غزال شاعر زجال، موتور الأحاسيس يهوى الغناء والكأس والحشيش. حرص عجب دائماً على إخفاء غزال ربما لنشأته في بيت ربه فقيه أزهري صعيدي، أو ربما تروق له فكرة الحياة المخفية!

الأكيد أنه ظل مخلصاً لازدواجية عيشه حتى مات. سماه أبوه عجباً؛ لأنه عندما ولد لم يبك بكاء عادياً كمثل بقية المواليد، بل جاء بكأوه أقرب للترنيم أو الإنشاد، فظن الوالد الأزهري أنه يرتل قرآناً! وأن الله اجتباه ليكبر فيكون ذا شأن في الدين والفقهِ والدعوة، أو مقرئاً.

علمه القرآن وأحكام تجويده وأقرأه كتباً في الفقه والتفسير مع بدايات صباه، كان صوته وتجويده للقراءة شجياً ممتعاً، لكن الحقيقة التي لم يعرفها الشيخ غزال هي أن المولود المترنم كان طفلاً عادياً كغيره، وشاباً كأي شاب ذي نزق وشهوة وخيال، وعلى الرغم من خضوعه وهدوء سجيته، فإن الغناء ونظم القوافي كانت هوايته التي أخفاها عن والده الذي مات وهو بعد لم يكمل عقده الثاني.

لم يغير موت الوالد الكثير من نمط عيشه بالقرية، فقد شب على من يذكرونه دائماً بأنه ابن الشيخ غزال، لكن «المترنم اليتيم» لم يجد من يهتم بحاله وبتعاليمه الدينية كوالده، فأحکم عجب إخفاء غوايته عن يعرفونه إلى أن سافر للإسكندرية، فتبدلت دنياه، درس الرياضيات بالجامعة واستمع للغناء وقرض الشعر، عاش حياتين مستمتعاً بهذا الانفصام.

كان لصديق غزال «شاليه» في العجمي، تواظب على ارتياده «صحبة المزاج» مرة أسبوعياً على الأقل، ساعات يتحللون فيها من قيود رتابة إيقاع حياتهم ويتحررون من المحظور والمنهي عنه والحرام.

لم يتزوج عجب حتى بلغ الأربعين من عمره؛ لأنه لم ير داعياً لذلك، فراتبه وما يتحصل عليه من دخل إضافي بالكاد يكفي الحياة الممتعة. أسماء التي اضطر عائلياً للزواج بها، هي الزوجة التي تكمل صورة الأستاذ عجب الاجتماعية.

لم يجرؤ يوماً على إطلاعها على عالم غزال، بل أمعن في التشدد والتزمت والالتزام في سلوكه معها، فقد تزوجها لأن والدها ارتضى دينه وأخلاقه وسيرته المحمودة!

أما هو فقد عرف شيئاً عن غزال في شرفة المنزل، حيث كان يحمل له الشاي في كوب فوق صحن يخطو به محاذراً ألا ينكب إلى أن يصل إليه فيجالسه يؤانس.

يميل غزال فيختلس نظرات يتأكد فيها أن أمه غير منتبهة لهما، فيسمعه ما يقرض أو يحفظ من الشعر بلقاء هادئ مفعم بالعاطفة، وأحياناً كان يغني بصوت خفيض فلا يسمعه غيره إلا القمر، إذا قال شعراً أو تغنى لصوته وقع السحر على أذنيه وذلك الصدى في وجدانه الذي يهتز طرباً ونشوى. يا لذلك الصوت الذي كان يرسم عالماً مخملياً وثيراً رحباً رحيماً غير عابس ولا قانط، عالماً يتقافز فيه هو وغزال غبطة وسعادة، فضاء لا يشاركهما فيه غير القمر والنغمات والكلمات.

رحل الوالد بنظراته العميقة الحانية وابتسامته الرائقة مطمئنة، وكجده ترك غزال هذه الدنيا وهو لم يزل بعد صبيّاً لم يتشبع بعد بفيض أبوته أو يلهل من معين موهبته.

إحساسه بالفقد والخواء لم يفارقه يوماً منذ موته، فرغ وجدانه برحيل الرجل شبه المفاجئ، لم يستطع له رتقاً أو عوضاً، فغزال كان خله الخفي والصاحب السامر، كان السر بينهما، السر الممتع الذي حرص هو أيضاً على عدم إفشائه حتى بعد رحيله وكان عجباً قد مات واستودعه هو غزال، يستمر في مناجاته ومسامرته وأيضاً إخفائه.

ما يحزنه الآن وبعد كل السنين العابرة هو أن طيف غزال لم يعد يزوره، هجر الطيف إلى عالم الذكرى والشجون، هو يقدر الموسيقى ويشعر بها تتخلل وجدانه، لكنه لم يتجرأ يوماً على الغناء، يفهم ويتذوق الكلمات لكن لم يقدم قطّ على كتابة الشعر، قرر أن هذا وذاك لغزال، غزال فقط.

(15)

رائحتهم الكريهة نافذة جداً، منذ قليل توقفت سيارتهم ذات الدفع الرباعي أمام باب متجر البرجي تمامًا، ما زال يصدر عنها موسيقى أفريقية صاخبة جداً، ترجل منها خمسة رجال مدججين بمختلف الأسلحة النارية وأحزمة الذخيرة والنصال، يعصبون رؤوسهم بألوان فاقعة ليس من بينها الأحمر، يرتدون سراويل مموهة وقمصاناً قطنية سوداء عدا اثنين عراة الصدر وقصير أعور اليسرى يلبس قميصاً مموهاً، حضورهم مقبض حقاً كأنهم شياطين أو رسل عذاب أتت من قاع جحيم.

تقدمهم القصير الأعور الذي لاحظ تشوهه جانب وجهه الأيسر بحروق، دخلوا جميعاً بأسلحتهم إلى متجر البرجي! توقفت الحركة في المتجر خرجت سيدتان كانتا بالمتجر وقد تملك منهما الذعر، أخذت العيون المارة في الخارج تختلس نظرات سريعة لما يحدث وتكمل مسيرها، لحظات أطبق فيها صمت ووجوم على البرجي لرؤية المحاربين، أما هو فقد ظل قابلاً مستنفراً يتعرق إلى جانب أبو عبد الله!

قام أبو عبد الله من مجلسه متصنعاً تهلاً ومد يده لقصيرهم مفقوء العين قائلاً:

- أهلاً يا ابنائي، كيف حالكم؟

تلقف الأعور يد البرجي بأنفة، ورد بصوت درامي عميق:

- كيف حالك أنت أيها الرجل العجوز؟

رد البرجي بأداء تمثيلي أيضاً: أنا بخير، لكن التجارة ليست على ما يرام يا بني!

- يا للأسف!

قالها الأعور بتهكم، ثم التفت إليه يتفحصه بتعال، وقد لاحظ جبينه الملدى بالعرق ونظراته الخائفة. فما كان من البرجي إلا أن بادر بتقديمه قائلاً:

- هذا صديقي المصري يعمل مع كلاوس في الشركة الصينية!

- كلاوس! إنه خنزير!

قالها وأطلق ضحكة ماجنة فضحك لها من جاءوا معه! ثم عاد واقترب بسبابته من وجهه وأمره بنبرة حادة:

- عليك أنت أن تخبره بذلك، وإلا فأنت خنزير مثله! هل أنت خنزير مثله؟ أم أنك مجرد كلب له؟ قالها ببرود الموت واصل التحدي!

كان وقع الكلمات عليه مخيفاً، فاحتقن وجهه وازدرد لعابه، لم يجر قولاً، أشاح فلم يستطع النظر في عين محدثه التي يرى فيها جراءة القتل!

بادر البرجي وفتح درج مكتبه وأخرج ظرفاً به أوراق نقدية، كان أعده مسبقاً تحسباً لمجيئهم كما هو المعتاد كل شهر! ناول الظرف للقصير الأعور قائلاً:

- كن حذراً يا بني إن ليبيريا في حاجة لك، اذهب بارككم الله يا أبنائي!

التقف «المحارب الأسطوري» الظرف وما زالت عين رأسه تحديق في وجهه، وبغطرسة نجوم هوليوود التفت ناحية البرجي وأدى تحية شبه عسكرية بتكاسل، ثم التف ودار على عقبيه فخرج يخطو بخيلاء وركب هو والبواسل الذين معه السيارة من جديد وانطلقوا!

أخذ البرجي يشيح بيده لطرده الرائحة العطنة التي خلفوها والتصقت بالهواء فأثقلته!

- صرخ: ميمي! أحضري معطر الجو! أديري مراوح الهواء «عا الأخير»!

ثم نظر إليه، كان ما زال متوتراً يتعرق! فخاطبه بامتعاض وتأفف:

- شو بك؟ ما صار شي!

أردف وهو يغلق جاروره متخذاً مجلسه المعتاد:

- «قوعد تاحكيك شو قصتهون هالزعران»!

قص عليه أن الأعرور القصير كان في طفولته لثماً
ماكراً يسرق ويتنطع في شوارع هذا الحي، لم
يعرف له أهل أو من أين جاء! ظهر هنا في الجوار
كتلك العشيبات التي تشق قار الطرقات دونما
مقدمات.

في يوم من سنوات خلت، كان البرجي يمشي
كعادته قاصداً بيته، عندما لمح امرأة تضرب لثماً
صغيراً ضرباً مبرحاً بعدما حاول سرقة حقيبة يدها،
لسوء حظ اللص الصغير، أمسكت به وأخذت
تكيل له وهو يصرخ متألماً! خلصه من يدها وأخذ
بمساعده يجذبه بعيداً عن قبضتها، حماه خلف
ظهره، حال بينها وبينه، أرضاها وهدأ من غيظها،
فاتخذت سبيلها وتركته مع اللص الصغير.

كان الصبي باكياً منهكاً رثاً، تأمل البرجي وجهه
لوهلة، ثم مال عليه وأخذ بأذنه بين أصابعه
وفركها، وبخه لفعلته، ثم أعطاه شيئاً من نقد،
فتلقفه اللص الصغير راضياً وفر!

اعتاد أن يأتي إلى أبو عبد الله من آن لآخر،
فينفحه شيئاً من طعام، أو لباس، أو نقداً!
كان هزليلاً ضعيفاً، يصفعه هذا ويركله ذاك، لكنه
كان دائماً غاضباً سليط اللسان متحذلقاً إلا مع
البرجي. ثم جاء وقت اختفى هو وعدد من الصبية
المشردين من الحي!

قيل إن تجار الأعضاء البشرية أخذوهم، كما قيل
إن تجار الأطفال خطفوهم لبيعهم لطالبي التبني،
لكن تكشفت الحقيقة عن أن المليشيات التقطته،
وضعت سلاحاً في يده ومخدرات في عقله، خاض
معارك قبل أن تنبت شعيرات بعانته!

احترق جانب من رأسه، وفقد عينه في معركة
قبل أن يترقى ويتقدم الصفوف ليصير قائلاً يقود
قتلة، يشتهر بدمويته وإمعانه في التكيل بجثث
أعدائه، معظم ضحاياه من المساكين العزل في
القرى التي يغيرون عليها بحثاً عن المتمردين، وعن
المؤن، وعن صبية للتجديد.

هؤلاء الأبطال الصناديد هم في حقيقةتهم
 مشردون ومخطوفون ولصوص، برغم الهالة
 الفارغة والبطولات الوهمية والمبالغات التي
 يحيطون أنفسهم بها، إلا أنهم هم أنفسهم
 ضحايا قبل أن يصبحوا جناة، ماتت ضمائرهم
 فاستباحوا حرمة الناس وأموالهم ودماءهم!

كثير من هؤلاء المقاتلين كانوا مجرد صبية
 فقراء إلى أن أخذوا قسرًا، وعزلوا في معسكرات
 الأحرار ليواجهوا الخوف والتغيب والانسحاق
 أسابيع وشهورًا، ومن ثم يولدون من جديد،
 فينشؤون في صفوف المليشيات على الانصياع
 للأوامر، والانتماء للقتلة! فهذا يضمن قادة الحرب
 ولاءاتهم ويأخذون دورهم في قيادة هذه
 العصابات إذا قدر لهم أن يعيشوا ليروا أبعاد من
 مراهقتهم!

هم في طبيعة من يُقتل في المعارك الحقيقية
 لقلة خبراتهم وضعف بنيانهم، وإن لم يلق أحدهم
 حتفه في قتالٍ أغلب الظن يموت بجرعة زائدة من
 مخدر أو مرض يلتقطه من قرد أو باعوض فيترك
 للضواري أو لينفق! إن العيش في الأحرار تقديم
 للموت!

(16)

يوم الأحد في منروفيا أصبح يومًا بهيجًا بالنسبة له ينتظره بحماس، البرجي يصر دائمًا على إعداد الفطور في بيته الذي يبعد مسافة يقطعها سيرًا في دقائق خمس سيرًا على منوال البرجي، سير مبكر لا يعكره ضجيج ولا تحلق السائلين ولا نظرات ترصده، حتى رائحة الشارع تختلف!

أهل منروفيا يوم الأحد صباحًا إما يغطون في نوم عميق أو يتعبدون في الكنائس، رحمة أيضًا تذهب إلى الكنيسة.

البرجي يعشق صوت فيروز صباحًا حين يعد الفطور، يصدو الرجل فيحادثه هاتفيًا ليفطرا معًا، يصر البرجي على ذلك.

يسمع ألحان الرحبانية وهو يرتقي درجات المنزل، يدخل فيجده قد يعد فطورًا من فول وجبن يصنعه هو بنفسه من الألبان المجففة وخضر و«بنادورة» طازجة، ثم أخيرًا الشاي «بالنعنع»! يتلو ذلك حديث هاتفي مطول مع غادة والعيال، يأتون فيه على ذكر كل أحداث الأسبوع سواء في ليبيريا أو لبنان، بعد ذلك يصحب البرجي للقاء الأصدقاء.

في معظم أيام الآحاد يلتقون عند الشاطئ الرائع للهو والمرح والضحك.

هو يتفاعل مع أحداث الصباح بمزيج من الحماس والسعادة، فحياة البرجي البسيطة وسلامه النفسي يعودون به إلى شرفة والده وما تبثه في نفسه من دفاء.

يلقي كثيرًا من الاهتمام لسلوك البرجي مع النساء، خاصة كيف يدلل البرجي زوجته حين يهاتفها فيلين ويلحن لها في قوله، الأمر الذي لم يختبره في حياة والديه، هو يغبطه في قدرته على التعامل مع المرأة أيا كانت!

الرجل ناعم كثوب حرير، نافذ كلصل سيف، غامض

كجوف بئر! عليه أن يتعلم كيف يستطيع البرجي استعمال النساء دون تكلف أو عناء! أغلب من يتمتع بهن هن من مرتادات متجره، إذا ما رافت له إحداهن يبيع لها البضاعة صباحًا، وليلاً لها يبيع الهوى!

نموذج الجميلة في ذهنه قبل أن يسبر أستار منروفيا كان أوروبياً خالصاً، البشرة البيضاء والعيون الزرقاء والشعر الأصفر المتهدل، منى حققت شيئاً من هذا النموذج، لكن البرجي قدم له الجمال الأفريقي في صورته البكر، ورحمة صاغته على ما هي عليه.

جاش الولوج الأول أعمى عينيه، فلم ير في المنروفيات حسناً، لكن رويداً رويداً ميز فيهن عيوناً ناطقة يكاد يسمعها، وقسمات صريحة لا تقبل الاسترابة، أجساداً ممشوقة تتثنى فوق خيلاء الخطوة، تعلن عن زينة باغية.

اعتادتفن مداركه، فصار ينبهر بجمال بعضهن، يبرر لنفسه إحجامه عن مقاربتن بإخلاصه لرحمة!

النساء في منروفيا نتاج فطري لواقع يفرض عليهن تحمل مسؤوليات السعي على الرزق وسد الفراغ الذي يخلفه الرجال سواء لانخراطهم في الحرب، أو لإصابات مقعدة، أو فتور الهمة، أو قلة الأشغال، فيهن حدة وقوة، وفيهن من وحشية الأنثى اليانسة وأنفة المتمردة الكثير.

جربنات في مسعاهن، لا يكثرن بإخفاء ميلهن إن أردن، يتمنعن بغلظة إذا استعفنن، أصواتهن مجلجلة، ضحكاً أو صراخاً. الأجيال الأكبر سناً لديهن من الحكمة الكثير، فقد خبرن فواجع الحياة، أما الأجيال الشابة متطلعة مندفعة ثائرة، يناطحن أقرانهم من الذكور حتى في حمل السلاح.

هو لم يجرؤ يوماً على الاقتراب أو التعبير لامرأة

عما اختمر في نفسه من أسئلة حول كنهها.
 المرأة في اعتقاده ريب، جاذبية، جنوح، رائحة
 وانحناءات وخطوات تستثيره. جاءتته منى فبدأ
 يتحسس طريقه نحو إجابات وجد فيها مسأ من
 جنون، وخبر رحمة كقصيدة لا تُختتم.

المرأة إنسان لا يتقاسم مع الرجل منطقته، لكنه
 يتماهى معه في كل شيء آخر، في اعتقاده
 أن الرجل إذا أحب امرأة ثار على نفسه، فتخضعه
 نفسه للمرأة التي أحب، أو يروض هو نفسه إن
 استطاع، والمرأة إذا أحبت رجلاً تفرض على عقلها
 ما لا يقبل، فتعيد صياغة الرجل ليقبل عقلها به
 أو يرفضه، المرأة في منروفيا مباشرة واضحة
 يُمنطقها عقله بسهولة.

(17)

جلس صامتًا يراقبها بانتباه منهمكة في إعداد حقيبتته، باتت الليلة الماضية بين أحضانه، لم تفارقه، تبعث الدفء في أوصاله، تسربله بعاطفتها الفياضة، وعلى الرغم من شبابه الغض وعبثها الطفولي الدائم فإن لضمتهما حنو أم رؤوم ورقة ترفعه فوق جفاف واقعه، لجفنيها لغة يكاد يسمعها، لمقلتيها حركة حول تفاصيل محياه تنطق بهواه، للمسمة أناملها على جلده نغم يُطرب إحساسه. في مخدعه يشعر أن كل شيء يخضع لها بقدر ما هي تخضع له.

منذ تآلفا لم يحدث أن نشب بينهما خلاف قط، لم تتحداه في فعل أو قول برغم كل ما في كيانها من اندفاع، حريصة ألا يغضب، تحاول إرضاءه دائمًا، منذ عرفها تحاول في كل لحظة اقتحام أي حدود بينهما، لكنها تتراجع من فورها إن أحست أن في ذلك ما يضايقه، مرت شهور منذ اللقاء الأول وما زالت أحاسيسه تتهاج وتراقص للقائنا.

نومه خفيف متقطع، لكن مؤخرًا أصبح نيل قسط من النوم عناءً حقيقيًا، خاصة في الأيام التي لا تبيت معه رحمة فيظل مؤرقًا تراوحه أفكاره عن منى التي يكاد يجزم أنها خائته وتريد تبديله بغيره!

يا لذلك الهاجس الذي يؤرق نومه فيظل مستيقظًا لثلاثة أيام متتابة، منهكًا غير قادر على التفكير في أي شيء غير الانتقام منها، ومن ذلك الذي خائته لأجله.

تردد كثيرًا قبل أن يتخذ قراره بالسفر عائداً إلى الإسكندرية، عطلة قصيرة، لا يحتمل الشك وعذابات نفسه، فمن جهة يشعر بخزي خيائته لها، ومن جهة مقابلة حائق لمعاملتها السيئة له، شيء ما يضطرم هناك في الإسكندرية.

يخشى عند المواجهة أن يزل لسانه أو تفضح
عيونه حبه لرحمة! لكن الأمور بينه وبين منى
وصلت لحد وجب معه الحسم، وإن كان مؤلماً!
تساءل ماذا لو كل ما اعتمل في خلده مجرد
أوهام، فتصافيا ولان قلبه لمنى مرة أخرى أيترك
رحمة!

لا يستطيع مغالطة أحاسيسه، فمنذ قرر السفر
عائداً وقر حنيناً ما في صدره، يوقد جمرًا تحت رماد
عاطفته. برغم كل الغموض والأسئلة التي يطرحها
عقلها ولسانها، وما يدور بينهما من مشاحنات
الآن، إلا أن منى كانت وجهة قلبه واختيار عقله،
حين استقرت رغبته في أن تشاركه قادم الحياة.
هي الدافع خلف خوضه هذه المغامرة ومجيئه
إلى هنا، لا يستطيع أن يجزم، لكن قلبه اليوم
أسير لرحمة، لا يتخيل أن تعود منى لتفتكه من
جديد.

في لحظة واعية تساءل: هل هو هوائي لهذا
الحد؟!

هل حبه لرحمة نسج خيال؟! أين الصدق في
إحساسه؟! أيجب التي يقع عليها بصره؟! يسلاها
إن غابت!

هل رحمة مجرد واحة لمسافر في قفر ترحال؟!
أم أن منى هي من كانت قشة لغريق؟!

تقرصت على الأرض أمامه ترتب الأغراض بعناية،
لاحظ أنها تضم كل قطعة من ملابسه إلى صدرها
قبل ضياعها بالحقيبة، كأنها أرادت ترك شيء من
عطرها بين أشياءه، سال:

ماذا لو لم أرجع؟

حتمًا ستعود!

من أين أتيت بكل هذه الثقة؟

لا أدري! لكنك ستعود إليّ، إن الحياة التي
ملحتلي إياك لن تسلبك مني هكذا، يقيني دائمًا

أن حظي جيد بالرغم من كل شيء، وأعلم أنك تحبني ولن تنساني!

صمتت، توقفت عما كانت تفعل، تعانقت النظرات للحظات، قامت وجلست في حجره فأحاطها بذراعيه، حدقت في وجهه بعينين تلالأت بدموع لم تسقط.

لحظات من الوجد قطعتها بابتسامة ذات مغزى وبادرت: أردت دائمًا أسألك عن صديقتك في مصر قبل أن تأتي إلى هنا!

هل ما زلت على علاقة بها؟

في هذه اللحظة التي فاجأته بسؤالها أطل عمر من الباب، قطع حديثهما، التفت إليه، دائمًا ما يلمح في عيني عمر نظرات تكشف عن عدم صفو نفسه لرحمة، تجاهل عمر رحمة كعادته وسأله مباشرة:

- ألا تريد المساعدة Bossman؟

فهز هو رأسه نافيًا مبتسمًا!

استأذن عمر في الذهاب متمنيًا له رحلة سعيدة، شكره وأذن له.

عاد يحدق في عينيها التي شفت عن عاطفة تمرح في بستان روحه، تجمع نبضات قلبه في معين صدرها، ما زالت عيناها تسأل! تباطأ هو في الإجابة.

مال وقبل ثغرها بشوق عاشق يخشى الفراق، ثم أسند جبينه إلى جبينها ورد بحنو: لماذا هذا السؤال الآن!

لا لشيء، أردت أن أعرف فقط! شاب في مثل وسامتك بالتأكيد له صديقات كثيرات من حيث أتى، لا أعرف شيئًا عن بلات وطنك، وكيف هواهن، وكيف جمالهن وزينتهن والثياب التي يرتدينها! لكني لا أعبا لهن! فأنت الآن تحبني! ثم أسبلت جفنيها وقبلت شفاهه.

وضعت أناملها على خده، قالت هامسة بحنو:

تعرف! خالتي قالت لي لا تحبي الغريب فيومًا ما سيرحل! هي أحبت غريبًا ورحل. أما أنا..
أنا لم أنفذ نصيحتها، على الرغم أنني أتذكرها
دائمًا!

سأنتظر عودتك، وعندما تعود إليّ لن أسالك
لماذا سافرت، أو ماذا فعلت هناك.
سأخذك في أحضاني كما أفعل الآن، فأنت معي،
وهو ما يهمني في هذه اللحظة وكل لحظة أراك
فيها!

الحقيقة كل الحقيقة في الوقت الحاضر بيننا
الآن! ما قبل ذلك زال، وما بعد ذلك من يدري إن
أتى، وإن أتى حتمًا سيزول.
أنا وأنت حبيبي سنؤول ذكرى تندثر بعد حين طال
أو قصر!

لا نملك إلا أن نمتد لقادم الأيام، لا نستطيع أن
نستبق حوادثها إلا بأمل أو بحلم.
أنت حبيبي، أمني، حلمي أن أحيا كل قادم أيامي
لحظات كهذه التي أعيشها الآن معك إلى أن
ينتهي بنا العمر!

توقفت عن الكلام، أخذته بين ذراعيها، ضمته
بقوة، طبعت قبلة حانية عند منبت شعر رأسه،
لاحظت انكسار عينيه، وضعت خدها فوق جبهته
وهي تهمس: لا تحزن فالحب قدر، واعلم أن حبي
هو قدرك، هذا هو يقيني!

(18)

الليل والقمر وحدته والمجهول، ساءلته نفسه
هل الحب دائم أم أنه إحساس عابر؟

الحب بالتأكيد إحساس عابر، يحتاج في القلوب
لحظة شروقه، ومآله للغروب حتمًا!

الحب يخضع لمنطق تغير الأحوال، فلا يمكن أن
تسكن الحياة بنا إلى ما نحب أن نستكين إليه،
فالزمن بعنفوانه وانطلاقه الدائم لا يقف عندما
نبغي أو ينصاع لإرادتنا في ديمومة ما نروم!

الحال للتحول وإن قبل العقل هذا المنطق، لا
تنفك النفس عن رفضه والنزوع إلى دفعنا لتصور
أن الحياة قد تستديم نعيمًا دعةً وهناءً!

الحب يعبرنا أو نعبره، يسايرنا حينًا لكنه لا بد
يفارق!

أنت لا تدري لا تعرف لا تفقه كنه الحب، ما
تعرفه عن الحب غائم مختلط، مطلسم، يستعصي
على وعيك!

كلا، الحب أيضًا يزول!

قالت إنها تحبني بعد أيام من لقائنا الأول!

ولمَ لا؟ الحب يقع من النظرة الأولى!

وهم! مرض! ضعف! سراب! ألم تقل إن كل شيء
سيرزول، ماذا تعني!

ترددت في أصدائه كلماتها «سأنتظرك، وعندما
تعود إليّ لن أسألك لماذا سافرت، أو ماذا فعلت».

ماذا تعني بما قالت!

هل تعرف شيئًا؟

هل عبثت بهاتفني وقرأت ما بيني وبين منى من
رسائل ومكالمات!

حتى لو طالعت شيئًا لن تفهم! فالمكتوب بلغة
عربية هي لا تفقهها!

ماذا تعني بما قالت!

هل تعني أنها ستتغافل إن كانت لي علاقات

أخرى!

أي حبيبة هذه التي تسامح خيانة حبيبها!
لا أتخيل أن تفعل منى كذلك!

ماذا تعني بما قالت؟

تعني أنها لن تسألني ماذا فعلتُ فلا أسألها
ما فعلتُ في الغياب! هل يعقل هذا! هل تكافئ
حبي بالخيانة!

أنا خائن!

لكنها لا تعلم ذلك، فلماذا الانتقام!

كنت كريماً في عاطفتي معها، صادق أعطيها
من رحيق قلبي بغير حساب!

ستبرر لنفسها التنطع على أحدهم بدعوى
الحاجة!

أترك لها مآلاً!

وهل يقي المال من خبث النفوس الضعيفة!

أب نفسه لسوء الظن بها، زفر ونفت من
سيجارة تكاد تنطفئ بين الإبهام وسبابته، رفع
وجهه، فإذا القمر يقاوم الأيام، يكاد يختفي هلالاً
في غور السماء! في هذه اللحظة مزيج من الحنق
والتردد والارتياب يسيطر على عاطفته تجاه رحمة،
في هذه اللحظة تبدو منى الخيار الآمن! ماذا
تعني بما قالت!

(الرحلة الثانية)

(19)

وصل أبيدجان عائداً من القاهرة بالأمس، قضى بعض ليلته مؤرقاً بالرغم من مبيته في غرفة أنيقة رحبة تطل على خليج هادئ بفندق سوفتيل الفخيم غير البعيد عن مطار «فيليكس بوانيه» الدولي، كان قد تناول بمفرده عشاءً فاخراً بمطعم إيطالي أنيق، ثم عاد إلى حانة الفندق، قضى فيها حتى الواحدة صباحاً.

مشاهداته تقرر بأن أبيدجان عاصمة متحضرة جداً إذا ما قورنت بمنروفيا، تقدم لقاطنيها الكثير من وسائل الترفيه على مدار الساعة، شوارع مرصوفة، عمارات سكنية وإدارية عالية لا تبدو أنها تعاني من مشكلات كهرباء أو مياه، انتهى توه من الاستحمام مستمتعاً بالماء الساخن المتدفق.

عندما غادر الإسكندرية مبكراً جداً متوجهاً إلى القاهرة ليستقل طائرة الخطوط الجوية المصرية إلى العاصمة الإيفوارية، كان الطريق الصحراوي الواصل بين الإسكندرية والقاهرة ملبداً بضباب كثيف، وقر في قلبه أن الإسكندرية التي قضى عمره يبعثر خطاه في طرقاتها وغادرها للتو أصبحت مدينة غريبة على أحاسيسه، لسبب ما فقد تلك الصلة بينه وبين البحر الأبيض.

ما زال لمرائية بالثغر وقع في نفسه لكن شيئاً ما اختلف وأدار دفة جوانحه، المدينة لناظره أجمل وأكثر أناقة لكن لم يعد يالف الأماكن ولا الأشياء ولا وجوه العابرين.

غاب أقل من عام واحد فقط، لكنه أدرك أنه لم يعد له فيها غير ذكريات تخالطها أطياف من رحلوا! تعاضم بوجدانه شعور ثقيل بالغبرة خلال الأيام القليلة التي قضاها بين جدران المنزل الذي عاش به عمراً كاملاً!

قاوم ذلك الإحساس والتهدر بعض وقتٍ ليمارس

هوايته في المشي الطويل، ذرع طريق الكورنيش من حيث شارع خالد بن الوليد إلى محطة الرمل، طريق جميل عصري، ألق في كل مكان، أنوار وواجهات تلمع وموسيقى وأغانٍ وسياح.

لاحظ الأشياء حوله بنظرة نقدية، ما شعر بحزن ولا سعادة، فقط اجتر ذكريات. لوهلة راقه أن عاد ذلك الصبي الخفي الذي يمر بين الناس دون أن يكثر له أحد، بعض نظرات عبرته، لاحظته، تساءلت: هل أنت غريب!

جلس بالمقهى الشهير بجوار فندق سيسيل العتيق، شرد فتاقت نفسه إلى مرأى المحيط الهادر من شرفة منزله أو مكتبه بمنروفيا، لرحمة والبرجي وكلاوس وميمي وكل الوجوه التي تعرفه، هناك!

بدت الإسكندرية أكثر إبهامًا وخيلاءً وقسوة من منروفيا، البحر أكثر ضيقًا وأقل قوة ويفتقد لأفلاطونية المحيط، الأفق دان والموج أقل جبروتًا، والشواطئ تئن من آثام البشر، وجوه عابسة ووجوه لا تبالي، ووجوه لا خوف فيها لكن يسكنها حزن.

سلوك نادل المقهى المقتحم وصوته الجهور يزعجه، ضجيج الشارع وأصوات السيارات تضايقه!
تبادر لذهنه أن الإيقاع المتسارع للشارع هنا أكثر ضراوة من إيقاع شوارع منروفيا!

في الوقت المحدد من صباح اليوم التالي وصل إلى مطار أبيدجان، بدا أكثر خبرة وهدوءًا. بالقرب من بوابة السفر وقف متأهبًا بين جمع من المسافرين ينتظر أن تُفتح البوابة التي تؤدي لمدرج الطائرات كي يترجل، أو بمعنى أدق، يهرول حتى الطائرة العائدة لمنروفيا!

يريد مقعدًا سليقًا هذه المرة، فقد أرهقه الكرسي مكسور الظهر حيث جلس في طائرة

العام الماضي!

ما إن فُتحت البوابة حتى انطلق إلى حيث الطائرة القديمة من طراز «أنتينوف»، ميز صوت محركها، تصدر أزيزاً مزعجاً، يعلم الآن كيف يناور حول مدرج الطائرات، كان هو الأسرع بين الساعين حوله، فركب الطائرة الصغيرة قبل الجميع! يعي أنه لا أرقام لتذاكر ولا حجز لمقاعد، فاختار بعين فاحصة المقعد خلف الطيار مباشرة، وتأكد أن مسند الظهر بمقعده سليم. استقر ووضع حقيبته في حجره، زفر ونظر عبر النافذة الصغيرة بجواره، أحس بزهو المنتصر! فقد ركب آخر في رحلته السابقة إلى المجهول!

المجهول الذي أصبح واقعاً نابضاً يتوق إليه، هو أقل خوفاً وقلقاً وبصدرة شيء من غضب وبقلبه شوق! الأيام خلال عام مضى تمر كأنها ساعات معدودة، قبل ذلك كانت الساعات حملاً ثقيلاً اعتاده وعيه، فلم يفتن إلى أن بالحياة أوقاناً أخف وأسرع.

اختلس نظرة إلى الطيار أمامه، تبدو ملامحه عربية، تذكر أن قائد الطائرة الأخرى ومساعدته كانا روسيين، كبيرهما كان كثيف الشعر، لمع فوق صدره صليب ذهبي برز من فتحة القميص الواسعة، يذكر جيداً ذلك الوجه الأحمر المرتخي، والملامح التي تدل على الثمالة، والجفون الثقيلة التي تدل على الإعياء الدائم، له بطنٌ منتفحٌ وبنيةٌ قصيرةٌ.

تساءل أين هو ذاك الرجل يا ترى؟ ربما مات في شجار بحانة! أو ربما برصاصة في الرأس ليسقط على طاولة الورق جاحظ العينين ينثال دمه على المفرش الأخضر بين الأوراق النقدية وكروت اللعب، أو ربما طار ثملاً فغاص بطائرته في جوف المحيط، ظن أنها نهايات درامية فأبها تليق به؟!

الطائرة تطير فوق شاطئ المحيط الرائع الذي

افتقده خلال الرحلة إلى الإسكندرية، يفهم الآن الكثير من أحاسيسه التي كانت مشوشة، لا يستغرب عودته، بل يشناق لعالمه الجديد.

اكتشف بالإسكندرية أن منروفيا قد تسلت بصراحتها القاسية وإيقاعها الأفريقي الملتهب إلى قلبه، أعاد اكتشاف ذاته في تلك المدينة الأفريقية المعذبة، لم يعد خفيًا، بل يستمتع بالاهتمام وشغف الناس به وبأحواله، هي رحمة بكل تأكيد، رحمة ساعدته أن ترى عيناه ما لم يعتد رؤيته، يستطيع الآن أن ينتقي درر الجمال من بين صخور القبح!

بالرغم من أن طيفها لم يفارقه فإنه تعمد ألا يحدثها طيلة مدة أسبوعين قضاهما بالإسكندرية؛ خوفًا أن تفضحه الكلمات، أو تستشف من صوته ما راودته عنه نفسه!

لا يدري لماذا، لكن بالفعل حاول -وإن كان على مضض- إثناء منى عن رغبتها في إنهاء خطبتهما! هي أصرت، فقبل هو!

انتهى كل شيء بينهما، لم تعد تنازع رحمة على قلبه! يشعر أنه أكثر هدوءًا وقد حسم أمر عاطفته، لم يكن يعلم خلال عام مضى ما يعلمه اليوم عن نفسه، بالتأكيد لم يحبها كما تهيأ له منذ انبهر برؤيتها أول مرة، اللحظات الباردة الجافة بينهما وقد تراءيا بعد غياب أنباته بذلك.

بعد تحية وابتسامة متكلفة جلس هادئًا صامتًا، ثقلت كلمات المجاملة التي نطقها على لسانه، مسامعه لا تطيق التأنيب!

لم يصارحها أن شغفه بها قد فتر، وخبث الجذوة التي ألقها في قلبه ولم تقر له بأنها فقدت إحساسها به لكنه استشف ذلك. حاولت استدراجه لمعركة فاصلة! اتهمته بالتغير بعد السفر وبعدم الجدية، والهوانية، والسلبية، والتبلد.

جلس أمامها صامتًا مطرّفًا لا يدافع عن نفسه، كما كان يفعل أمام أمه أحيانًا ثورتها! أدرك أنها بالهجوم عليه تضع مسببات التخلي والفرار، وتسوق المبررات لتواسي ضميرها الذي اتخذ قرارًا قاطعًا لا رجعة فيه!

رفع رأسه ونظر في عينيها، فأيقن أنها هي أيضًا لم تحبه يومًا! هي تعيش واقعًا لم يدركه هو إلا الآن، واقع تعيه بكل أبعاده وتفاصيله، واقع صاغته حول تلك الأفكار القوالب المجتمعية المشوهة التي تدفع النساء للبحث عن زوج، مجرد زوج!

الآن يدرك كل شيء، هو كان وسيلة للوصول إلى غاية ولم يكن مرادًا لذاته.

ضميره أنباه بأن كل ما وصفته به وقت إبلاغته قرار الانفصال هو مجرد حجج ودفوع للوصول إلى توازن أخلاقي في لحظة المواجهة لا أكثر.

وإذا لو أخبرها أن الاتزان الأخلاقي الذي تبحث عنه لا يتحقق دون سيطرة المرء على نوازعه العاطفية التي تنهزم أمامها كل قواعد التفكير السليم، أما القيم والمبادئ التي يتشدد بها الجميع فلن تعدو غير كلمات رنانة لإراحة ضمير مكبل بالرغبة المحمومة.

الجميع يفعل ذلك بطريقة أو بأخرى، فلا عتب عليها إذا، هي مثل الجميع!

لم يزعجه من أمر اللقاء شيء بقدر الإهانات التي كالتها له أم منى ودعائها عليه «بوقف الحال»، سليطة اللسان جدًّا!

كان يمكن أن ينتهيا إلى نقطة أكثر تحضرًا! ما لا يستوعبه عقله هو لماذا كل هذا الحقد والغل الذي تخاطبه به المرأتان!

بفرض أنه سلبي غير جاد أبيرر ذلك كل هذا الشعور الناقم!

بالتأكيد هو غير ناقم على منى لتخليها عنه؛ ربما

لأن لديه رحمة!

تحرر من إحساسه الدائم بذنب الخيانة الذي لازمه طيلة عام مضى، الآن ضميره لا يؤنبه لشغفه برحمة! ترى ماذا تفعل؟ يشناق إلى رؤيتها ويتوق إلى أوقاته معها، أهى تنتظره؟ أهى غاضبة؟ أهى مخلصه له؟ ما زال ما قالت قبل أسبوعين يتردد في أصداء عقله «سأنتظرك، وعندما تعود إليّ لن أسألك لماذا سافرت، أو ماذا فعلت». بالتأكيد سيعجبها الخاتم الذي اكتراه لها بشيء من ثمن «شبكة» ملئ بعد بيعها!

أتحبها حقاً؟

سؤال طالما تحاشيت إجابتها عنه كلما سألته! أنت لم تعرف كيف تجيب نفسك عنه قبل الآن؟ كان ولا يزال بيننا كثير من العوائق، لا أدري هل سيقبلها عالم الإسكندرية إذا ما قررنا الانتقال من منروفيا!

وما هو عالم الإسكندرية! من! أكانت أمك لتقبل بوجود رحمة في حياتها؟

ليس في رحمة ما يشبه أمك!

ربما شيء من لون البشرة!

أتراها إن جاءت للعيش معه في الإسكندرية تكتئب كمثّل أمي؟

بالقطع العيش في الإسكندرية بعد العيش في منروفيا يختلف عن القدوم إلى الإسكندرية من هيوستن!

ولماذا الإسكندرية؟ إن مستقبلي في منروفيا أصدق حضوراً من الماضي السكندري الملتبس، التحضر والتمددين والعيش اليسير لا يساوي شيئاً إن تحقق زيفاً! ربما يتوجب عليّ التفكير جدّاً فيما عرضته رحمة بافتتاح مطعم فاخر يجتذب كل أغنياء المدينة والأجانب القادمين والمقيمين!

ولمّ لا! إن كل الأصدقاء اللبنانيين يتكسبون من تجارتهم الحرة ويعيشون في منروفيا بكل تفاصيلها دون أن يرهقوا أنفسهم بفكرة العودة! هم يجنون المال الذي يرضي طموحهم. أبو عبد الله متفائل بأن الحرب لن تقع، وأن تشارلز تيلور قادر على حماية بلاده ضد المتمردين ومن يعينهم.

إدراك وجه من الحقيقة وقبول تداعيتها بقدرية يضمن اتساقاً منطقيًا واتزانًا عاطفيًا ومن ثم سلاقمًا، فرضًا، فسعادة! طيف السعادة إن هلّ حتى لو في منروفيا، فعليه اتباعه!

منروفيا إطار ليس إلا للوحة فنية أسرة تتصدرها رحمة، فإن رحمة أرادت الانسلاخ عن منروفيا والهجرة للعيش في أمريكا، ولمّ لا يسافران معًا إلى حيث تحلم!

جواز سفره الأمريكي يستطيع تحقيق حلمها بالأرض الموعودة، فيعيش الحلم معها واقعيًا بعيدًا عن تاريخه الخواء وحاضرها المترنح، ومعتقدات غزال!

ربما عليه ألا ينشغل كثيرًا بما هو قادم، ويستمتع باللحظة كما تفعل رحمة، هكذا حدثته نفسه! عش متفائلًا.

امتد بصره لقادم الأطلام!

(20)

يخطو بتؤدة وثقة، يتسم لمن حوله، توقع ما يرى بمطار منروفيا، لم يتغير المشهد عن المرة الأولى، شرود الركاب كل في اتجاه، الحقائق المبعثرة في المكان، توسلات الحمالين وتطفلهم على حقيبتة الخفيفة هذه المرة، الهرج والمرج والأصوات العالية، رائحة المدرج، جدارية الأقمعة الستة عشر الدالة على العرقيات الليبيرية عند مدخل صالة الوصول، وذلك الرسم الكاريكاتوري على جدار قريب للعم «سام» ينحني مبتسماً لليبيرى صغير.

يعتقد الليبيريون في علاقة «تبنى» بينهم وبين الولايات المتحدة لظروف نشأة الدولة على يد الأمريكان في مطلع القرن العشرين. ربما هم على حق، فقد ترغّب العقلية الأمريكية أن تنجح ليبيريا كفكرة أكثر من نجاحها كدولة! ربما لم يكن غزال على حق!

كان ينتظره أندريه أمام بوابة الخروج، تهلتت أسارير السائق اليافع عندما رآه فأشاح بكلتا يديه بحماس ليميز مكانه بين الجموع المتلاحمة. تبسم، أشار وتوجه نحوه.

بادره أندريه وهو يفتح له باب العربة:

- أهلاً بك «Bossman».

- أهلاً أندريه، كيف حالك وحال العائلة؟

- بخير «Bossman»، وأنت كيف حال العائلة؟

اختلس إلى عينيه نظرة مرتابة ثم شخص بناظره ورد بتحرج:

- الجميع بخير.

استدرك سريعاً:

- ماذا عن مستر كلاوس؟

- هو كالعادة غاضب يرهق الجميع ولا يريد رفع أجورنا، أرجوك «Bossman» لا بد أن تقلعه

بذلك، الجميع متضايقون وأصبح الطعام غاليًا حقًا،
وأفواه كثيرة تنتظر العشاء كل ليلة!
قالها أندريه مشيرًا بأنامله إلى فمه وهو يبتسم
مستجديًا كالعادة. السائق الباسم رغم كل شيء
موضع عطفه، ويحب أن يساعده بما تيسر.
أوما برأسه ورد:

- سارى ما أستطيع فعله أندريه!

شرد بناظره في المشاهد المنروفية التي
اعتادها، لم تتغير منروفيا خلال الأسبوعين اللذين
أمضاهما بالإسكندرية، بل خلال عام أقام فيه هنا!
يبدو أن السماء أمطرت منذ وقت قليل، فالجو
الآن لطيف، يعرف هذا الهواء الرطب النقي،
الأشجار الباسقة، الأيكات المتناثرة بطول الطريق،
طيور السماء اللاهية، السيارة من الفقراء فرادى
وجماعات، العربات القليلة المتأنية، احترام قواعد
السير والمرور.

ضيق الأحوال هنا لا يقارن بأي شيء في مصر،
وعلى الرغم من معاناة المصريين الفعلية فإن
الناس هنا يعيشون حياة صعبة حقًا، يرى في مصر
فقراء، أما الفقر هنا فمغمس في اليأس! من
مزيج الفقر واليأس وقدرية وبعض أحلام استطاع
الليبيريون اختلاق مذاق خاص للحياة، فيه من
الأناة والرضا والتلذذ واللامبالاة، قد لا يستسيغ
الكثيرون طعم العيش هنا، لكنه بدأ يألفه، خطر
له مذاق الشاي المنروفي المر، ربما يتذوقه مرة
أخرى فقد يروق له الآن.

يا لهؤلاء الكادحين، برغم كل شيء ما زالت
البسمة قادرة أن تبلغ في قلوبهم فتزين محياهم
كالنبات الذي يشق على لينة قار الطرقات
المكفهرة، يا لهذه الحياة! إن غيرهم يرفض فيما
لا يستطيعون إليه سبيلًا، لكن لا ترى في

وجوههم هذه القدرية التي تنضح بابتسامات تلمع تحت شمسهم الفتية، فيقبلون على هذه الحياة بطعمها اللاذع!

كل من تخلّق بشراً راشداً لا بد أن يقوده قدر إلى دوامات المحنة والامتحان، فتنتهك كيانه وتدفعه في غياهب من الشك والضعف ولا سبيل للنجاة إلا بأمل، فخلف كل محنة حالكة يوجد سبيل آخر، وبعد قنديل ينطفئ لا بد قنديل آخر ينير أقداراً أخرى.

في الطريق إلى بيته، مر بصيبة حفاة يلعبون الكرة بجدية واستمتاع، حلم السفر والاحتراف في أندية أوروبا حيث الشهرة والمال يتخطى حواجز اللامعقول واللاممكن.

«جورج واياه» بطل أسطوري هنا، يرسم على وجه المستحيل طريقاً لأحلام هؤلاء الصغار، كان من بين الحفاة الحالمين ثم أصبح اليوم أحد أكبر هدافي الكرة الأوروبية، هو إفريقي موهوب حالم خرج من بين جموعهم ليبهز أصحاب البشرات البيضاء، فأصبحوا يلهثون خلفه ويفدقون عليه المال، لقد انتزع هو وغيره من مشاهير الكرة الأفريقية في الملاعب الأوروبية انتصاراً واضحاً وساطعاً للأفارقة بعد قرون من الاستعباد الأوروبي الذي انحط بآدميتهم وسحقهم.

في وعي الأفريقي وحتى بعدما انتهت التفرقة العنصرية «سياسياً» في دول القارة، ظلت يد السيد الأبيض تعبث في الواقع الاجتماعي ثقافة واقتصاداً، تُحكم نيراً من إرث العبودية والقهر يخلق عقل كل أفريقي ويبرر عيشه المتخلف! فإذا بهؤلاء الرياضيين الملهمين يقتحمون المجهول ويغزون بلاد السيد الأبيض لينتزعوا الاحترام والأموال التزاعاً. وعلى عكس المُعلن والمتوقع يفترخ الأفارقة إذا تجلس لاعب ملهم بجلسية دولة أوروبية ولعب ضمن فريقها الوطني، وكأنه

دليل ضمني على قبول السيد بحقوق المسيد في المساواة والكرامة، واعتراضًا وتكريماً لإنسانية الأفريقي المنتهكة زمناً طويلاً!

وصلت السيارة إلى حيث يقيم في عمارة البرجي، خرج مبتسماً رافعاً رأسه ولمح زونجا فصاح بتلقائية:

- زونجا تعال وخذ حقيبتني.

تهلل الكهل الرث وأتاه مهرولاً مرحباً، صافحه بحرارة ولم يعبا لرائحته، ناوله حقيبته بثقة، فأخذها زونجا وذهب.

أخرج من جيبه قطعاً معدنية كان قد احتسبها مسبقاً، وزعها على عجل بين الشحاذين المبتورين الذين ألفهم وألفوه واستقبلوه بترحاب شديد دونما استجداء أو تنطع!

خطواته ما بين السيارة ومتجر البرجي واثقة متقافزة سريعة، يستمتع بكل تلك الوجوه الباسمة له المرحبة بمقدمه، رفع يده محيياً بعض أصدقائه من الباعة الجائلين على الرصيف المقابل! حتى النظرات الحاقدة يلحظها لكن لا يهابها!

لم يغب طويلاً، لكنه افتقد صخب هذا الشارع الذي استقبله بدفء. أحس أنه لم يغب يوماً واحداً، أبو عبد الله كما تركه، والعاملات في المتجر، والشحاذون، والمتسكعون، والباعة الصاخبون.

الشمس المروافية والنبات الأخضر في كل الأماكن يعلن ثورته على الدمار الذي لم يزل حاضرًا، لكنه لا يرى في ذلك غير كل القلوب الدافئة والعيون المتهللة لرؤيته.

هو اليوم أكثر تصالحًا واتفافاً مع هذا الصخب حوله، شعور لا يستطيع تفسيره، يتماهى مع ما حوله في سلاسة، حتى بدا له أن أحدًا ممن لا يعرفه يكثر له، هو جزء غير شاذ أو مستغرب. هو

اليوم يتسق، يتجلى، يندمج، لكنه يتميز.
 لأول مرة لا يشعر بغربة أو اختفاء في مكان،
 توجه إلى حيث ينتظره أبو عبد الله عند باب المتجر
 بالأحضان وسخر من شحوبه ونقصان وزنه شيئاً ما،
 تضحكا، وجاءت ميمي فاحتضنته بترحاب صادق،
 وجئن أخريات محتفيات به، ضمته الصدور وتسابقت
 القبلات إلى خديه، لكنها لم تكن قبلاتها أو
 ضمتها التي افتقدتها كما لم يفتقد شيئاً من
 قبل، لماذا لم تكن بينهم!

خفقة القلب ترددت في الصدر بأصداً من حزن
 وخوف، جال بنظره في أرجاء المتجر، ربما وقفت
 في جانب منه تنتظره أن يقبل هو عليها، لكنها
 ليست في أي مكان حوله!

يدير نظره فيمن حوله باحثاً عن وجهها بين كل
 الوجوه، يتحسب أن يكتشف البرجي أمره، فمال
 على أذن ميمي سألها بهمس:

- أين هي؟

**

t.me/tea_sugar

(21)

وقف أبو عبد الله معلماً قبضتيه فوق خاصرته مشرباً بعنقه، يرنو للأفق في سكون وألفة كأنه يناجي المحيط، أو ربما يبث ربه أمانيه، مستمتعاً كمن يستمع لعزف أوركستراي!

غير بعيدٍ منه جلست القرفصاء لبيبرية هزيلة قصيرة تمشط بتلقائية رمل الشاطئ أمامها بسيف راحتها الكيلة، وكأنها تربت على رأس طفل صغير أو تقرأ الطالع بين الحصى، لها صغار يتحلقون لاهين ما بين سيف المياه وأبو عبد الله تناغيهم شمس الصباح الوادعة فتلمع ابتسامتهم الغريرة، لوهلة قد تنسى أنهم لبيبريون أشقياء، هم فقط أطفال!

اقترب منه بتؤدة، رمقه فرأى الرضا يرتسم بعلامحه، دائماً يرى في محياه ما يدل على اتساقه النفسي، يبدو دائماً على يقين لا يتزعزع، يرجع كل شيء إلى أقدار الله، يؤمن أن الكل مسيرٌ في اختياره، وأنا شئنا أم أبينا نؤدي أدواراً في هذه الحياة دون تزيّد أو انتقاص، الكل ميسر لما حُلق له، حكى له الكثير من القصص عن تجاربه منها المضحكات ومنها المبكيات، لكنه دائماً مصر ممتد للقادم أياً كان.

شعر به البرجي حائراً في جواره، رمقه بطرف عينه من خلف منظاره الطبي، وأوماً بابتسامة هادئة دون أن يلتفت إليه! سأله فيما يحدق؟

رد:

- في جمال صنع الخالق.

عاد وسأل:

- أنتظر شيئاً؟

رد:

- الخير من الله.

تحرير لغموض الإجابات، لكله وقف إلى جواره يحدق فيما يحدق، علّه يهتدي إلى ما يرنو إليه.

سها، طاطا رأسه فرأى قوقعة يتلاعب بها
موج الشاطئ عند قدميه، مال والتقطها تأمل
في جمال صنعة باريها، وجد ساكنها ما زال حياً،
وضعها برفق فإذا هي تسعى في أمان.

تقاسم مع أبو عبد الله العيش منذ مقدمه،
لم تبدأ علاقتهما بالشكل التقليدي بين مالك
ومستأجر، فقد كان البرجي حانياً مرحباً منذ اليوم
الأول، فتح له بيته يتقاسم معه الوقت والقوت
والصحبة، دائماً ما يقضي معه معظم أوقات
المساء -عدا أوقات زيارات رحمة- وكذا بعض
عطلات نهاية الأسبوع. يعرف أبو عبد الله كلاوس
جيداً ولا يحبه، يراه متغطرساً جامد المشاعر
قاسي القلب.

أخبره بما صار في رحلته القصيرة إلى
الإسكندرية، فرأى البرجي أنّ في تركه لخطيبته
خيراً، هون عليه مؤكداً أنه سيختار له عروساً
لبنانية أجمل وأفضل منها، فلا داعي للحنن.

رفعت كلمات البرجي معنوياته، فلهذا الرجل
قدره كبيرة على بث الثقة والتفاؤل والحب في
كل من حوله، هو بالفعل كما يناديه الجميع Papa
حقيقي!

البرجي يختلف عن غزال لكن عاطفته تجاهه
تذكره به في كل وقت! بالرغم من العناد والتسلط
والمكابرة التي كان يتعامل بها مع أمه، إلا أنه
كان رقيقاً محبباً في تعامله معه، ود لو كان أكثر
ثرثرة وحدثه أكثر عن أشياء كثيرة، لكنه كأبو عبد
الله كان كثير التأمل يتذكره دائماً في جلسته
بالشرفة، يستمع إلى الأغاني ويرنو إلى البحر
البعيد الذي يلوح من زاوية عبر البنايات، صرح له
بالشرفة يوماً أنه ود لو كان أقرب في مسكنه
للبحر!

هو يحدث البرجي في كل أمر من أموره إلا أمر
رحمة! يستحيي أن يحدثه فيما يحمله قلبه لعاملة

رقيقة الحال في متجره، إذا كانت ميمي مديرة المتجر تعلم ما بينهما، فأبو عبد الله بالتأكيد يعلم بأمره مع رحمة. لن تخفي عليه ميمي أمرهما إذا سألتها، أو لربما لاحظ في عينيه نظرات يكاد يخفيها تجاه رحمة، الغريب أنه لم يبادره بسؤال قط! ربما ينتظره ليسكب ما في صدره المشتاق إليها على مسامعه، ترى أيعرف أبو عبد الله فعلاً أين اختفت رحمة؟

بينما وقف إلى جواره متردداً في مفاتحته في أمر رحمة، إذا بأبو عبد الله يلتفت نحو المرأة المتقرصة مبتسماً ماذا ذراعه مشيراً نحو الأفق، فقامت تلك على مهل، وقفت بظهر أحناء الزمن تنفض الرمل الذي علق بإزارها الرث باهت الألوان، خطت خطوتين متوانيتين للأمام، رافعة كف يمانها بين الشمس وعينيها، بعد برهة استدارت تنظر في وجه أبو عبد الله وهي تهز رأسها إيجاباً، ثم عادت إلى موضعها فلملمت إزارها وتقرفت من جديد مستندة برأسها على راحة يمانها.

لم يفهم شيئاً مما حدث! إلام ينظران؟ وما فحوى الحوار الصامت بينهما؟ عاد يرنو في الأفق حيث مرمى نظر أبو عبد الله!

بعد شيء من التركيز اهتدى، لقا رأى في المدى ما استرعى نظر الكهل الخبير. شيئاً فشيئاً اتضح له قارب الصيد الممشوق يؤوب عائداً بعد رحلة استمرت منذ الفجر حتى هذه الساعة التي هي ظهيرة هذا الأحد صحو النسمات.

باقتراب القارب ميز فوقه بضعة صيادين تشق مجاديفهم وجه المياه بحركة تلقائية متناغمة دفعتهم بسرعة لا تتناسب ومجاديفهم البدائية. ما لبثوا حتى دنا القارب من حيث هم. ففر الصيادون في تناسق تلقائي إلى المياه الضحلة يسحبون القارب المصنوع حفراً في جذع شجرة

سامق، صنعوه كما تعلموا واحترفوا تناقل صنعته عبر الأجيال، بدوا له كأنما يخرجون من سجل التاريخ لا من مياه المحيط، قادمون من زمن آخر عبر فجوة هناك في الأفق!

سرعان ما تلا القارب هذا قاربان آخران وصلا تباغًا. اقترب أبو عبد الله والليبيرية بصحبة أطفالها المتحمسين من القارب المسجى بين الصيادين المتشاغلين بشباكهم وصيدهم، هو أيضًا دنا منهم.

قابل الصيادون البرجي تباغًا وأقبلوا على مصافحته بحيونه بتحية الإسلام بلغة عربية سليمة، فاستنتج أنهم مسلمون.

نظر أبو عبد الله في الأسماك التي ما زال بعضها يتقلب في باطن القارب، وأشار إلى أكبرها، فأخرجها أحدهم بجهد، كبيرة وما زالت تتلوى بالحياة! ضربها الصياد بمجداف على رأسها فهمدت، تلقفتها الليبيرية منه على وهنّها. ثم همت بها نحو الأحراش القريبة يعاونها أطفالها على حملها الثقيل، ستشرع على الفور في إعداد الصيد لغداء الصباح.

بعد بعض المهاترات والأحاديث الضاحكة مع الصيادين -الذين يعرفهم ويعرفونه جيدًا- دفع أبو عبد الله ثمن السمكة سمكًا، فشكروه بامتنان متهللين.

هذه السمكة ستكون الطبق الرئيس لغداء الصباح المجتمعين بالعريشة وللأفريقية وأطفالها أيضًا، فهي تحتفظ لنفسها بالرأس وحواشي السمكة وجزء من الذيل، فتعدّ بذًا حساءً مع «الكسافا» وما تيسر من الخضروات، فيطعم الصغار ويملؤون بطونهم الخاوية. وفي مقابل ما يجود به أبو عبد الله وصحبه تقوم بقلي وشوي قطع اللحم الطازج مع الأرز الذي يحضره أحدهم مع سلطة الهندورة والبادنجان المقلي التي يعدها أبو عبد الله ببراعة.

أخبره أبو عبد الله في طريق العودة للعريشة أن هؤلاء الصيادين يقطنون قرية قريبة تشارف هذا الساحل، منحدرين من مسقط رأسهم في غينيا، لا دخل لهم في شيء مما يحدث هنا، لا يهتمون بشيء غير عملهم وتجارتهم، هم عصبة ويد واحدة، قليلو الاختلاط بالليبيريين، مشهورون بأمانتهم وأخلاقهم السمحة، وترايطهم في وجه اللصوص ومن يعاديهم من محترفي الحرب، يسعون إلى أرزاقهم مخلصين لحرفتهم التي يسيطرون عليها في ليبيريا وشواطئ غرب أفريقيا كلها، يتوارثونها فيما بينهم أبا عن جد، جيلاً بعد جيل، لا يسمحون للغرباء بينهم ولا يودحون بسر عيشتهم فلا يضارعهم بمهارتهم في نحت قواربهم وحياسة شباكهم ومعرفتهم بالبحر أحد.

ينشرون شباكهم فيبيعون ويأكلون مما قسم الله لهم حامدين، لا يحملون هواتف ولا يشاهدون التلفاز أو يسمعون أخبار العالم. عالمهم مبدؤه الفجر عند سيف المحيط ومنتهاه عشاء حول نار السم، يديرون شؤونهم ويجترونها الحكايات، يعدون لرحلات الصيد غداة عشي. إن مات فيهم أحد غسلوه وصلوا عليه جماعة وخرجوا عن بكرة أبيهم رجالاً ونساء وأطفالاً في قواربهم مزغردين لا باكين ليودعوا فقيدهم المحيط!

بالعريشة انقسم الصحاب، فريق يلعب «الطرنيب»، وآخرون يتناوبون على طاولة الزهر. كان الغناء من فيروز والصب من الصحاب، اعتادوا تمضية صباح الأحاد هنا مستمتعين بعذرية الطبيعة الخلابة، ويشيعون مرحاً على الشاطئ الذي لا يخلو من مارة، يتطفل بعضهم يستجدي مالا أو طعاماً، أبو عبد الله هو من يتصدى للمتطفلين بالمنع حياً وبالمنح أحياناً.

يحرص أبو عبد الله وقلة من الصحاب على روتين

البحر صبيحة الأحاد بينما يراوحوه غيرهم، من بين غير المنتظمين أحمد وحيد الذي كان من أعلاهم صوتًا وأقواهم حضورًا، رغم أنه كان من أصغرهم سنًا، انهمك أحمد وحيد مباريًا أبو حسين في «دور طاولة محبوسة»!

ما إن لمح البرجي قادمًا أشار له صائحًا:

- تعال شوف صاحبك يا أبو عبد الله شكله هياخد «مارسين صيامي»!

رد أبو عبد الله متجاوبًا:

- أوف أوف أوف بوحسييين شو بك ما بنخلص من المصريين بعدين!

بدا أبو حسين مستسلمًا وهو يقول:

- شو بدّي أسوي يا خيي حظ! كله حظ!

ارتسمت ابتسامة زهو على وجه أحمد وحيد وعلق ساخرًا:

- حظ في «أويون» في رمية زهر مش «مارسين»، واحد في «الدو» والثاني في «اليك»! لعب، لعب، إنت النهارده زبوني!

أحمد وحيد الدبلوماسي الشاب تربطه صداقة وطيدة بالبرجي! للوهلة الأولى يبدو وحيد -كما يناديه الجميع هنا- حاد الطبع متعجرفًا، يرتدي نظارته الشمسية معظم الوقت، لكن ما إن تكتسب ثقته يلين طبعه وترى فيه إنسانًا تلقائيًا مقبلًا على الحياة، حاد الذكاء، يتعامل مع كل شخص بما يتناسب مع مستواه الثقافي والاجتماعي، مولع بالفنون فيقرض الشعر، ويرسم بألوان الزيت، يستمع لكل صنوف الموسيقى، وله خبرة بالتاريخ الموسيقي لأوروبا وتطور المدارس الفنية المختلفة، لا يشي شكله الأقرب للهيئة التركية أو الشامية بانتماؤه الوطني، تلم لكنته الإنجليزية عن تعليمه الراقى.

تفاجأ هو بوحيد أول مرة بعد بضعة أسابيع من سكناه في عمارة البرجي، رآه جالساً في الكرسي إلى يمين أبو عبد الله بمتجره في ذات الكرسي الذي لا يُقرّبه أبو عبد الله إلا لثلة هو منهم! صرامة نظراته وحدة سماته وبنيته الضخمة جعلته يتهيبه ويتوجس منه. كذلك ارتاب منه وحيداً! فهو شاب مصري أمريكي تفاجأ به يسكن بيت البرجي ويصاحبه، لا يعرف عنه غير أنه يخالط التجار اللبنانيين ويعمل لدى الصينيين! قليل الكلام، صامت غامض حائر النظرات! طباعه وظهوره المفاجئ في منروفيا... ملابسات فرضت تحفظات مبدئية بين الاثنين.

في يوم تال للقائهما الأول -ولدهشته- رن هاتفه من رقم لا يعرفه، كان وحيداً بالطرف الآخر، تحادثاً بتكلف ودعاه بدون مناسبة لفنجان قهوة تركية بالسفارة المصرية، تردد، لكن البرجي وشيئاً ما -لعله الفضول- جعله يقبل الدعوة، زاره بالسفارة المصرية الكائنة في حي المامبابوينت غير بعيد عن الفندق الأشهر بالمدينة، وقبالة السور الضخم الممتد للسفارة الأمريكية، التي بدت في موقعها وبنائها المميز أقرب إلى صورة حدائية لإحدى قلاع العصور الوسطى بأوروبا، من الشارع لا يظهر منها غير سور شاهق يعلوه السلك الشانك، لها ثلاث بوابات معروفة ويحدها المحيط غرباً بالطرف الشمالي للحي الذي يحتل ربوة تنحدر من جهة المحيط للداخل.

كان اللقاء الأول بينهما أشبه بالاستجواب أو هكذا ظن! فقد سأله وحيد عن تفاصيل كثيرة بشأن عمله وأحياء الإسكندرية وشوارعها ومعالها وكلاوس وعلاقته بأبو عبد الله واللبنانيين والصينيين وازدواج جنسيته وتفصيلات كثيرة، بدأ شغوفاً دقيقاً في أسئلته له، بيد أن صبره وصدقه وتلقائية ردوده، ثم تواتر الزيارات، أراحت كثيراً من أستار الشك والقلق لدى مستجوبه!

بعد أن تعارفا وزادت مساحات الثقة والارتياح بينهما رويدًا رويدًا، أصبح يداوم على فنجان القهوة التركية الذي لا يتحصل عليه منذ جاء إلى هنا إلا عند وحيد.

طبيعته التي تميل للاستمتاع بالاستماع، ولا تثرثر فثثير، هذه الطبيعة وجدت هوى لدى وحيد الذي يهوى القيام بدور المحاضر المنظر في مجالات عدة، له رأي يحترم في قضايا فلسفية وفنية وسياسية، يشترك وأبو عبد الله في تلقائية إسداء النصح دون طلب!

أصبح مكتب وحيد الذي يبعد عن مقر عملة بالشركة الصينية قرابة ربع الساعة من السير في طرقات الحي الهادئ من عاداته التي يحرص عليها بقدر ما تسمح ظروف العمل، الأمر الذي أسعده جدًا؛ حيث بدأ يزاول رياضة المشي مجددًا في ظلال الأشجار الوارفة بين البيوت الأوروبية الطراز في مجملها.

زاد سيره في الطرقات من تألفه والمكان، منروفيا مدينة محدودة المساحة، كانت في زمن ما تسمى بسويسرا الغرب الأفريقي لما تتميز به من كثرة روايبها وتلالها، والماصابوينت أصغر أحيائها وأرقاها؛ حيث تأسس على ربوة ناتئة في شمال غربي المدينة، ويضم السفارات ويسكنه صفوة المجتمع؛ لذا فهو نظيف ومؤمن، يختلف عن وسط المدينة الصاخب، لكنه لا يفكر إطلاقًا في تغيير محل إقامته والتضحية بجوار البرجي!

أضاف وحيد إلى فهمه لليبيريا وواقعها البانس لمعرفة بتفاصيل التاريخ السياسي والاجتماعي للدولة؛ حيث إن معلوماته موسوعية أكاديمية، وتحليله للأحداث لا يخلو من بُعد إقليمي، ويعول على سياسات الدول العظمى وأهدافها في القارة.

أثار قلقه أنه لا يُبدي تفاؤلاً بمستقبل ليبيريا ولا باستتباب الأوضاع الأمنية؛ حيث يرى أن نشأة ليبيريا تحمل في طياتها بذور الانشقاق وفتيل الإشعال الذاتي.

شرح له أن الرئيس مونرو -عضو جمعية الاستعمار الأمريكية التي رأت في العبيد المحررين عبئاً على المجتمعات داخل أمريكا خاصة في مدن الشمال- قرر منح العبيد المحررين حق العودة للأم أفريقية، فقرر بعض العبيد المحررين «طوعاً» العودة إلى الساحل الغربي لأفريقيا في مطلع عشرينيات القرن التاسع عشر. أنشأت الولايات المتحدة في هذه البقعة مدينة تحمل اسم الرئيس مونرو بالقرب من فري تاون التي استقبلت بدورها محرري بريطانيا!

حفلت السفن الأمريكية الحالمين بالحرية إلى هذه الأرض التي سكنها أحرارٌ لم يعرفوا قط عبودية أو احتلالاً على عكس معظم الشعوب الأفريقية، فأعطى من لا يملك ما لا يملك لمن لا يستحق دون اعتبارات حقوق السكان الأصليين وطبيعة عيشتهم التي استمرت قروناً من الزمن تحكمها العادات والأعراف القبلية. لم يعرفوا فكرة الدولة السياسية والحكم المدني إلا بمقدم المحررين الأمريكيين من حاملي قشور الحضارة والتمدين، فبالإضافة إلى أن الوافدين مسيحيون مخلطو الأعراق، كان نظام الدولة السياسية الذي فرض فجأة على المجتمع القبلي هو شرارة الحرب بين الجميع أحراراً ومحررين، فأصبح القتال الوحشي والنزاع الدامي على السلطة هو السمة الغالبة على التاريخ الليبيري الحديث. الأحوال قابلة للاشتعال دائماً، ثور ثم تهدأ كما بدأت.

هذا ما قاله وحيد وتنبأ بأن تنزلق الأوضاع إلى مواجهات دامية في ملروفيا خلال وقت قريب؛ لأن قوة متمردٍ الأحرار خاصة جبهة «الموديل» في تصاعد مستمر وتدعمهم عدة أنظمة بالمال

والسلاح.

تنادما واستمعا بشغف وحنين للألحان المصرية والأوروبية والأمريكية الكلاسيكية، وخاصة ألحان سيناترا وبوب مارلي وبلغ حمدي وسيد مكاوي وأصوات وردة ونجاة و«إيديت بياف» و«إجليسياس». تقبل على مضمض ولع وحيد بعد المطرب وأحمد عدوية! كما تقبل وحيد -أحياناً- ميله لأغاني عمرو دياب وشيرين!

أيضاً هو لم يخبر وحيداً بشأن رحمة، ولعه بها واشتياقه إليها واختفائها، فوحيد سيصدمه بوجهة نظر منطقية لا تعول كثيراً على عاطفته الجياشة! هو ينظر إلى المرأة نظرة فوقية لا تعول كثيراً على مشاعر أو عواطف. ربما وحيد محق!

ربما عليه هو أن ينساها!
لكن أولاً، أين هي؟

(22)

قرر، انتظر، ترقب، تحين الفرصة، انتحى بميمي في جانب من محل البرجي بالقرب من باب المخزن، سألتها عنها متلعثمًا:

- أتعلمين أين رحمة؟

رمقته بنظرة فيها تساؤلات أكثر من الإجابة التي ينتظرها! قالت مستنكرة تتهكم:

- ماذا تقصد!

رد باستجداء:

- رحمة! أين رحمة؟

أطرقت في حيرة، ثم قالت ببرود:

- ربما عليك أن تسأل Papa قد تجد عنده إجابة عن رحمتك!

صعق لصف الإجابة، والرد غير المتوقع! فرحمة سبق وأخبرته أنها تثق في ميمي جدًا وتعتبرها أختًا لها!

استجمع شتات أفكاره، وعاد فكرر السؤال، زفرت ميمي في ضجر وكررت أنها لا تعلم شيئًا، ثم ذهبت وتركته لحيرته!

أخبرتني أن أسأل أبو عبد الله! ماذا تقصد؟

أسئلة كثيرة عصفت برأسه وهو واقف في مكانه بزاوية المتجر، خرج مشدوهمًا، لم يلتفت إلى أبو عبد الله الذي ناداه ليشرّب قهوته!

الغضب في حياته إحساس مؤقت يستطيع أن يسيطر عليه، لم يملك منه يومًا في مضي، أما الآن فهو غاضب، غاضب، ناغم دائمًا منذ عاد ولم يجدها! يحاول جاهدًا ألا ينفجر!

الحياة بدونها نمطية مستقرة مملة، لا يجد في أحد أو في شيء مما حوله ما يثير شغفه، اتخذ قرارًا منذ أيام بترك العمل والعودة!

لم يفتح كلاوس أو البرجي حتى الآن فيما لوى،

لكنه لا يطيق الحال التي هو عليها هنا!

هل يمكن أن يكون البرجي قد لاحظ العلاقة،
فقرر إنهاؤها دون أن يخبرك من منطلق أبوي!
«أبوي» هو صديقك وليس أباك!
نعم، أعلم ولكن هذا ما أجده من عاطفة الرجل
تجاهي!

تراها رحمة قد خانتك مع البرجي!
مستحيل! هي تعلم أنني أحب الرجل وأقدره!
أحقيق أن البرجي لا يعلم؟
هكذا يُبدي!

هل تزوجها متعاً كما يفعل مع أخريات؟
هل أخفاها وأزاحها عن طريقي كي يزوجني
اللبنانية التي يريد لها لي؟
لست صغيراً ليختار لي زوجتي؟ أنا لم آتِ إلى هنا
لكي يسوق أقداري أبو عبد الله!
لا بد أن أسأله، لم يعد بد من ذلك!
سأقتله وأقتلها إن كانا خانائي!
لماذا تربط سعادتك بعلاقتك بامرأة سواء كانت
رحمة أو منى أو غيرهما! منذ متى ترى السعادة
في امرأة؟

منذ زالت رائحة الصمت عن جدران القلب، المرأة
هي رحمة، هي الدفء الذي يطل من كوة في
زنزانة العمر الموحش، حقيقٌ أشرقت أمام عيني
شمس منى لكن سطعت في قلبي شمس رحمة!
العيش غير معقول ولا مفهوم بدون الأمل الذي
تبثه في الوجدان، والسكينة التي تسربل الروح
في وجودها، عطاؤها غير المحدود، رحمة ترفعني
فوق الأحران، رحمة تصبغ الحياة بالألوان، رحمة
هي الزمان هي المكان هي الكيان!
تعول عليها كثيراً!!

أستلهم الحياة التي تنبض بكيانها الهش
والمرح الذي يتقاذز في خلجاتها وهي بضاعتها
التي اشتريتها بثمن ليس بغال! والآن عزّ المرغوب
على الراغب، فعليها اللعنة أينما حلت وسرت
وهجعت، إنها غانية حقيرة!

لو أنها كذلك، إذًا لماذا تغضب!

لا أدري! إن كانت تحبني لاشتاقت إليّ وجاءت
لتلقاني أليس كذلك؟

ولمّ لا تبحث أنت عنها؟ جدها وانتزعها ممن تظن
أنها وجدت الخلاص في أحضانه!
أنا لا أستطيع!

أنت خانع فاشل تنتظر السهل ولا ترغب في
خوض مغامرة ليل من تحب، وحبك لرحمتك هذه
محض هذيان!

اصمت! أنا تركت وطني لأجل من أحب!

الوطن! ذلك المكان الذي عشت فيها مهمشًا
خفيًا لا يكثر لك أحد! الوطن حيث سقاك والداك
الكراهية والنفور والاختفاء؟ أنت لم تهجر وطنًا
أنت ارتحلت تبحث عن وطن! وجدت في رحمة وطنًا
وتريد أن تضيعها كما ضيعت مني!

هي من تركتني وتريدني أن أبحث عنها! أنا لا
أسعى خلف من يتركني لغيري!

ماذا فعلت هي لم تفعله أنت! أنت تركتها ورحلت
لاسترضاء مني! من حقها أن تسعى للخلاص!
أنت نفسك ترنو لخلاص! أتيت هنا تبحث عن شيء
فوجدته ثم تركته، كما تركت مني!

مني؟

نعم مني!

هي من تركتني!

كاذب أنت سافرت فرائًا منها بحجة توفير المال
للزواج، لكن الحقيقة أنك كنت تهرب من الزواج بها
لأنك جبان!

منى لم تحبني حقًا! أرادتني فقط لاستيفاء

شكل اجتماعي كذلك رحمة، هي الأخرى تبحث فيّ
أو في غيري عن فرصة للهرب من واقعها المذري،
كلتاها لم تريداني لذاتي، كلتاها تطلبتا على
حياتي! أنا لست جباناً.

جبان، ماذا فعلت عندما أحست مني بأنك
أهملتها، لم تستطع مواجهتها، بررت ذلك بحبك
لرحمة! هكذا ارتاح ضميرك! يا لك من حقير!
أنا أحب رحمة.

تحب رحمة! أتظن أنك تعيش رواية رومانسية!
تأتي فيها أميرًا لتنقذ الفتاة الفقيرة من براثن
الفقر! أين هي أميرتك أيها الفارس! أنت غير قادر
أنت تنقذ نفسك أيها التعس! اعترف بالحقيقة!

الحقيقة! أنا عدت من أجلها، ألا ترى ذلك!
عدت للمال، عدت لأن لك هنا نافذة على حياة
هنا!

ولماذا أكذب؟

أشياء كثيرة تدفعك للكذب!

هي لك ملهاة تعينك على أيام عمرك التعس،
أنت عدت هنا هربًا من ذاتك الحائرة لعك تجد
الراحة على صدر رحمة.

لا أدري! ربما! ربما أحبها حقًا!

أتسعدك؟

نعم، نعم تسعدني.

أحمق! مثلك لا يعرف السعادة وإن حدّق في
وجهها، أنت موصوم بنقمة الأحران، سجانك
من أشباح عمرك المجهول على الخنوع والجبن
والاختفاء، هي لا تعدو غير محاولة أخرى للهروب
أو إرضاء للشبق الذي ارتوى بعد سلين!

ربما، لا أدري!

انظر جيدًا هل ترى مستقبلًا هي فيه؟ كن
صادقًا!

أنا عدت لرحمة!

عدت لذاتك! لا عيب في ذلك!
لا إنها رحمة! بدونها ماذا أفعل هنا! لقد اتففى
سبب السفر كله! لماذا رجعت إلى هذا المكان
المجنون!
إذاً ربما عليك أن تسافر.
إلى أين؟

(23)

ظهيرة سبت رائع!

شمس ساطعة تناغي ولا تلهب، نسيمات باردة تتهدد حاملة شيئاً من رائحة المحيط الهادر غير بعيد، أصوات طيور لاهية وحفيف أوراق غضة، وموسيقى بوب مارلي تتسلل إلى أذنيه قادمة من البهو القريب.

بيده كأس من جعة، منشغل بأفكاره لكنه مسترخٍ على أحد الكراسي الممشوقة حول مسبح فندق «المامبا بوينت» الأشهر بمنروفيا، وأحد المقاصد المعدودة لصفوة المجتمع من الأجانب في أيام العطلات، نادراً جداً أن ترى ليبيريًا يرتاد هذا المكان، قد يرتاده أفرقة آخرون ممن يعملون في مشاريع وهيئات الأمم المتحدة أو تلك التابعة للمنظمات الإقليمية، لكنه منذ إقامته الأولى هنا لم يرد ليبيري المكان غير العاملين فيه!

لها حضور استرعى انتباهه، كانت بالطرف الآخر من المسبح، تلهو وتتحدث مع بعض أصدقاء، منهم آحاد انصاعت أجسادهم القوقازية للزمن فترك آثاره مترهلة أو غائرة، وفيهم من لا يزال شاباً غصاً يتخايل. أما هي فقد حار لهيئتها، فقد بدت للوهلة الأولى خمسينية، ولما أمعن النظر تشكك في أن تكون أربعينية! أيما كان لها من عمر، قدر أن شبابها يمر بها على غير عجلة فلم تترك السنون أثراً يذكر على جسدها البض وبشرتها المتلألئة وهيئتها الجذابة، فالجسد المرمي مثير تفاصيله يلمع أسيلاً تحت أشعة الشمس المنروفية، خصلات الشعر الذهبية داكنة تلسدل بحرية المخمل حتى أعلى الكتفين، البدن إغريقي السميت متناسق حتى عجز به من الامتلاء المثير دون زيادة، هي أقرب للقصر من الطول، لها خصر نحيف فوق أرداف تتحدى ما للعذارى من فتلة.

يكاد يميز بعض تجاعيد حديثة العهد بالرقبة القصيرة وشيء من ليونة فوق المرفقين تلبئ بقلة المجهود. نضرة شهية كفاكة استوائية، تختال أنوثتها بنعومة!

الوجه على البعد يراوحه خريف لا ينتقص من جماله، بل يزيده غموضًا وتشويقًا، لملامحها هدوء لا يدركه الشباب الغض، ميز ندبات الخدود عندما يبتسم الثغر وتلمع العينان الواسعتان. الأنف مدب بطرفه شيء من حمرة، وشم ما بالطرف الأيمن الأعلى من الصدر البادي لدنا مستديرًا تحت حلة السباحة السوداء.

لسبب ما ذكرته هيئتها بمنى على الرغم من اختلاف كثير من التفاصيل بينهما.

صوت جهوري لأحد الصحاب التي هي بينهم، يحكي قصة ما بلكنة بريطانية لا تخطئها أذن، يستمعون ويضحكون ويصخبون.

لاحظ أنها أقلهم صخبًا ولغوا، لا تتوسط الدائرة، تلقائية العبث بشعرها، تطالع أظافرها، تهش الهوام عن ساقها، تتكلف طريقة جلستها وتفاصيل هيئتها، عندما تتحدث تميل بجذعها بدلال وتدب حيوية في ملامح يغشاها تحفظ حين الصمت!

بينما يرسمها لوحة فنية في خياله، التفتت تجاهه وصاحبهم يحكي، كأنها أحست به يراقبها في مكانه، رفعت نظارات الشمس الداكنة فوق رأسها نظرت إليه من تحت جفون مكحلة أسدلها الضياء شيئًا ما! على غير طبيعته لم يجفل، بل ظل محملقًا يتأمل، فمها الصغير ازدان برأيوان من شفاه رقيقة اكتست الأحمر القاني!

مرت برهة بها الكثير من السحر وحوار اللحظ، شرد تراوده خيالاته، رفع الكأس بيده يرشف منها محاولًا كبح لرق أفكاره. أما هي فقد أيقنت ما استعر في نفسه، أعادت نظارتها الشمسية فوق عينيها وداعت ألاملها بعض خصلات رفلت فوق

وجهاً واستدارت تسمع للرفاق.

وبعد شروده استفاق! عاد لينظر إليها فلم يجدها، جال بناظره، كل ما حوله بمكانه، ومن بالمكان لم يزل، أما هي فلا أثر!

قدّر أنها قد تكون حلقاً في بقطة، أو طيفاً تراءى له ثم فر!

يحدث له هذه الأيام أن يرى رحمة، لكن سريعاً ما يدرك أنه توهم رؤيتها في امرأة بسمتها، يزعجه ذلك كثيراً!

هل أصبحت رحمة شبحاً آخر يراود صوته ويؤرق نومه بعد أن كانت هي من تطرد أشباحه! هجرته بعدما كانت تأتيه متى وكيف أراد، تناغيه إن طلب، تغريه إن عزف، وتأجج ناره إن فترت.

الموسيقى رائقة راقصة، والطقس مشمس ممتع، والحزن حاضر مطبق!

قرر أن يذهب لقضاء حاجته، أشعل سيجارة صاعداً السلم الحجري المتثني إلى حيث «بار» يطل على المسبح من خلال نافذة خشبية كبيرة. يرتقي على مهل، تتردد في فضاء أفكار وأسئلة بينما تلتقط أذنيه اللحن الجميل، جذب انتباهه طائر مغرد احتل غصناً غير بعيد يأتي بحركات فكاهية راقصة كأنه يطرب للموسيقى!

طيور منروفيا كبشرها تتماهى في الألحان. النغمات هنا لها رونق يكاد يميزها ألواناً تتلبسها الحياة، حزينة أو سعيدة، كل شيء له موسيقى تستبج الأرواح والأجساد بغير عناء، حتى السكون له وقع رتيب خافت حياً، ويصرخ أحياناً.

تفاجأ حيث رفع رأسه ليراها تهبط درجات السلم في مواجهته، وقف لحظات، تبادلنا نظرات وابتسامات، رمفته وهي تعبره بنظرة مغزاها «أدركت شغفك وبيروق لي»!

أدار رأسه يتتبع سيرها، يتفحص تفصيلاتها، يتلسم عطرها، أدركت نظراته المتلصقة تتحسس

جسدها، تدغدغ أوثنتها، فألقت لها!
حدثته نفسه: هي إذا حقيقة! ليست طيفاً
يتلاعب بخيالي!

عاد إلى مكانه عند المسبح.
في أيامه الطويلة هذه أصبح كثير الشرود،
يستدعي عقله تفاصيل الذكريات قريبة وبعيدة.
يدرك كم هو وحيد في هذا العالم، يتساءل
كثيراً عن يكثرث لحاله، ماذا لو مات؟ ماذا لو
قتل؟ من يكثرث؟ من يفتقده؟
أبو عبد الله! وحيداً كلاوس!
أين رحمة!

تراوده تخيلات أنه ينسلخ من جسده روخاً شفافة
ترتقي! تطلق بعيداً تتصعد حتى أعطاف السماء،
ثم تدنو إلى صفحة المحيط لتنتقل بين الأمواج
وتغوص في الأعماق قبل أن تعود راضية إلى
سجن الجسد!

يالتك الشهور التي ملأت رحمة أركان حياته، لم
توحش وحدته أو يفكر فيما هو قادم!
فرضت عليه أن يحيا معها في اليوم ولليوم
فقط، تملأ حياته بشغفها الدائم به ولهفتها
عليه.

الغد مع رحمة امتداد لزمن في الحاضر الممتع، أو
تلهف لموعد ينتظر إشراقتها.

أما الآن وهو بلا رحمة، وحدته، وضبابية القادم
تؤرق ساعات يقظته وتحد أفق آماله بالغد.

تقرع رأسه مطرقة «لماذا أنا هنا»!

تذكر قول كلاوس «أقسى ما في الوحدة أن
يفرضها عليك من تحب»!

تفاجأ بها مرة أخرى، أفاق على مقدمها لتجلس
أمامه بكل سحر أوثنتها، هل هنا حقاً!

اختلف نظرته إلى حيث كانت بين رفاقها، ليست هناك!

إنها حفاً مائلة أمامه، يرى تفاصيل وجهها ويشم عطرها الفرنسي،

جاءته وفي يسراها كأس من نبيذ قان، ارتسمت بشفتيها ابتسامة واثقة!

مالت لتجلس فاقتربت منه حتى كادت تلامسه.

اتخذت مكانها ومدت يدها قائلة:

- مارسيلا!

تلقف يدها بتردد، لاحظ بريق الطلاء الأحمر الناصع بأظافرهما، ورد بإنجليزية متلعثمة: أهلاً، سعيد للقائك! لم أرك هنا من قبل؟

- نعم، هذا صحيح، لقد وصلت منذ يومين فقط، أنا طبيبة، جنّت في مهمة عمل قصيرة مع منظمة أطباء بلا حدود. وأنت؟

- أنا أقيم هنا منذ عام تقريباً، أعمل محاسباً في الشركة الصينية للأخشاب. من أي البلاد أنت؟

- أنا من رومانيا. أنت؟

- مصر، أنا مصري أمريكي!

- آه مصر! زرتها طفلة مع والدي، رأيت الأهرامات وأبحرنا في النيل حتى أسوان كانت رحلة ساحرة.

استغرقت عيناها الواسعتان، داكنتا الزرقا ناصعتا البياض!

ران صمت قطعه قائلة وهي ترشف مبتسمة من نبيذها الأحمر:

- أنت تحديق في وجهي!

تلعثم قائلاً:

- عذراً! إن عينيك جميلتان حفاً، زرقتهما نادرة ساحرة!

ضحكت في إطرء فوضعت أناملها تحت أنفها في خفر ثم قالت:

- شكراً لك! كثيرون يرون عينيّ جميلتين، وانت ترى أشياء أخرى أيضاً تعجبك!
ثم عادت لتضحك بدلال مستتر.
حارت نظراته فلم يجد لها موضعاً غير الأرض،
باغتته كلماتها التي فضحت تلصحه!
مالت بجذعها فدنت منه أكثر، اختلس نظرة إلى
مفرق النهدين، رفع ناظره إلى شفيتها وهي
تقول:

- لا عليك! أنا لاحظت كيف تنظر لي!
- رفع ناظره إلى عينيها مبتسماً في إذعان وقال:
- أنت امرأة رائعة الجمال مارسيلاً!
- إذا لماذا لم تأتي للتعرف عليّ؟
- لا أدري! ربما تخرجت!
- هل لديك صديقة؟
- لا، وانت؟
- حالياً لا. كنت متزوجة من أحدهم وانفصلنا،
عندي ابنة تصغرك قليلاً! أنت في مقتبل ثلاثينياتك
أليس كذلك؟
- ليس بالضبط! استحالة أن تكون لك ابنة
عشرينية!
- أنت تحب المجاملة!
- كلا أنت جميلة بالفعل!
- ابتسمت وارتشفت من كأس النبيذ وأردفت:
- يروق لي هذا الفندق جداً.
- إنه الأفخم في مروفيا.
- عادت شفاهها إلى كأسها من جديد، وضعت
الكأس على المائدة، قالت تحديق في عييه بنظرة
جريئة المغزى:
- إن منظر المحيط من غرفتي رائع حقاً، أتحب أن
ترى؟

وقف متجرّداً يحدق في الأفق عبر اللافذة.

رشف من كأس نبيذ في يمينه.
بالفعل يبدو المحيط رائغًا حقًا، الأفق يزداد
احمرارًا رويدًا رويدًا وقد بدأت الشمس رحلتها نحو
الأفق الآخر بالمعمورة.

ربما هو أقل توترًا، لكن شجنه ما زال قابغًا فوق
صدره.

فاجأه أن ولج عالمها!

مارسيلا، عنيفة، شبقة، متحكمة، تعرف ماذا تريد
وماذا تفعل، إيقاعها متسارع متقلب مفاجئ، في
بعض اللحظات عنيف مجترئ، وبالقطع حيوي مثير
ممتع!

إنه عالم متحد! شعر فيه بأنه المأمور، وفي بعض
لحظات نشوتها وانفعالها أحس أنه منتهك!
بصدره علامات من أظافرها وبشفاهه احمرارًا من
عنف القبل.

دفع النافذة على مهل، غزت رائحة المحيط
الحميمة

وجدانه، أغلق عينيه واستنهل بقدر ما يستطيع
صدره من هواء، أسبل جفنيه، فمسح الريح على
خده ورآها.

فوق صفحة الماء الساكن للغروب، تتراقص في
مرح كما اعتادها، ابتسامة ثغرها، لمعة أسنانها،
بريق عينيها.

كم يستبد به الشوق إليها وإلى دفء صدرها،
عبقها الأفريقي الآسر، لحظات الحنان التي تتلو
المتعة.

نظراتها البريئة المستجدية، حكاياها التي لا
تنتهي، مداعباتها الطفولية، كفاها الذي لا يكاد
يلفك يلمسه في كل موضع أي ما التقيا، كيف
تصفق للطعام، تأكل وتطعمه، تشاركه تلذذها
بكل شيء.

هي كل شيء على ما يرغب ويشتهي! في
عيني قلبه وبين ثلثها عقله هي الأقرب لكمال

الخلق على الفطرة.

خانها!

كيف!

وأين هي؟

لقد هجرته، لم يعد له غير هذا الخواء الذي يقوض أركانه ويعصف بقلبه، يفتقد فيها أنثى تحتويه بدفئتها، ترفعه وتمجد رجولته لا تتحداها، امرأة تُؤقره لا تأمره، أحب كيف تهمس باسمه حين ذروتها، سخرت له كيائها أياً فأسرته للأبد! بينما هو يحدق في اللاشيء، جاءت مارسيلا تتحسس شباب كتفيه وتفاصيل ظهره العاري براحتها، داعبت بأناملها حناياه وتفاصيله ثم أحاطت بذراعيها جذعه فضمت خصره بقوة والتصق جسدها اللدن الحار بجسده.

لحظات أغمض فيها عينيه مستمتعاً بدفع امرأة على جسد رجل. دارت حوله بنعومة تناغي بأظافرها خلايا جلده فيقشعر وتتفتح عيناه على ملامحها!

أراحت ذقنها على صدره وابتسمت تسأله بتدلل:

- كيف كان ذلك لك؟

- مذهل!

- جيد أنا أيضاً تفاجأت بك!

- ماذا تقصدين؟

- لا تسئ فهمي، أنت ممتاز لكنك حنون رقيق، كنت أظن الرجال العرب أكثر خشونة ورعونة، هكذا قيل لي!

- لا أدري شيئاً عن هذا!

- في بعض اللحظات تخيلت أنني أول امرأة في حياتك، ولحظات أخرى تصورت أنك محب مهجور أو مجروح، تلقائي أحياناً وغامض أحياناً. ممتع!

- ماذا!

- لا عليك، أنا لا يعليبي ما مر بحياتك فيما سبق،

لكني امرأة خبرت الحياة، وفي السرير تفتضح أشياء! كما تتعري الأجساد تتكشف النفوس وتنبري القلوب، ونحن النساء أعلم بالقلوب، جسديك حاضر هنا وقلبك غائب هناك! أما عقلك ففي شتات!

- قلبي خاو، ولا تشغلني امرأة أخرى!

- إن كنت تقول ذلك لترضييني فلا تكن ساذجًا! لقد أخذت منك ما أريد، وأنت كذلك! أمضينا وقتًا ممتعًا. كلانا حقق مبتغاه فلا تتحاذق!

قالتها وتركته لكي تغتسل.

لاحظها تتبختر عارية حتى اختفت خلف باب المرحاض، لاحظ أثر السنين على جسدها، الأثر الذي لم ير أو أنكر منذ ساعات قليلة! أحس أنه مبتذل قذر، وضع خائن! أطرق صاغرًا منهزمًا.

عندما انتهت، خرجت إليه في منشفة لفتها حول جسدها، جلست إلى جواره بطرف السرير، حيث أشعل سيجارته، أقبلت عليه فتنحى.

أدركت ما به، رقت لحاله بعد أن مزقت أقنعتة بسيف عبثية اللحظة، وضعته أمام مرآة نفسه ليطالع هشاشة تكوينه.

لم تغضب وطبعت قبلة على كتفه، ثم أخذت خده بكفها وأدارت وجهه لها، تحاشى أن تسحره زرقه عينيها من جديد.

قالت:

- اسمع! أنت مازلت صغيرًا والعمر يمر بأسرع مما تظن، قليل التفكير مثل كثيره، استمتع بقدر ما تستطيع، لا تحمل همًا لما مضى فلن يعود ولا يؤرقك غد فقد يأتي بما تريد، لن يهتم أحد لشجونك ولا لمعانتك، ألمك لك وحدك، الحياة لا تلين إلا للأقوياء، وما تملكه منها هو ما تمتعت به منها، فلا تكن غيبًا وتضيعها! اغتلمها ما دامت في يديك مثلما أنا بين يديك الآن!

جاءته كلماتها قاطعة صريحة متبجحة، بها من
منطق رحمة الكثير، تساءل كيف تلتقيان على
منوال واحد وقد اختلفت أقدارهما! تلذذ مارسيلا
باللحظة يدفعه اليأس وتلذذ رحمة بذات اللحظة
بجره الأمل!

نظر في محياها ملياً، خبا ذلك السحر الذي غزلته
النظرات الأولى بعدما ارتوى!

عندما يلتقي الغرباء وتتلاطم أمواج الرغبة،
يتكسر على شواطئ الأجساد المتلاحمة ألق
التلاقي الأول، فلا يبقى للشاطئ غير قليل أمواج
تنسحق وزبد تذرؤه رياح.

حقيق أن الموح دائماً قادم!

(24)

ببيت أبو عبد الله، جلسا لطاولة النرد، لكن
البرجي متشاغل منذ بداية السهرة بنقاش حاد مع
أبو حسين الذي يجلس غير بعيد يلعب الطرنيب مع
ثلاثة من الأصدقاء، تابع جانبًا من نقاشهما، أبو
حسين مقتنع بأن أيام «تيلور» معدودة؛ لأن أمريكا
لم تعد تريده «لأنو شايف حالو»، بينما يرى أبو عبد
الله أن تيلور سيبقى برغم أنف أمريكا!

كيف فعلت ذلك أيها الوغد؟ خنت منى والآن
رحمة!

لم أسع لذلك، لكن لم أكن لأقاوم، مارسيلا
جميلة جدًا! لم أستطع مقاومة رغبتها!
ضعيف!

تلوموني! أين هي رحمة! لقد اختفت! تلاشت!
هي تركتني! فمن خان من؟

هل هو أبو عبد الله فعلاً؟ يا لهذا الكهل
المتصابي!

ميمي قالت ذلك!

لا، لا، لا! ميمي قالت فقط «اسأل Papa!»

أنت تافه غبي! هو يفعل ما يشاء مع من تروق
له.

ولماذا رحمة؟

هل تريد له أن يقف صامتًا وأنت تتعدى على
ممتلكاته؟

ممتلكاته! هي إنسان لها حق في الاختيار
والحب!

أنت ساذج!

بل هو الساذج إذا ظن أنه يأخذها مني دون
عقاب! سأقتله!

فاجاه أبو عبد الله الذي التفت إليه خلال هدنة
مع أبو حسين سأل:

- «إيه وينك! زهرك!»

- هاه حاضر حاضر!

التقف الزهر والقاء.

حرك قطعة بطريقة غير محسوبة!

استغرب أبو عبد الله ما فعل، لكنه عاد والتفت

إلى أبو حسين قائلاً:

- إنت ما بتفهم ولا شي، لا بالنسوان ولا

بالسياسة، الأمريكان ما بدهم يزعطوه، هن اللي

جابه. هلا بيأدبوه بس! ما راح يصير شي.

لماذا لم تأت حتى الآن!

لماذا تركت العمل بمتجر أبو عبد الله؟ لقد مضى

أسبوعان! أسبوعان كاملان منذ عودتي، أكيد تعرف

أني قد عُدت.

بالتأكيد أخبرتها صديقاتها، لماذا تصرفت ميمي

بغموض عندما سألتها!

هل حدث لها مكروه؟

وجدت بديلاً!

بهذه السرعة! لم تستغرق الرحلة للإسكندرية

الوقت الكثير!

أيًا كان، أرجو أن تجد في الذي اختارته الخلاص

من مستقبل محتوم بالشقاء، مصيرها الليبيرى

القائم سيظل يحلق فوق رأسها مساء صباح.

كنت أظنها مختلفة.

كم أنت غبي فعلاً!

غبي! سترى ماذا سيفعل الغبي!

ماذا ستفعل؟

سأقتله!

تقتله! بعد كل ما فعل من أجلك!

لقد سلب مني أعز شيء في حياتي!

وهو، ألا يعز عليك؟

لن يكون أعز عليّ منها!

- وي! ليش بتطالع فيّ هايك! يا عمي العب تا

لخلص! إنت خسرت يا باشا!

(25)

دخلت في حلة أفريقية مزركشة، امرأة سمراء
سمينة قصيرة جاحظة العينين، تبدو لعين غير
خبيرة أنها تعاني من مشاكل بالغدة الدرقية!

جاء دخولها المترنح إلى المتجر مسرحيًا، سكت له
صخب الحضور، لها حضور ثقيل، بدت كأنها تعرف
الكل ومعروفة لدى الجميع عداها!

قابلها أبو عبد الله بترحاب مصطنع، استغرب جدًا
عندما ردت التحية لأبو عبد الله باللهجة المصرية!

عندما أدركت وجوده نظرت بتمعن في وجهه
بعينيها الجاحظتين، أحس وكان نظراتها تلسع
عينيه وجبهته، انقبض قلبه لرؤيتها وكأنها نذير
شؤم، ففرت نظراته بحثًا عن مألوف يطمئنه!

يجزم أنها منروفية لونا شكلاً وهيئة، لكن مصرية
اللهجة والسلوك!

جلست في مواجهة أبو عبد الله بالناحية
المقابلة من المكتب على كرسي سارعت إحداهن
بتقريبه لها على وجل، أناخت ووضعت حقيبة كبيرة
تحملها وهي لا تزال تتفحصه، كأنها تبحث عنه
في ذاكرتها.

خدعت عينيه أما عقله فلا! هي تشبه من حوله
لكن ما خلف عينيها أسرار وحكايا وروح خبيثة!
أطبقت على أحاسيسه بطاقة سلبية، استشعرها
قبلًا هنا، لكن أين ومتى؟

هي منال بائعة متجولة ومحتالة وبنت ليل
معتزلة وأيضًا عرافة الرئيس الليبيرى المفضلة!

تثرثر كثيرًا، تقرأ الكف والفتجان والطاقع وتحادث
الأموات، تشكو من كل شيء، تسب وتلتقد
الجميع ما عدا الرئيس، جاءت إلى منروفيا قبل
خمسة وعشرين عامًا قادمة من أهدجان، تزوجت
من أحد قادة المليشيات الليبيريين ذائع الصيت
في أواخر الثمانينيات، لكنه اغتيل، فورثت عنه
مكانة اجتماعية استغلتها جيدًا!

بعد توليه، كرمها الرئيس تيلور وأصحت ذات شأن وتقدير عند كثير من مقاتلي المليشيات الحكومية الذين يعتقدون بقدراتها كساحرة، وأن بطلهم الفقيد يحدثهم من خلالها، مشهورة باسم أم المقاتلين! أقنعت الجميع بأنها تستشرف المستقبل حتى الرئيس تيلور يظن أنها تكشف ستر الغيب حقًا!

بعد الترحيب، قدمه لها أبو عبد الله قائلاً:

- انتبهي هايدي الحلو ابن بلدك.

بمصريته الركيكة اتبع:

- بس هو من إسكندرية.

ردت منال بتنمر وبلكنة بها مسحة لبنانية:

- آاه عرفته، بيشغل عند كلاوس في شركة

الخشب!

لم يستسغ عبارة «بيشغل عند كلاوس» وكأنه

خادمة المنزل! بادر قائلاً بتردد امتزج بامتعاض:

- تشرفنا!

- أهلاً يا حبيبي، ما تقلقش راح تتزوج عن قريب!

قالتها واستدارت تتحدث مع أبو عبد الله تستحته

على التدخل لدى صديق لبناني يعمل بتجارة

الإكسسوار الحريري كي يسقط عنها دينها أو

يؤجله، فهي فقيرة معدمة مريضة وتعول أيتامًا

في منروفيا وفي مصر!

ذكرت الزواج! لماذا قالت ذلك؟ هل تعلم شيئاً!

حكى لها أبو عبد الله علي!

يا له من ماكر، يدعي أنه صديقي ويحك

المؤامرات!

لكن أبو عبد الله ذاته لا يتحدث كثيرًا في هذا

الأمر منذ فترة!

لذا فهو ماكر!

لا، أغلب الظن أنها لمحت أنه لا يلبس في

أصابعه خاتمًا!

أبله!

تعجب لأمرها، هي قطعًا شخص غير مريح!

قبل أن يغادر مخدعها، أخبرته مارسيليا أنها ستذهب لزيارة قرية في شمالي منروفيا لتطبيب من تستطيع وتعود خلال يومين، ودعته للعشاء وتمضية بعض الوقت معها قبل أن تغادر نهاية الأسبوع، أو ما إيجابًا لكنه قرر قاطعًا أنه لن يراها مجددًا، فبرغم المتعة واللذة لا شيء آخر على صدرها له!

غاضب! لماذا؟

ربما هي نظرات العرافة اللعينة!

فار الدم في عروقه وسرت رعدة في أطرافه، لحظة الغضب عادت لترسم وجه رحمة في مخيلته تجيبه صارخة على السؤال!

تذكر فجأة حين قالت له إن المتمردين يقتحمون القرى فيبيدون أهلها، ترى هل اقتحم المتمردون قريتها! بالتأكيد لو حدث ذلك لكان قد علم، لا بد من أن يسأل البرجي عن رحمة، لا بد أن يواجهه! لسبب ما أحس أنها تقف خلفه! التفت لم يجد أحدًا! زفر حانقًا وفرك فروة رأسه!

رمقه البرجي بارتياب!

واستفاق على صوت العرافة الحاد تسأل، وقد لاحظت هي أيضًا توتره:

- وإنت ملين في إسكلدرية؟

أجابها، فقالت:

- أنا أعرف في الإسكلدرية كذا وكذا وفلان وفلان.

وبينما هي تثثر، تذكر أنه رآها في مناسبة سبقت سفره إلى مصر. كان يزور وحيدًا بمكتبه في السفارة، حيث جلسا يحتسيان القهوة التركية ويتحدثان عن الموسيقى والشعر كما جرت عادتهما، حين دخلت ملال هذه في رداء قائم

ليس منروفياً،- حيث وحيداً بحرارة وبتأدب مبالغ فيه ثم جلست بالكروسي الآخر بطرف المكتب أمامه، تجاهلته آن ذاك ولم تلق له بالاً، لكن يذكر أنه شعر بنفس إحساسه السيئ هذا!

استرجع تفاصيل اللقاء حيث جاءت تطلب تأشيرة دخول لشخص ما يعمل في الرئاسة الليبيرية، قدم لها وحيد فنجان على سبيل الدعابة، فتلقفته بحماس وتنبأت له أنه سيخسر مالا قريباً لكنه سيكسب أضعافه خلال سنوات قليلة قادمة، وأنه سيلتقي بفتاة رائعة الجمال تنتظره عند الناحية الثانية من شاطئ تراه في الفنجان، وأشارت إلى قعر الفنجان بخصرها المتورم! سألتها وحيد عن اسم الفتاة وأي شاطئ وهل هي جميلة الوجه أم القوام، فضحكت وقالت:
- الاثنان!

بدون رنين ضحكاتهما في مسامعه لا مذاق للعيش البائس في كل يوم تشرق شمس على مأساة هذه المدينة وساكنيها، بدون لحظات تلاقي نظراتهما لا وقع لموسيقى في قلبه، بدون تأمله في قسمت وجهها واختلاجاته تتماهى كل المرائي، بدون ثرثرتها لا دفء في صدره، أيامه بغير وجودها في التفاصيل لا تنم عن حياة ولا تنبئ بأي أمل، هي ملكوت حالم وعالم آمن لكيانه المترنح بين الأشباح، لا يدري كيف يتأجج حبها في حطب صدره يوماً بعد يوم فلا هو يخذم أو يترمد.

ما العيب في أن قد تعلق قلبه بها؟
أبو عبد الله قد لا يعجبه ذلك، سيزوجك بشابة لبنانية جميلة من قرابته!
أكد شعر بالغضب لاختياري تلك المروفية المهمشة المعدمة!

قد يرق لحالي فيعيدها إليّ أو يدلني عليها!

ساذج.

هو وحده من سيجيب، هو يعرف كل شيء في
منروفيا، واكيد هو يعلم اين هي؟

(26)

اشتد غيظه من وليام السقاء، فأمره أن يذهب
وآلا يعود! دلاؤه شديدة الاتساع والمياه التي
يحضرها لها رائحة عطنة، هذا بخلاف أن قدميه
الحافيتين تتركان آثارًا ذهابًا وإيابًا من الباب حتى
الحمام!

استجداه وليام أن يسامحه لكنه لم يقبل ونهره،
لوهلة أحس بالعظمة والتحكم فكلما زاد التوسل
زاد عناده وإصراره على الإقصاء! أحال السقاء
نظره إلى عمر الخادم ليعينه على سيده، لكن عمر
قابل نظراته بوجه عابس متأنف!

فما كان من السقاء المسكين إلا أن سجد بين
قدميه باكيًا!

استفاق من صلف غضبه على رأس الرجل تقترب
من قدميه في هوان! هاله أن يذل المسكين له
حتى السجود! فتراجع خطوة ثم مال عليه وأخذ
بذراعه فأقام أوده، نظر في وجهه البائس - أنه
ضميره على التشدد والتعالي - أراد في لحظة ما
أن يعتذر لكنه استعاد رباطة جأشه، أخبره بحزم
بأنه سيسامحه هذه المرة فقط لكن عليه غسل
دلائه وقدميه جيدًا قبل إحضار المياه للمنزل!

بش المسكين ولمعت ثناياه، ذهب حامدًا ممتنًا
فما يتلقاه منه من أجر زهيد أكثر مما قد يدفعه
له آخرون مقابل حمله من مياه عطنة!

بالأمس اكتشف مصادفة أن عمر يأكل
«المايونيز» حقًا من منتصف الخُب حتى لا يظهر
بجنبات الحق أنه يأخذ منه! هو ليس مولعًا
بالمايونيز ولا يمانع أن يأخذ عمر ما يسد جوعه،
لكن ساءه أن لم يستأذنه أولًا! عندما سأله، نفى
الفتى حالفًا «بالله والله» أنه لم يفعلها! فاغتاز
لإصراره على الكذب!

لما قال له إنه لم يعد يأتمله وأنه سيبحث عن

غيره، أقر الفتى بفعلته وتأسف متعللاً بالجوع! يعتزم أن يشتري الشهر التالي ثُقين، يكتب على أحدهما «Omar» حتى يعرف الفتى أن هذا له فيأكل منه كما يريد!

عمر كوليبالي شاب في مقتبل العمر هاجر وأسرته من مسقط رأسه في دولة مالي منذ سنوات واستقر في ليبيريا -التي تعيش حرباً- بحثاً عن حياة أفضل!

يبدو له عمر فتياً ذكياً مقبلاً على الحياة في كل وقت، يذكره أمله في مستقبل أفضل برحمة.

يرى عمر أن طريقه للمجد والمال هو السفر إلى أوروبا! حتى ولو عن طريق البحر بكل ما فيه من أخطار! يدل الفتى على طموحه بنجاح كثير من الماليين والأفارقة في تحقيق حلم الوصول لشواطئ أوروبا!

لا يجد هو حرباً في التفلسف مع عمر وإسداء النصح له حول الكيفية المثلى لتحقيق غاياته والمضي في مسار حياته بخطى عملية جادة دون اللجوء للمغامرة بحياته!

أراد أن يفاجئ الفتى بأن يهديه لباساً رياضياً وحذاءً جديداً للعب كرة القدم بعد أن أراه عمر أن حذائه اهترأ!

عندما سأل البرجي من أين يمكن أن يشتري الحذاء للفتى، نصحه أبو عبد الله أن يعطي للغريب ولا يعطي لمن يعمل لديه حتى لا يستمرئ الأخذ من ماله دون حق، والأفضل أن يعطيه المال على سبيل القرض ويخصمه من أجرته، فهكذا يظل مديناً له.

خرج إلى الشرفة، أكثر البيوت معتمة وبعضها مضيء، فكر أنه يستأجر عمر بما قيمته خمسين دولاراً شهرياً، بينما يكتري الساعات الست من الكهرباء يومياً في مقابل ثلاثمائة دولار شهرياً

لتاجر لبناني يضع مولداً كهربياً ضخماً في غرفة عليها حرس بالبنائة المقابلة!

يصدر عن المولد ضوضاء أرقته لليال عدة، لكنه اعتادها تدريجياً حتى صارت «ضوضاء بيضاء» تساعده على النوم!

فوق فضاء الشارع غابة من الأسلاك المتشابكة تصل من المولد -كثير الأعطال- حتى بيوت أصحاب الحظوة! يتخيل دائماً أن هذا المولد وحش شره، وأن الأسلاك هي أذعه التي تمتد وتتشعب لتمص دماء من دعتهم الحاجة لشراء الكهرباء بهذا السعر المبالغ فيه!

منذ أيام قليلة لما عاد من جلسة سمر في منزل أبو حسين -تاجر قطع غيار السيارات- قرر إعداد قذح من الشاي، وما إن وضع المياه للتسخين فوق الموقد الكهربائي حتى انقطعت الكهرباء عن المنزل! تعجب لذلك! فصوت المولد المزمجر يدل على أنه ما زال يعمل، إذًا فلماذا انقطعت الكهرباء!

خرج إلى الشرفة نظر إلى أسفل كان الحارس في مكانه المعتاد بصحبة أحدهم، ناداه لم يستجب! فصرخ: «زونجا!» انتفض الرجل مشرباً ملوفاً، طلب منه أن يتحرى عن السبب وراء انقطاع التيار!

عاد يضيء بعض الشموع ليهتدي بنورها، لاحظ باعوضة تمر أمام عينيه في ضوء الشمعة، لم يتعامل معها «بالقلع» الأول، عضته بعضهن ولم يصب بالملايا فلم يعد يخاف مصاصي الدماء!

لم تمض دقائق حتى عادت الكهرباء! أعد الشاي وخرج للشرفة، لاحظ أن منازل وغرفاً لفقراء بالشارع كانت مضيئة وأعتمت!

علم في وقت لاحق أن زونجا يبيع كهرباء من الخط الممدود له لبيوت الفقراء في الجوار لقاء مبلغ زهيد!

بنيخ سُلْقًا على الجدار ويصعد درجاته إلى السلك، فيكشط منه بشفرة الحلاقة بحرفية، ومن ثم يقوم بتعليق أسلاك رفيعة فوقه ليبيع ما ليس له!

لم يغضب كثيرًا عندما وشى الواشي بزونجا بل ابتسم! يسرق زونجا ليضاء مصباح في غرفة من غرف المُعوزين، فإن زاد جشع زونجا انفصلت الكهرباء عن الكل وعاش الجميع في الظلام!

الآن يرى الأشياء بجلاء، فمنروفيا شديدة الوضوح، لا تحتل التأويل، الواقع فاضح لا يكذب ولا يتجمل، قد يبالغ الناس هنا في سرد قصص معاناتهم جلبًا لمنفعة أو درءًا لضرر، لكن على أي حال من يستطيع أن يقول إن في الجوع والحرمان والخوف مبالغات! هي مشاعر خاصة تنحو بكل فرد فيما يدركه، ليعبر عنه كيف استطاع.

الجوع الذي يهتك الأحشاء لا يشعر به حقًا غير هذا الذي يستجدي الإطعام، ما يمكن أن يكابده أحد ما من عوارض متجلدًا بصبر، قد تقشعر لها جلود آخرين وتنهار نفوسهم، من ذا يزايد على رجفة بدن إن آن الخوف ليلاً، أو اعتصر الحياة عورًا نهارًا!!

تظل الحقيقة هي الواقع الصامت المرسوم في وجوه الثكالى مطلة من عيون أطفال الرجفة، وتظل منروفيا مدينة لا تخفي خوفها ولا فقرها ولا عهرها، فسيفاء بلورية من كل تلك المشاعر تتوهج تحت شمس الغرب الأفريقي الأبدية، كل شيء جلي، الناس فطريون في التعبير عن أحاسيسهم خاصة تلك المرجفة!

هو أيضًا يحب أن يتسقى ومشاعره، لا بد أن يطلق غضبه ليتحرر!

**

(27)

يقوم من سريره، لا يفكر إلا في الانتقام، ترتعش أطرافه من اختمار الفكرة المجنونة في نفسه، لا يطيق هذا الشعور المضطرب الذي يشعل كيانه! لا بد أن ينفذ الآن!

يخرج من شقته كالمجذوب، عيناه حمراوان زائغتان، حقه يدفعه، يلقي سيجارته على السلم نازلاً، يضيق ذرعاً بالمفاتيح، يقذف بها عرض الحائط، تصلص، ينتبه! يلتقطها.

تتسابق خطواته على الدرج الأخير، توقف بالقرب من المدخل، يسمع شخير زونجا نائماً في غرفته، هذا جيد!

لا أحد بالشارع، ما زال الوقت مبكراً جداً، لم تطل شمس اليوم بعد، لكن يحس بحرارة الدم تتدفق في عروقه، يهم في الطريق إلى حيث بيت البرجي، يتلفت حوله، يندى جبينه بالعرق، صدره يصعد بأنفاسه المتلاحقة، يحاول بكل جهده السيطرة على أعصابه، ما زالت أطرافه ترتجف، حتى أقدامه التي تطوي الطريق بسرعة ترتجف، يشعر أنه إذا توقف سيسقط من فرط توتره! لا بد أن ينفذ الآن!

سيقرع الباب، يفتح له البرجي، سيسأله البرجي ماذا أتى بك مبكراً؟ سيتحجج بأنه لم يستطع النوم فجاء يعاونه في إعداد الفطور! سيجلس، يتحين الفرصة، سيستخدم سكين المطبخ، يعرف شكلها جيداً طويلة وحادة، ستفي بالغرض، سيسدد له طعنة ثم يسحبه إلى سريره ويجرده من ملابسه، هكذا سيبدو أن من قتله واحدة ممن يتزوجهن ليلاً. إذا أصابت الدماء يديه سيغسلها ويغسل السكين، وإذا تلطخت ملابسه بدم البرجي سيخلعها ويلبس من ملابسه، ويضع الملابس الملتطخة بالدماء في كيس بلاستيكي ثم يحرقها عندما يعود! سيحاول ألا تتناثر الدماء في المكان،

يجب أن يمسح أي دم غير الذي سيسيل على السرير، لا بد أن يتذكر ذلك! لو قاوم أو تناثرت دماؤه سيسرق شيئاً من المنزل ويخفيه في غرفة زونجا قبل أن يصحو!

هكذا فكر وخطط! سينال البرجي جزاءه لخيانته! يتوقف لحظات قبل أن يصعد السلم، صامت مظلم، يسمع دقات قلبه بوضوح، نظر إلى الأعلى، النور قادم فقط من حيث يسكن البرجي، يصعد على مهل، يحاذر أن يحدث صوتاً.

ما إن يصل حتى باب الشقة، يجده موارباً. يسمع صوت البرجي يقرأ القرآن، يدفع الباب برفق، يختلس نظرة، أبو عبد الله يصلي في صالة المنزل في مكانه المعتاد، يدخل بهدوء، يقف في مكانه يراقبه.

يلمحه البرجي، لكنه يتابع صلاته بأمان، يركع يستقيم، ثم يسجد.

لا بد أن يستغل الفرصة، يذهب إلى المطبخ يستل السكين من الجارور في هدوء، يخرج إلى الصالة، لا يزال البرجي ساجداً، يقف خلفه، لا بد أن ينفذ، تجحظ عيناه بالشر، يعتصر مقبض السكين بكلتا يديه، يستجمع كل قوته في ساعديه، ينظر إلى ظهر الساجد، يسمع تسبيحه، يهوي بها بكل قوته.

يخترق النصل ظهره إلى قلبه!

ملقى في سريره يتصبب العرق من كل خلايا جلده، ما زال يسمع نبضات قلبه المتسارعة.

جهان! حقير!

لا لا، أنا لم أفعل شيئاً، لم أفعل شيئاً، أنا لم أقتله، لم أقتله!

(28)

حسناً! لم أعد غاضباً.
وماذا عن رحمة!
رحمة! لم أعد أكثر!
هذا جنون!

هذه الرحمة نتاج هذا الواقع البائس، موشومة
بنشأتها المشوهة! هي لمن يؤويها كالقطة
تتمسح بأقدام من يطعمها وتنسأه إذا تغافل
عنها أو وجدت في غيره غايتها! هي أقرت بذلك،
لم تستح، قصت عليّ حياتها بكل تفاصيلها، هي
ذكرت أن تجربتها الأولى في الحب كانت مع شاب
لبناني ولم تكن قد جاوزت حينها الثانية عشرة من
عمرها! فخورة أنها ومنذ ذلك الحين لم تعاشر غير
الأجانب! يا له من تاريخ مشرف!

تباً لك! هي لم تناور، لم تتجمل، لم تتلاعب
بمشاعرك، أخبرتك بمكنون قلبها وأنت أخفيت عنها
حقيقتك.

حقيقتي وما حقيقتي! ولماذا أضع بين يديها كل
الحقيقة! ثم إن الحقيقة التي تكثر لها وتبحث
عنها هي لحظة العيش الآنية، أما الحقيقة التي
أبحث عنها أنا الآن فهي الموت!

ولد الإنسان للموت، العيش للفناء والأرض إلى
زوال، الموت هو الحقيقة الوحيدة الساطعة منذ
الأزل!

إذا لماذا ترهبه؟

أنا لا أخشاه!

إذا هي حقيقتها الحياة، وحقيقتك أنت الموت،
فعلام تلتقيان؟

عاد شبح الوحدة يطارد أيامه بقطة ومناقاً على
الرغم أنه يرى الصحاب اللبنانيين كل مساء تقريباً
حول جلسات الرد و«الطربيب»، توطدت علاقته

باحمد وحيد واكتسب ثقة كلاوس إلى حد كبير،
عالمه المنروفي أصبح أكثر ترتيبًا وتحديدًا لكنه
متململ جافل! يفتقدوها! توغّشها، لا أحد يخبره
شيئًا عنها، في عيون وإجابات صديقاتها من
عاملات متجر البرجي كثير من الغموض عندما يُجِبُّ
أسئلته غير المباشرة بشأن اختفائها أو هكذا ظن!
هل اختطفت؟ هل ماتت؟ قر في ضميره أنها
هجرته.

هل من المنطق لو هجرتني، تختفي تمامًا!
لو أرادت أن تنهي العلاقة كان عليها ببساطة أن
تخبرني فينتهي كل شيء.
بالطبع لن أجبرها على حبي!
لا! هناك سر يجهله.

لا أستطيع أن أفتح البرجي بشأنها، أكيد
سيسفه من مشاعري، سيقول إنها معدمة فقيرة
غير متعلمة وليست على دينك ولا مستقبل لك
معها فانصرف عنها!

منطق أبوي متوقع من أبو عبد الله، لكن ليس
كل ما يقوله البرجي حق، إنما هي وجهة نظر! لا
لن أسأله!

إن لم تظهر حتى نهاية الأسبوع سأسأله
بالشاطئ يوم الأحد!

لا يرى في المنام كثيرًا، لكن أخيرًا وبعد غياب
رأى غزالًا ليلة أمس كان يغني طروبًا شجيًا في
جنة ساحرة، كان القمر قريبًا جدًا يستمع له، كما
استغرب أن رأى منى وقد جلست قريبًا على عشب
أرجواني يتمايل ويصدر عنه موسيقى، نظرت
إليه مبتسمة، عيناها واسعتان آسرتان وأهدابها
طويلة مكحلة، وجهها مضيء بغرابة! شعرها
الأسود فاحم كثيف ينسدل أجعد لامعًا طويلًا
مُسربلاً كتفيها وظهرها وصدرها، يسبح فوق
الجسد المرمي العاري ليتهدل فوق الأرض

منسجماً مع العشب الموسيقي، جسدها صارخ
الفتنة لا يحجبه عن ناظره غير شعرها وورقة توت
كبيرة تشع كأنها الزبرجد المنير، تزين ما لم يخفه
الشعر من مفرق الفخذين، رفعت رأسها وأشاحت
ناحيته ونادته أن اقترب! شهق وأفاق!

قالت له إنها تحبه! فهل ما حملته له ضر أم
نفع؟ أيتها أم أنه لا يفقه كنه ذلك الإحساس
المبهم الذي يموج بداخله!
عاد يتساءل: هل الحب قيمة تدوم أم هو مجرد
عابر في زمن، هل الحب هش لدرجة التلاشي؟
إذا هو يتلاشى لماذا يترك كل هذا الألم!
الحب في ضميره عاطفة مجهولة لا يستطيع أن
يبلور حكماً حولها!

بدعوى حبها له عاشت أمه سجيناً حزينة، ولأجل
السبب ذاته عاش أبوه منفصلاً صامتاً في شرفته،
لو كان الحب قيداً وشقاءً فلماذا يسعى إليه
الجميع، لو كان الحب قيداً وشقاءً فما هذا الذي
بينه وبين رحمة! إنه سعادة بغير حدود، لو كان
الحب صدقاً فلماذا لا يدوم!
وقع بينه وبين منى حب لكن لم يدم، أيدوم ما
في قلبه لرحمة؟ هذا الحب مؤلم!

تذكر أنه كثيراً ما وقف مُنزويًا في أوقات
الفسحة ليراقبها دون أن يتقدم ويخبرها باسمه،
تلمحه فيتشأغل! حبه الأول بالمدرسة الإعدادية،
عراقية واسمها شهرزاد، كثيراً ما حلم بها في
ذلك الوقت، رآها في منتهى الجمال والرقّة،
تتحرك دائماً كالفراشة، كل أقرانه من الصبية
معجبون بها للون عينيها المائل للخضرة، وشعرها
الحريري الطويل الذي يتطاير مع النسيم عندما
تركض، ويتهدل حريرياً حتى خصرها عندما تسكن،
زميلاتنا الأخريات شعورهن أقصر وأجعد، في يوم

مرت به وابتسمت، خفق قلبه بشدة!

على عكس طبيعته المنسحبة انضم لفريق الموسيقى، آلتة هي المثلث الرنان، أما هي فكانت ماهرة في العزف على «الإكسليفون»، ظن أن تزاملهما في الجوقة المدرسية قد يفتح مجالاً لحديث بينهما، لكن لم يتجاسر قط على مفاتها بما يعتمل في صدره تجاهها.

ظلت النظرات المترددة بينهما تنسج أحلامه، تخيل أنه يحدثها وأنها سيكبران ويتزوجها، لم يستطع أن يكبح خياله عن كل مشاهد الحب والحميمية بينهما، كيف يضمها ويقبلها وتمرح أصابعه في مرج خصائلها وعلى جسدها الغض.

ظلت شهرزاد هي الفتاة الحلم، الصورة التي قاس عليها كل من مررن في حياته عبارات بالصدفة في شارع أو مقهى أو زاملهن في دراسة، ظلت هكذا إلى أن تلاشت! ثم اجتاحتها منى وفرضت نفسها على خياله وذهبت أيضًا، الآن تأسر نفسه رحمة!

أين هي شهرزاد!

تذكر الأنغام الجميلة التي كانت تصدر عن عازف «البيانولا» المار في الشارع حيث قطن في الإسكندرية، ما إن يسمع الألحان المكررة في نفس الموعد من كل أسبوع يسرع إلى الشرفة ويتعلق بحددها ويشرب بعنقه ليراقب العازف بزبه المبهج وهو يبتسم وينحني لجميع من يلقون له بعملات معدنية في «كوز» نحاسي يضعه أمامه. يدير ناظره إلى أبيه فيبتسم له من مجلسه بكرسيه المعتاد، يمد ساقه ليضع يده في جيبه فيخرج له عملة معدنية، يتلقفها هو بكل حماس، يلقيها، يلتقطها عازف البيانولا، ويلوح له شاكرًا مبتسمًا، تمر دقائق ثم بهم العازف بالمسير، يختفي، يحرص هو على الإنصات للأنغام إلى أن تتلاشى، ويعود «راديو» أبيه وصخب الشارع

يسيطران على مسامعه، كان شيئاً لم يكن، ولم
تمر الآلة الساحرة من هنا!

قهقهات وسمر الأصدقاء هنا يذكره بالمقاهي
الصاخبة التي كان يمر بها ناشئاً، وكذلك مجالس
الأقرباء حين يزورهم حيث اعتاد أن يقبع في مكانه
يلاحظ ويختلس النظر إلى تلك الوجوه السعيدة
الضاحكة، كان يميز الرضا والحبور الحقيقي في
الملامح والأصوات التي تسجلها عيناه وأذناه في
الأماكن حوله، في الطريق، في المدرسة، في
محيط العائلة.

الابتسامات النضرة والقهقهات العالية دائماً ما
تثير تساؤلات في نفسه، كيف يضحكون هكذا!
لماذا؟ لم لا تضحك أمه! لماذا لا يقهقه أبوه!
تساءل عن ذلك البرود الثقيل الذي يسربل أرجاء
المنزل في كل الأوقات! يرى الحب سجيناً في
نظرات عيونهما تجاهه، كما يرى هوة سحيقة
بينهما إذا تحادتا فإما صقيع أو عواصف ثلجية!
بين باب الشرفة التي هي ملجأ أبيه الآمن وبين
سرير أمه في صدر غرفة النوم حيث حبست نفسها
معظم الأوقات. النفور خط مستقيم يعبر الصالة،
أحياناً تعمد الوقوف في منتصف المسافة بينهما
فيلفت أنظارهما إليه، لكن تتحاشى نظراتهما
الحائرة أن تلتقي حتى على عتاب!

انفرد بنفسه عدة مرات حاول أن يقهقه! كررها
بعدة أساليب، اغتبط شيئاً ما لسفاهة ما يفعل!
لكن لم يشعر بسعادة حقيقية ثم ملّ تكرار ذلك
لسخفه! حتى النكات التي كانت تتلقاها مسامعه
بتركيز شديد لم تثر لديه ذلك الإحساس المقهقه
الذي لم يجربه يوماً حتى وقته هذا وهو يجالس
المقهقهين!

منذ ورد هذا العالم الملروفي، دائماً يجد شخوصاً
حوله تفتح حياته علوة أو برضائه، لكن إحساس
الوحدة وإن قل ما زال حاضراً دائماً، لم تهدده إلا

رحمة! كم يشتاق إلى رؤية وسماع ضحكاتنا،
 يتمنى سماع ثرثرتها، يحنق لغيابها، يود لو طرق
 كل الأبواب بابًا بابًا بحثًا عنها، لكنه لا يجروا! يغيظه
 تمثل طيفها أمامه في بعض الأوقات وانتظاره
 الدائم أن تطرق الباب فيفتحه لتشرق على وجهه
 أساريرها!

الحنن المتسلط على نفسه ويرتج في أرجاء
 صدره يعرفه جيدًا، لكنه يأتيه اليوم أكثر ثقلًا
 وأحلك لونًا، طفق حياته يحار فيه فلا فرار منه،
 دائمًا ما يعرف الحزن السبيل إلى أقداره، رحمة
 له مرفأ وفنار يهدى العمر الضال في بحار اليأس،
 لكن أين السبيل إليها! الليل حالك والرؤى يحجبها
 ضباب من مجهول.

تسللت دموعات ذرفتھا روحه إلى ما بين الأجنان
 والمقل، القلب قفر والذكرى أشواك والعشق
 قيظ يصليه، في هذا المكان الغريب المعذب هي
 واحة لحنينه، أمنياته بلا رحمة رمال تتسلل من بين
 أصابعه، الحزن سجان ظالم يلهب وجوده بسياط
 الوحشة.

عالمه بلا رحمة، تيه واسع كئيب، يكاد ينفجر
 صارخًا، لم يتمن في حياته شيئًا كما يتمنى رؤيتها
 من جديد. تدحرجت فوق صدغه الدمعة التي
 تعلقت بأهدابه وتلتها دموعات سقطت في فراغ
 وحدته.

**

لاحظ أنه لا يستحسن إحساسه المتزايد بالكبرياء
 في تعاملاته مع الليبيريين في الشركة أو في
 المنزل أو في الشارع، لا يريد أن يكون كلاوس
 آخر!

يحاول بوعي السيطرة على نزوع نفسه الضعيفة
 للغرور، لكن أحيانًا يفرض عليه موقف في العمل
 أو في الشارع أن يعنف وينهر! ما يؤنب ضميره
 هو أنه أصبح يستمرئ إحساسه بالسطوة على
 هؤلاء البسطاء!

قرر أن يعاقب نفسه على كبريائه، فلا يطعم مما أعدته له الحليبة هذا المساء، وأهدى عشاءه لعمر الذي ضحك فرحًا وتلقفه بسعادة بالغة! واستأذنه أن يذهب بالطعام لأهله فيشاركهم فيه، فأذن له! من عادة عمر أن ينتظر فراغه من طعامه يوميًا حتى يأكل ما تبقى، كان يشعر بالفتى يغتاض حين تأتبه رحمة لتشاركه الطعام، فهي لا تترك شيئًا على المائدة!

ساءلته نفسه وهو يتابع عمر يركض خارجًا بالطعام، كيف يفرح كل هذا الفرح بوجبة طعام! إنها مجرد وجبة طعام مهما كان مذاقها أو جودتها!

يا للبؤس! يراه الآن في الأعين بجلاء لم يعد يرى التحدي ولا القسوة في منحى الحياة هنا، يميز علامات استفهام تدور فوق الرؤوس في فلك مطلق لا تنتظر إجابات، خطوات تتنقل بخفة وحذر، تحركات عفوية تنبئ بتردد مشوب بانتهازية، لا يرى الآن في عيونهم ما ظنه في البداية شزرًا، بل يرى القلق والريبة تسكن هذه الوجوه المتعبة، إنهم يتربصون به لكنه تربص الثعالب الجائعة التي تنتظر فراغ الأسد من طعامه لتتكالب على ما تبقى والفتات!

غوغاء لا مناص لهم، الحياة تدرس أعمارهم وأرزاقهم يتلقفون أي شيء يصلهم بيد من العوز المهين.

طها لنفسه شيئًا من أرز، أفرغه في صحن بلاستيكي صغير غير الذي يأكل فيه عادة، حمل صحن الأرز الساخن خارجًا إلى صالة الطعام، قبل أن يجلس إلى الطاولة توقف قليلاً، فكر ثم قرر أن يجلس القرفصاء إلى جانب الكرسي على الأرض يأكل من صحنه الصغير بأصابعه كما يرى الفقراء هنا يتحلقون حول صحن متهافتين.

عندما وضع ما حمل بين أنامله من أرز في فمه

غص حلقه وازدرد طعامه بصعوبة، دمتت عيناه لما
أحس بالهوان!

لم يتقبل الفقر المذل ولو لحظات، ألمه ذلك
كثيرًا فلم يأكل، هب واقفًا ووضع الصحن فوق
الطاولة القريبة. عافت نفسه الطعام، ألقى
بجسده فوق الأريكة القريبة وأشعل سيجاره
نفث منها وتأملها متعجبًا لحاله، ماذا لو فُرض
عليه الجوع قهْرًا كحال ملايين البشر، أكان يعاف
الطعام! تبًا للمترفين!

إن غير بطنه بطون خاوية لا تفكر في عزة
وهوان مع قرصة الجوع وغير عينيه عيون زائغة
تفرح إذا ما أصابت صحنه ذا!

(29)

بدا له البرجي في منتهى الحماسة، طلب منه ارتداء حلته الأفريقية الزرقاء! تلك الحلة التي فرضها عليه فرضاً عندما جاء إلى المتجر صديقه توما الخياط المسن الذي يخيط له ملابس أفريقية زاهية يرتديها البرجي من آن لآخر، لم ترق له الفكرة، لكن أبو عبد الله أصر أن يقف للخياط الباسم، فأخذ قياساته مستبشراً، بينما تضاحكت من تحرجه ميمي وفتيات المتجر!

خاط له توما من قماش أزرق لامع قميصاً مطرزاً بإطار ذهبي وسروالاً فضفاضاً في يومين!

لم يلبسها منذ تسلمها، على الرغم من أنه يستغرب نفسه في اللباس الأفريقي لكن الحقيقة أنه يروق له، يشعره بشيء من انتماء للمكان! بالتأكيد سيروق مظهره الأفريقي لرحمة! تعليمات البرجي واضحة «ارتد الحلة الأفريقية وسأمر عليك لتصحبني إلى الحسينية في تمام السادسة!»

تردد لكن لم يستطع الاعتذار. عندما خرج من البناية في الموعد المحدد، وجد البرجي ينتظره في «تاكسي» أمام الباب، يبدو أن السائق يعرف أبو عبد الله أيضاً فقد كان يخاطبه بـ Papa! لاحظ بصدر السيارة جهاز CD Player يشع أنواراً ويصدح بألحان أفريقية بهيجة، الجهاز الحديث لا يتناسب وحال السيارة المتهالكة! لكن هكذا هي منروفيا تتماهى فيها المتناقضات والأضداد.

البرجي يرتدي حلة شبيهة بحلته -من بيت أزياء توما- لكنها سوداء ومطرزة بالذهب أيضاً، لاحظ أيضاً أنه بالغ في التعطر! علم من صاحبه في الطريق أن الحسينية دار عبادة يمارس فيها الشيعة من المسلمين شعائر دينية، اليوم يلقي الدرس شيخ لبناني جليل من آل البيت، أتى منروفيا زائراً كمحطة ضمن جولة يطوف خلالها

بتجمعات الشيعة في مدن غرب أفريقيا.

عبر نافذة السيارة يرى الشمس تغيب كاسية طرقات المدينة وبيوتها بحمرة مخملية، لا صوت يعلو فوق زقزقة العصفير وهي تتزاحم فوق الأشجار استعدادًا لمبيت الليل.

على غير العادة تملكت أحاسيسه دعة وهو يتجه نحو ما يجهل، الحقيقة هو لا يدري الكثير عن الشيعة ومذهبهم في الدين، معرفته لا تعدو ما يلحظه من طقوس البرجي وأصدقائه من اللبنانيين عندما يمارسون عباداتهم وشعائرتهم لا سيما صلاتهم فوق تربة الحسين عند موضع السجود، لاحظ في بعض حديثهم الحزن الدائم على مقتل الحسين والغضب المستمر من أبي بكر وعمر وعثمان لانتزاعهم الخلافة من علي، استغرب يومًا منظر البرجي وهو يصلي متأرجًا بغير قميص، الانطباع الذي راوده أن أبو عبد الله وشيعته يتعاملون مع طقوس الدين بيسر ورومانسية، يروق له فكرة ممارستهم لزواج المتعة لساعات معدودة بدون تأنيب ضمير!

لما وصلا إلى المكان، فهم لماذا أراد له البرجي أن يرتدي الحلة الزرقاء، الجميع يلبسون أبيض ثيابهم، كان الأخرى بأبو عبد الله أن يترك له حرية الاختيار، فبعض الحضور جاء باللبزات الغربية، ما زاده غيظًا أن الجميع يرتدون ألوانًا داكنة ما عدا هو يتألق في هذا الأزرق السماوي اللامع! الجميع يتسمون بالود والترحاب، ينثرون قهلات على الخدود والجباه، يقدمون بعضهم على بعض في الدخول. الحسينية تختلف عما ألف من المساجد أو يعرف عن الكنائس، فهي أقرب إلى دار للاجتماع والمحاضرة بها منصة جلس إليها -في وقت لاحق- العالم الزائر ذو العمامة السوداء، وعن يمينه وشماله آخرون معممون بالبياض! أمامهم صفوف الكراسي التي شغلها مريدوه من أهل منروفيا وما حولها.

لا نساء! بعض الحضور يبدون غرباء لعينيه، آحاد من أفارقة -غير ليبيريين- يجلسون بالصفوف الخلفية، ملامحهم من مالي أو ربما غينيا! يلمح أبو حسين وبعض الأصدقاء وقد اتخذوا مجالسهم قريبًا، أما هو فقد جلس بالصف الثاني إلى يسار البرجي الذي ما زال مغتبطًا متحمسًا للقاء «السيد» والاستماع له، لم يفاجئه ذلك فهو يتسق مع ذلك الجانب من شخصية الرجل الذي يقتني شرائط بها تسجيلات لإمامه المفضل محمد حسين فضل الله.

عندما دخل ذو العمامة السوداء، وقف الجميع مكبرين الله ويصلون على سيدنا محمد وآل البيت، تابع الحضور حديث السيد باهتمام ملحوظ، ومن آن لآخر تعلقوا أصواتهم بالتكبير المنظم المتناغم وترديد الصلاة على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد بإيعاز من محاضرتهم.

إجمالاً هو لا يعرف كثيرًا عن أي دين أو مذهب! لا يتخذ موقفًا سلبيًا، لكنه نشأ ولم يكن لأي من أهله ميول واضحة تجاه ممارسة شعائر دينية بانتظام أو حماس!

أمه أسماء ارتدت الحجاب خارج المنزل، وهذا كل ما اعترأها من مظاهر التدين! أما غزال فلا يذكر أن رآه يمارس أيًا من الطقوس في المنزل إلا فيما ندر وعلى عجل، على الرغم من ذلك كان حريصًا على صلاة الجمعة بالمسجد الكبير.

يذكر أول مرة اصطبه فيها إلى الصلاة الجامعة، كان الزحام شديدًا وشعر بحرج من تخطئه بين أمين المكان، صوت الشيخ الأجدش يجلس في مكبرات الصوت، معظم من حوله لا يبدون اهتمامًا حقيقيًا بما يقول بلغته المتفجرة! يهرولون في خروجهم من المسجد بحماس! قفزت من بين طيات الذاكرة صورة مدرس العربي والدين بالصف الثالث الابتدائي، كان أيضًا رهيب المنظر، أجش الصوت عبوسًا، يضرب بالعصا لأتفه الأسباب! كثيرًا

ما صادف في طريقه ملتحين بجلايب قصيرة وعلامات بالجباه ونظرات زائغة مرتابة! حاول أن يقرأ في مرحلة ما من عمره، لكن ما قرأ لم يفسر أو يجيب، في بعض ما قرأ من فلسفات وجد علامات ومفاتيح، تساءل مرات هل كان سقراط وبودا رسلاً أيضًا لم يأت ذكرهم في القرآن؟ ماذا عن دانتي أو فرجيل!

تكشف له الآن -في الحسينية- أن أحدًا شاء أن يرغب في العبادة أو يفقهه في الدين، أكان ذلك متعمدًا أم أن الأمور سارت بطريقة طبيعية؟ غزال كان حريصًا أن يظهر في بعض المواقف بين الأقارب أنه على دراية بأمور الدين وأحكامه، لكنه يعرف أن ذلك لم يكن أكثر من كونه علمًا يحفظه ويحمله في ذاكرته!

أسماء؟ كانت حانقة على كل شيء!

أفاق من شروده على تكبيرات من حوله اعتدل في مجلسه، تنحنح ثم اختلس نظرة إلى أبو عبد الله الذي عقد ذراعيه فوق صدره يداور حبات مسبحة بين أصابع يمينه، يتابع حديث الشيخ مزهواً، الجميع في كامل تركيزهم بعد التكبير، رفع رأسه إلى حيث الشيخ لاحظ حركات يديه كما لاحظ حجر الخاتم الأسود في بنصر يده اليمنى.

سأل غزال في مجلسه بالشرفة ذات ليلة: لماذا خلقنا الله؟

فكان رده بفتور: للعبادة! صمت ثم أشاح.

عقله حار كثيرًا في ماهية العبادة التي يقصدها غزال؟ هل العبادة هي تلك الحركات التي يؤديها المصلون أم الحفظ وترديد القرآن دون وعي، أم هو ما يظهره الناس من صوم أم هي الزكاة التي لا يؤديها أولئك الواجبة عليهم بحق! لو هذه هي العبادة فماذا عن الآخرين؟ إذا لم يعبدوا أينتفي سبب وجودهم؟

بحار عقله! لماذا يخلق الله كفاً به!

هل لو مارس الجميع تلك الشعائر سيكونون قد
أنفذوا إرادة الخالق وعرفوا لماذا خلقهم!
ماذا لو كان منهاج العبادة هذا مجرد رموز! وأن
للخالق في الخلق غاية أخرى خلف ما نعي من
مقاصد؟

التفت نحوه، تأمل وجهه، ما زال البرجي مبهورًا
بحديث الشيخ!

إذا ما كانت العبادة على نحو ما جبل عليه بعض
الخلق، فماذا عن جل خلق الله؟ أليس البحر خلق
الله؟ ألا يعبد البحر؟ كيف يعبد البحر؟

استرعت انتباهه لحية الشيخ، مشذبة بعناية
كما أنها شديدة السواد! أمعن النظر في وجهه،
تساءل هل تكحل هذا الشيخ!

يقوده منطقة الذي لم يصارح به أحدًا إلى أن
كل مسعى الإنسان في الارتقاء عبادة، لا يدري
تحديدًا متى وصل إلى هذه القناعة، لكن قر في
يقينه أن الدين منهاج وطريق يصل به الإنسان
إلى خالقه ويتيح للعقل التفكير ويكشف القرائن
لمن يدرك ليعرف الإجابة على سر الخلق ليس أكثر
ولا أقل، يقينه أيضًا أن الدين الذي يشوش العقل
فلا يهتدي به الإنسان الفرد لسر خلقه ليس بدين!
الله انفرد بالخلق الأول وحجب السر وغيبه عن
العقل البشري، العقل هو درة الصنعة الإلهية!
وضعه الله ليهتدي به الناس إليه، أما بعد ذلك
وغيره فقد خلع الله من صفاته على الخلق جميعًا
ووهب الحياة بصور ومقادير مختلفة، كل ما خلق
مسيرًا ما عدا العقل، العقل له فقط أن يختار
إما طريق الارتقاء والتكشف أو طريق الانحدار
والتغيب!

العزلة علمته عن خالقه، تساءل فأجابت العزلة
بعض أسئلته، وما زال في عقله الكثير من علامات
الاستفهام، إذا العزلة دلته على الطريق للخالق
إذا العزلة دين!

انتبه لأبو عبد الله يعيل عليه هامسًا: ركز كي لا يفوتك الكلام الموزون!

نظر في لحية الشيخ هنيهة لكن عاد وسها. لكل إنسان درب ومسلك بعقله والعقل غايته الرشد ومحدود بقدرته على إدراك ما تنقله الحواس وربط هذه المدركات بالأفكار للوصول إلى تفسيرات تجعله يعي!

رفع رأسه وكاد ينطق في مجلسه وهو يساور نفسه: نعم أنا إنسان لأنني أعي! الوعي هو ما يقودني للاستدلال على الخالق!

استرعى انتباهه تصاعد صوت الشيخ في رده على سؤال عن موضع اليدين في الصلاة، وهل يفرق ذلك بين الشيعة والسنة؟

كان رده: نحن الشيعة نضعها جانبًا، أما الإخوة من السنة فمنهم من يضعها على صدره أو أعلى بطنه أو في منتصفها أو أدناها، ثم استرسل «لما يعرفوا هن وين يحطوها نصير نسوي مثلهم، يا أخي هايدي إشيا فرعية».

هو يعلم أنه بمقاييس المتدينين مقصر! لكن في يقينه أنه على نهج لفهم الخالق وإرادته فيه، والذي خلق كل شيء له غاية في كل شيء، عندما يفهم سيعرف وحتفًا يهتدي، لا يقبل عقله إملاءات المتشدين بالدين ولا العنف باسمه ولا المظهر الزائف، لا يقبل الانسياق مع القطيع، هو إنسان فرد وسيقف أمام خالقه فردًا ليعرف إذا كان قد أدى ما عليه وعرف وكشف سر خلقه بعقله وسجيته أم لا، لقد ولى زمن الأنبياء فلماذا يريد البعض أن يعلي على الآخرين كيف يعبدون! يبدو أن الجميع من كل دين يجد ما يبرر ذلك!

(30)

وحيد يهوى السهر، دعاه لسهرة في ملهى قال إنه أرقى ملاهي منروفيا ولا يرتاده إلا الخاصة، لا يدري ماذا يتوقع فلم يرتد منذ حضر إلى هنا غير البار في فندق المامبا بوينت وعدد قليل من المطاعم، فهو ليس من هواة أجواء الملاهي الليلية الصاخبة، لكنه لم يتردد في قبول الدعوة، أسراً له وحيد أن الرئيس تيلور نفسه يرتاد هذا الملهى من وقت لآخر، وأن عليه أن يرتدي أفضل ثيابه.

تفاجأ عندما جاءه وحيد برفقة ليبيري يقود سيارة BMW من الفئة الخامسة أحدث طراز، خرج له الشاب الليبيري المتأنق من السيارة مبتسماً فمد إليه يده فصافحه، قدمه وحيد على أنه جوردان ألفونس من أميز ضباط الحراسات الخاصة وأحد أهم رجالات الرئيس تيلور.

ارتدى ألفونس حلة إيطالية، باهظة الثمن بدون قميص! لاحظ تفاصيل ما ظهر من عضلات صدره الأجرد، كما لاحظ أن حذاءه أخضر لامع صنع من جلد تمساح، تفوح منه رائحة عطر أمريكي، يدخن سيجاراً غليظاً لم ترق له رائحته، لاحظ أيضاً أنه يحمل مسدساً في جانبه الأيسر.

ركب في المقعد خلف وحيد، ولم تلبث أن انطلقت السيارة بسرعة غير مبررة تصدع بأغنية Tupac Shakur، بدت السيارة وراكبوها خارج السياق وكأنهم لا ينتمون لمنروفيا!

بعد دقائق معدودة أوقف ألفونس سيارته أمام باب الملهى الذي كان عبارة عن فيلا فخمة بشارع جانبي في حي المامبا بوينت، بنيت على الطراز الأوروبي، وفي مرحلة ما تحولت إلى ملهى ليلي لا يحلم بأن يقترب منه إلا ذوو الشأن في هذه المدينة.

بعد لحظات عد البوابة الحديدية التي فتحت على

عجل لسيارة الفونس، دلفت السيارة بهم إلى باحة المكان بسينمائية، ترجل الفونس غير مكترث لإغلاق أبواب السيارة، وألقى بمفتاحها لأحد الواقفين الذي تلقفه بحرص.

تقدم بكل خيلاء من فتى مفتول العضلات مهيب الهيئة عند المدخل، ما إن رآه الفتى حتى خضع له وانحنى فاتحاً الباب بتأدب مبالغ فيه، دخل وهما خلفه.

كان المكان رحباً مكيفاً تتراقص فيه الأنوار، في جانب منه بار معتمد به كل صنوف الشراب، وفي الجانب الآخر فوق علية خشبية وقف DJ يتمايل ويختار الموسيقى التي رقص لها المجتمعون أمامه ليبيريين وأجانب رجالاً ونساء، لم يكن الحضور كثراً لكن بدوا جميعاً في كامل رونقهم.

تبعاً الفونس فوق درجات سلم يتصدر القاعة صاعداً بهم إلى شرفة تطل على الباحة حيث الراقصون، استقبلهم فتيات منهن ليبيريات وأخريات أوروبيات، كن في كامل زينتهن. ما إن رأين الفونس حتى ارتمين في أحضانه يقبلنه مرحبين بحماسة! نال هو أيضاً نصيباً من الأحضان والقبل على الرغم من تحفظه المعهود، أجلستهم الفتيات بطاولة خاصة نمقت بعناية عليها من أكواب من كريستال وأطباق من مشهيات ومقبلات، بعد هنيهة أحضر نادل مهندم يرتدي قفازات بيضاء زجاجة جوني ووكر «العلامة السوداء»، تناولتها فتاة بيضاء من المتحلقين حول الفونس ثم وضعتها بين فخذيه وأدارتها حتى فتحتها ثم صبت له ولهما.

صحب الموسيقى والأنوار الراقصة، والأجساد المهتزة والفساتين القصيرة في القاعة استرعت نظره، رأى من بين الحضور فتيات رائعات الجمال اختلفت أعراقهن منهن أوروبيات وعربيات وأفريقيات، انتبه لمضيفه حين رفع الفونس كأسه تحية لوحد فرد التحية لألفونس مع جميع

المتحلقين حول الليبري الوسيم.

مال عليه وحيد سألته:

- إيه رأيك؟

- مش مصدق إنني في منروفيا!

- لأ، صدق، منروفيا فيها أسرار كتير.

- مين صاحبك ده باين عليه حد مهم!

- ده ضابط شرطة، كنت بعثته مصر يأخذ دورة

تدريبية، انبسط جدًا، ومن ساعة ما رجع وهو لازق

لي! بس ظريف ما تقلقش من الهيصه اللي

حواليه دي، أصلة يقرب للريس ولازم الناس توّجب

معاه وإلا!

أشار بحركة قطع العنق.

عاد يتابع الأجساد تتمايل مع على أنغام

الموسيقى، لا يدري كيف يعيش هؤلاء وأين! في

منروفيا! شعر أنه خرج من عالم إلى عالم مواز،

لا يرى حوله خوفًا ولا جوعًا ولا بؤسًا، الكل ناعم

يرفل في ملذات الحياة على بعد أمتار قليلة من

حياة المعذبين.

دنت منه الفتاة التي فتحت زجاجة الويسكي بين

فخذيها، اقترب وجهها من وجهه، شهية جميلة

في سمتها وسماتها، بعينيها بريق يذكره ببريق

عيني رحمة! سألته بلكنة قد تكون روسية: أترغب

في كأس آخر؟ فأشار لها بكأسه التي لم تفرغ

بعد، عادت تسألته: هل أنت جائع؟

رد:

- شكراً، ربما لاحقاً، اقتربت شفتاها من أذنه وغزا

عطرها الأمريكي أنفه.

سألته بتدلل:

- أتريد شيئاً آخر؟ في المكان غرف هادئة تضمن

الخصوصية!

دار رأسه وتقابلا وجهًا لوجه يحس أنفاسها

على شفتيه، عيناها تغزوه بلا هوادة، شعر بيدها

تتسل بين فخذه، شعر بدقات قلبه تتصاعد لكنه

قاوم شهوته وقال وهو يرفع كأسه إلى فمه:
 - لا، شكرًا ربما لاحقًا! ورفع ساقًا فوق ساق!
 ابتسمت وقد فهمت بسليقة أنوثتها إحجام
 ذكورته عنها، فاستقامت ودارت بينما يتفرس
 تفاصيلها.

قاربت الساعة الرابعة صباحًا يحس بارتخاء دُر
 وإعياء شديد من فرط ما اجترع بليلته، السهرة
 برغم دنو الفجر ما زالت مفعمة بالطعام والشراب
 والموسيقى الصاخبة، صيحات المتعة والضحكات
 المثيرة تباغت أذنيه من حين لآخر قادمة من ناحية
 الغرف التي يصعد إليها من فاضت بهم الشهوة.
 حثته الفتيات والفونس أن يقوم للرقص لكن
 لم يجد في نفسه أو في خطواته الثقة الكافية
 فأثر الجلوس يعاقر كأسه يختلس النظرات فيما
 حوله، الآن راودته نفسه إن جاءت إحداهن الآن
 لتختلي به سيفعل، لا يستطيع أن يقاوم أكثر
 من ذلك، إلى يمينه شقراء في رداء أبيض لامع،
 مال تجاهها ليلفت نظرها لكن بدون مقدمات قرر
 الفونس أن يغادر! قام متأبطًا فتاة منروفية ممن
 كن جلوسًا معه وتبعاه هو ووحيد، التفت حيث
 روسية اللكنة فألقت له قبلة في الهواء من طرف
 سبابتها غامرة بعينها.

خرجوا لفناء المكان، لفتحته نسمة فجر باردة
 فاستعاد شيئًا من سيطرته على خطواته، وجد
 السيارة حيث تركوها، مفتوحة الأبواب بجانبها
 ذاك الصبي الذي سلم الفونس المفتاح منحنيًا
 ينظر في الأرض، وضع الفونس دولارات أمريكية
 في يد الصبي ثم ركب ووحيد في الكراسي
 الأمامية، وجلس هو في الكرسي الخلفي تجاوره
 الفتاة التي لبست فستانًا أزرق قصيرًا يظهر طول
 أرجلها، أدركت نظراته المتجسسة، فأرخت ساقًا،
 رأى أنها لا ترتدي أي شيء آخر غير هذا الفستان
 القصير! كما بدأت السهرة بموسيقى Tupac

Shakur ها هي تصم آذانه مجدداً.

دار المحرك الرياضي وانطلق الفونس بسرعة جنونية، يدور حول المنحنيات كسائقي السباقات، دقات قلبه تتسارع، أعصابه تتوتر، الفتاة تصرخ وتتضاحك وتميل بجسدها عليه، يقهقه الفونس مزهواً بقدراته في القيادة الخطرة بينما بدا وحيد صامتاً مرهقاً!

فجأة داس الفونس المكابح لتتوقف السيارة عن صوت احتكاك العجلات بالأسفلت محدثة ذلك الصفير الناتج عن زحفها أمتاراً، ارتطمت رأسه بالمقعد أمامه، لا يدرك ما حدث لكنه رأى الفونس يقفز من السيارة شاهراً سلاحه، تابع من مقعده عبر الزجاج الأمامي للسيارة، الفونس يتقدم بحماس مطلقاً أعيرة نارية متتابعة على أحدهم فأرداه في وسط الشارع الذي أعتم وصمت إلا عن صوت محرك السيارة الهادئ وأنوار مصابيحها الأمامية.

لحظات من ذهول إلى أن خرج وحيد من السيارة أولاً ثم هو وتبعتهما الفتاة، نظروا إلى الشاب المدرج في دمانه عند أقدام الفونس، غير بعيد عن يد القتل سلاح آلي شرقي الصنع. تلفت الفونس حوله بتحفز ثم عاد يحدق في الجثة تحت أقدامهم، تأكد أنه لفظ أنفاسه الأخيرة حينما أطلق رصاصة شوهدت معالم وجه القتل.

اختفت ملامح الفونس الباسمة وارتسمت في عينيه نظرات القتل الباردة تلك التي رآها في عيون رجال الحرب، وضع سلاحه في جراب مخفي في بنطاله، تلفت ثم التفت يخاطب وحيداً هذا أحد أفراد المتمردين من أصحاب العصابت الحمراء، قالها كأنه يبرر القتل المفاجئ، عاد يتأمل الجثة ثم بصق عليها وقال ببرود:

- هيا بنا، سندعه هنا للكلاب الجائعة حتى الصباح!

فجرٌ آخر يبرز ليجر يومًا جديدًا من أيامه لمحرقه واقعه، كان على حاله مذ عاد منذ سويغات قليلة مضت ثقيلة، قضاها يدور في محيط الغرفة أو جالسًا بطرف سريره متكئًا على فخذيه آخذًا برأسه بين كفيه، لا يستطيع أن يتمالك أعصابه من هول ما رأى، المنفضة بجواره تكتظ بأعقاب السجائر، صورة الوجه المشوه والدماء تسيل منه لا تفارق عقله، ما الذي يحدث حوله!

ما كل هذه القسوة لماذا القتل والدماء؟ ما الذي يتناحرون عليه بين كل هذا البؤس! ألا تساوي حياة بشري -أيًا كان - شيئًا ليقتل على قارعة الطريق ويترك لحمه للكلاب!

يا للجنون! الرصاصة التي انطلقت لتنزح الحياة من جسد ذلك الفتى هي رسول الموت الذي قد يتخطف أي شخص هنا! لا يستطيع عقله أن يمتطق ما رأى في ليلته، يقينه الآن أنه لا حرمة لحياة في منروفيا، في هذه الشوارع القاسية لا عاصم ولا معصوم، القتل شبح فاجر يعربد في الأنحاء يبحث عن فرائسه غير مكترث بالذي ينتزع الحياة منه.

هل قُتلت رحمة؟ وبأي ذنب قتلت! قصت عليه فيما سبق عن اغتصاب رجال العصابات للفتيات في القرى ومن ثم قتلهم وتشويه أجسادهن، راودت خياله صورة لرحمة جسدًا مشوهًا ملقى على قارعة الطريق! هل قتلوها؟

هب متأنفًا ضائقًا بما صورته له هواجسه، خرج إلى الشرفة يستقبل شمس الصباح على وجهه، لعل الأنسام الباردة تهدئ من روعه، بدت المدينة لعينيه طبيعية وهي تستقبل شمس الصباح، بدأت وتيرة الحركة تتصاعد كالعادة مع الإشراق، طيور السماء، هوام الأرض، المارة، السيارات، صخب جديد قديم، الشارع الملهك على عهده كأن شيئًا لم يحدث منذ ساعات قليلة في جنح الليل وما الجديد! ليل هذه المدينة قاتل لا يفتر ونهارها

شاهد لا يبوح!

قضى ما مضى من عمره يضع استازًا بينه وبين الواقع، يعيش رافضًا أو مرفوضًا، أثر لسنوات طوال فكرة العيش الرتيب على هامش حياة لا تقيم له وزنًا. الآن، هذا الواقع يفتحه بجره إلى قلب كل هذه الأحداث المفاجئة المفجعة التي تتصدع لها أركان ذاته! هذا الواقع يفرض نفسه على كيانه الهش، يدرك أنه أخطأ عندما سمح لنفسه بالانغماس فيه على عكس سجيته. تترنح روحه في هذه اللحظة، الخلاص هو مبتغاه ومنتهى أمله، كل ما يسيطر على تفكيره الآن هو الهروب من هذه الملهاة الدامية، ليس له هنا من شيء فلماذا يبقى!

لا شيء هنا ليبقيه، كل أحاسيسه مستنفرة الرعب يظهر جليًا في ارتعاد أطرافه وتسارع ضربات قلبه الذي لا يألو ذكر رحمة حتى وإن ألبه عقله، روحه تئن تحت سياط الخوف والفقد، اختفاؤها المفاجئ من حياته يؤلمه! مات أبوه ثم أمه لم يشعر بهذا الإحساس الثقيل بالفقد، لم يحمل عبئًا كهذا من قبل، يشعر بالضعف والتشتت كما لم يشعر من قبل!

أنا في هذا العالم وحدي! لماذا تركتني!

(31)

إني لا أبالي فأنا أعشق اللحظة التي أعيشها
معك الآن هنا! لا أهتم إن خرجوا من بين الأعراس
الآن وقتلونني!

فمعك الآن أمام هذا الجمال الإلهي منحتني
الحياة كل ما حلمت به!

أنا حبيبي - كاي بنت في هذا العالم الكبير-
كنت أحلم دائماً أن ألتقي فارسي رجلاً ممشوق
القامة وسيماً، يسير بقربي فتختلط آثار خطواتنا
فوق رمال شاطئ المحيط هذا، تداعب وجهي
هذه النسيمات الباردة وتغني نوارس منروفيا فوق
رأسي كما تفعل الآن!

ارتمت على صدره تضمه بقوة، رفعت عينيها
تحتضن نظراتها عينيه وقالت: بلقائك اليوم هنا
اكتملت إرادتي وانصاعت لي الدنيا وأرضاني الرب،
قد لا تفهمني لكن مراد عمري تحقق هنا والآن!
ما كان قبل أو ما سيكون بعد تفصيلات، مجرد
تفصيلات.

رفعت رأسها واعتدلت تنظر إليه لتقول: حبك
يمنحني حياة، كل ما حولي منذ وعيت على هذه
الدنيا يرفض أن أحب، لكن شيئاً ما في قلبي كان
يقول لي إنك حقاً قادم! وقد أتيت تحمل عطاء
الحب لي، انظر كم هي جميلة هذه الحياة.

تنهدت، رنت نحو الأفق، أطرقت ثم عادت تمسح
على خده وأتبعته: منذ وعيت وأنا أتابع الحياة حدناً
يعقب حدناً، أعيشها واقعاً أو أتفادها حلقاً، أعوامٌ
مضت ليل يتلوه نهار، ساعات مرت كان لها مذاق
الرحيق وملمس الحرير ورائحة كالبحر، وغيرها مرت
ككُرات من لهب أحملها فوق رأسي وكاهلي،
لكنني لم أفقد أيماني يوماً وأنا أنتظر مقدمك،
وها قد أتيت فارساً مخلصاً أملاً يفُضُّ كل أحلامي!

بعدما قارب على فقد الأمل في لقائها وكاد

يغادر منروفيا خوفاً مما يدور حوله، حادثته هاتفياً بعد انقطاع دام أسابيع ثلاثة، صمت، استمع، صرخ وعاتب لكن عاد واعترف لها أنه تحرق شوقاً لرؤيتها وأنه قط لم ينسها وأنه يفتقدها كثيراً كثيراً!

واعدته سبباً عند الشاطئ الداني، ذهب وحده مبكراً، تأخرت حيناً فظن أنه توهم حديثه معها، فجلس فوق الرمل الدافئ يرقب حركة الأمواج المتلاحقة إلى أن تجلت كعروس بحر تخلقت هنا في هذه اللحظة من مياه وهواء ورمال على أجمل وأكمل ما تكون المرأة.

سمراء هيفاء ناهد، تلمع بشرتها تحت الشمس الأفريقية الصريحة، تتبختر في ثوب غير مخيط ارتدته كما ينبغي لعذراء منروفية، تناغي الريح رداءها فيختلج فوق حناياها متناغماً مع مفاتها متسماً مع تهددها، تضع حلية أفريقية صنعت بأنامل فنان منروفي فقير عاشق، أميرة في بساطة، بسيطة في سحر، تكتمل بها الطبيعة الغضة على الساحل المفتون كأنها أخت الموج أو بنت الريح.

لما رآته عن بعد لوحت وهولت إليه، هرول إليها، اقتربا فتعلقت برقبته، تعانقا في صمت وتضاماً في لهفة، سارا يقصان خطاهما على حد السيف حتى وصلا عريشة قريبة جلبت إليها أشهى ما تستطيع من فاكهة، أطعمته من راحتها وكأنه من قطاف الجنة، تسامرا تضاحكا ونسيتهما الحياة سويغات كانت كافية أن تروي غليل قلبه المفتتن!

جلسا، مالت على زنده، قاومت دمعة تخلقت في بياض عينها وروت: هي طفلتي، وُلدت بمخ ضامر وإرادة لم تكتمل، وجه ملائكي وروح ألقى من سماء صيف رائق، هكذا أراد الرب، توقع الجميع أن تموت سريعاً، لكنها عاشت سنوات سنناً جميلة،

تحدثني بعينيها وأسمعها بقلبي، كنت أراها جميلة وحنوناً!

ليلتها، أحضرت لها الحلوى، أكلتها بتلذذ، تداعبنا تلاعبنا، ضحكت كما لم تضحك من قبل، حممتها بالماء الساخن وألبستها ثياباً نظيفة، استلقت إلى جوارى، ضممتها إلى صدري، وضعت يدها على وجهي، داعبت أناملها تفاصيل ملامحي، ثم رفعت يدها ووضعته هنا! على قلبي.
نامت!

نامت إلى الأبد! انتقلت إلى جوار الرب حيث هي أفضل في مكان بلا خوف ولا قتل ولا جوع، ربيع دائم وملائكة ونور وأشهى الأطعمة!

كانوا قساة، حزنت لرحيلها وحدي، قالوا: إنهم يريدون حرق جثتها أو دفنها في جدث! فلا يوجد داعٍ لدفع ثمن تابوت أو دعوة الأهل لوداعها!
لم أتخيل أن أتركها للنار.

حملتها وركضت حافية، صرخوا خلفي أن أعود، ركضت אחتي ورائي، لم تلحق بي، ظللت أركض لا أدري لكم من الوقت أو المسافة، لكنني تعبت! ولما أحلكت الساعة واشتبكت الأعراس حولي ركعت منهكة، وضعتها على الأرض كان وجهها ملانكياً مبتسماً يضيء نوره الإعتماد، وضعت رأسي فوق صدرها أنتحب في صمت، شج صمت الأعراس صراخٌ وحوشها.

خفت أن تشتم الضواري رائحتها، فنبشت الأرض بالقرب مني تحت شجرة كبيرة، حفرت بيدي العاريتين قبراً، وضعتها في سلام، وأهلت عليها التراب، جلست فوق القبر طوال الليلة أبكي بحرقه إلى أن خرجت لي من خلف الأشجار!

جاءتني من السماء فتاة جميلة ملابسها نظيفة عطرة، ربتت فوق رأسي، أخذت بيدي مسحت بكفها التراب عن وجهي وضممتني طويلاً حتى هدأ قلبي واستكان.

نظرت في عيني باسمه وقالت: لا تحزني، أنا سعيدة الآن، ثم قبلتني! تركتني واختفت في داخل الغابة!

وكما خرجت من النور رجعت إليه، ذهبت للأبد. في لحظة ما شعرت أنني أرغب في أن ألقى حتفي لألحق بها لكنني شعرت بالخوف والوحشة، تعالت أصوات الغابة شيئاً فشيئاً، كل ما بكاني ارتعد، ركضت كثيراً لم أدر أين أذهب في الظلمة وتركت عقلي لقدمي، كنت أشعر بها حولي تذود الموت عني حتى عدت،

أعياني الحزن وسقم جسدي، أشعر بخواء كبير في صدري حتى هذه اللحظة، كانت تمنحني حباً غير مشروط، أكثر من كان يفرح بلقائي في هذا العالم، بقدر حزني على فراقها إلا أنني سعيدة من أجلها! هي الآن في السماء ناعمة في ملكوت الرب يسوع المخلص!

بكت بغير انتحاب، ثم أتبعته.

حبيبي، تدري؟ تهبط الأرواح إلى أرحام النساء في لحظات يصدق فيها العشق، فنتخلق كالسحر بشراً، نبزغ بالحب أجساداً من أديم هذه الأرض الطيبة ونحيا لنحب ونعشق وتستمر دورة الحياة.

الرب أراد لنا هذا الكيان البشري الواهن لنحيا ونموت، نكد ونتعب نلهو ونمرح نحب ونكره، نحزن حيناً ونسعد حيناً، نتفاخر بالقوة ونخزي بالضعف! لكن في النهاية حتماً نغادر إلى حيث ننتمي ويريدنا الرب في جواره وذلك أفضل!

الحياة طالت أو قصرت لحظات تنتزع انتزاعاً من قبضة الموت الراض فوق أعمارنا! نعيش يغالب صدقنا زيفنا، نتجلى إن انتصر في قلوبنا الحب والحق وتنسحق أرواحنا تحت وطأة الزور والكراهية.

الملائكة لا يكذبون أو يخدعون أو يقتلون نحن فقط لنا الخيار إما أن نكون صادقين فنتحرر أرواحنا

أو نطل نكذب فنكابد ولنشقى، بقدر الغي نتدلى
وبقدر الصدق نسمو.

الموت الذي يترص بنا - نشعر به قريبًا في كل
لحظة - ليس بالضرورة شرًا، قد يكون الموت هو
الخير الذي نسعى إليه في الحياة!

(الرحلة الثالثة)

(32)

الصيف في منروفيا حار لزج مطير، وصيف العام الفين واثنين كان حارًا جدًا بشكل خاص! منذ أيام تتواتر الأنباء عن مواجهات عنيفة وقد وصلت حدة المعارك بين القوات الحكومية والمتمردين إلى ذروة لم تصلها من قبل، أحس الجميع أن نذرًا ما في السماء تنبئ بجديد مريب، الكل منشغل بأحاديث عن حرب غاية في الشراسة والدموية، بطانة الرئيس تيلور تروج لبطولات الجيش وزعماء الحرب وقادة الميليشيات الحكومية وقدرتهم على دحر المتمردين، لكن في المقابل المتمرّدون يتقدمون، يُسمع في كثير من أحياء منروفيا الشرقية أصوات الاشتباكات ودوي القنابل غير بعيد!

التجار اللبنانيون قلقون متوترون لشائعات سيطرة المتمردين على عدد من ضواحي منروفيا، يكثر الحديث في مجالسهم عن تصفية البضائع والأعمال والسفر إلى أبيدجان أو أي دولة أخرى ولو لأسابيع قليلة إلى أن تتضح الصورة، أحاديث حادة فالمصالح والأموال والديون تجعل مسألة الفرار من جحيم الحرب قرارًا صعبًا! يشتكون من زيادة «إتاوات» زعماء الميليشيات ويردد البعض أن بعض التجار في الضواحي قد تم نهب تجارتهم، بل إن تاجرًا وأسرته قد تم اقتحام منزلهم وقتلهم جميعًا!

أخبار تتداول وشائعات تتناثر غير أن أبا عبد الله ما زال متشبهاً برأيه أن شيئاً لن يحدث هنا! يؤيد بثقة ما يتداوله أتباع الرئيس تيلور، ويرغم -كمن قرأ الغيب- أن قوات الرئيس وميليشياته ستحمي منروفيا حتى ضد الأميركيين لو أرادوا اقتحامها! يؤكد أن تيلور يتلقى دعماً من صهره في نيجيريا وأموالاً لا طائل لها من الرئيس الليبي معمر

القذافي! ويردد بثقة «ما تخاف ما راح يصير شي»!
كان للبرجي أصدقاء كثيرون في مختلف الدوائر
الليبيرية، ربما يعلم شيئاً يجهله الجميع! هكذا بدا!

اليوم السبت، جلس يحتسي القهوة اللبنانية
بالكرسي الذي ألفه خلف المكتب العتيق، يتجاذب
أطراف الحديث مع البرجي، ناقش معه تلك الأفكار
القائمة ورؤية صديقه وحيد عن تاريخ ليبيا الذي
ينبئ بمستقبل مشؤوم كما شرحه له!

أقر أبو عبد الله بتاريخ ليبيا الدامي، وتذكر
كيف تم سحل صامويل دو فوق قار الطرقات
وتقطيع جسده حياً أمام الكاميرات عقاباً له على
ثورته ضد الأمريكوليبيريين، الأمريكان لم يغفروا
له ذلك! لكنه عاد يبت فيه اطمئناناً تحتاجه نفسه
للاستمرار!

حكى له أن الرئيس دعا كل الأجانب ذوي الحيثية
والسفراء لحفل صاخب بالقصر الرئاسي عند
المسبح، وجاء الجميع بكامل هيئاتهم، وبعد ساعة
ظهر تيلور برداء السباحة يجر كلبه الأبيض ونزل
إلى المسبح وهو يدخل سيجاراً غليظاً! حكى ذلك
وضحك مشيداً بجرأة الرجل وذكائه في توصيل
رسالته «للأمريكان»!

تعجب مما حكى أبو عبد الله وسأله بتلقائية:
هل وجهت إليه دعوة لحضور ذلك الحفل؟ صمت
للحظات ثم التفت إلى عاملات متجره يسب هذه
ويداعب تلك!

جلس في مأمته يستمع معه إلى فيروز، يروي
له قصصاً ويطلق نكاتاً، يلفت الكهل الرائق نظره
إلى بعض المنروفيات الجميلات العابرات بالشارع
أمامهم.

فجأة بدون مقدمات، في وضح النهار، أزيز
رصصات قريبة أثار دعرًا وتعالت صراخات في
الخارج، ميز صوت ارتطام وابل الرصاص بالمباني،

زجاج يتهشم، دفقات الرصاص تقترب، انبطح مع الجميع أرضاً حتى البرجي ذاته احتفى تحت مكتبه، ازداد الهرج في الخارج واقتربت رصاصات الأسلحة الآلية تصم الأذان، ترتطم بجدران البناية والبنائيات المجاورة.

التجا بعض المذعورين عفوياً لداخل المتجر وتقرفصوا بالأركان للاحتباء، يقارب الإغماء من الهلع، ميز صوت عربة تمر أمام المتجر مسرعة. دقائق ثقيلة، ثم خبا الرصاص تماماً لكن ظل الذعر!

خبا الصراخ وبدأ اللغط.

في حذر، أخذ المنبطحون يقفون واحداً تلو الآخر، خافضي الرؤوس يتحسسون طريقهم إلى أمان مؤقت.

وقف أبو عبد الله في مكانه مستنذاً بقبضتيه على مكتبه مائلاً بجذعه ثم سأل وهو يدير ناظريه في الوجوه الواجمة: هل الجميع بخير؟ لم يرد سؤاله أحد لكن ميمي أومأت إيجاباً على وجل! دقائق أخرى مرت، أخذت الحركة تهدأ في الشارع.

خرج خلف البرجي عبر باب المتجر للتحقق مما جرى بالشارع المرتاع، نفور ترقب وخوف، البعض يشير إلى الجانب الشرقي القصي، اشرباب لكنه لا يميز شيئاً بين الناس الذين يمشون في كل اتجاه على غير هدى! خطا البرجي إلى أن وقف بنهر الشارع، يعاين ما حدث، التفت إلى بنايته جال بعينه يعاين مغتاطاً آثار الرصاص على « قيشاني » الواجحة!

دقائق أخرى، يخيم على الحي هدوء مطبق مشحون اختفى أكثر الناس وخفت الحركة جداً عدا حركة الطيور الدائبة والكلاب الهائمة!

تراجع لداخل المتجر مع صاحبه الذي بدأ يحوقل همساً، ثم ارتفعت نبرته بسباب ولعن، ثم شرع يصرخ في عقاله للعودة إلى مراولة أعمالهم،

دقائق أخرى ثم دخل شاب يافع وقال للبرجي إنهم أصحاب الغصبات الحمراء (المتوردون) يجوبون الشوارع، مروا من هنا منطلقين بسيارة دفع رباعي وأطلقوا الرصاص من مدفع آلي مثبت فوقها ثم فروا! فسبهم البرجي ودعا عليهم بالثبور والخزي!

ما زال وجهه ممتقًا لِمَا سمع ورأى! نظر في وجه البرجي، اختفت الثقة! بدا قلقًا حائرًا كالجميع! لكنه يتشأغل بأنية القهوة على الطاولة بجواره مستغفراً متأفماً! هو يعرف أن البرجي يلجأ إلى صنع القهوة إما منتشياً أو حائفاً، يبدو له أنه يقاوم أن ينفجر غضبه!

لم يرد أن يثقل عليه، لكن ضاق صدره جداً فخطا على خوف وتوجس ووقف عند باب المتجر، يراقب وينفث من سيجارة أشعلها، أدرك أن يده ما زالت ترتعش من التوتر وضعها في جيبه علها تهدأ.

وقف يتابع اختلاجات وانفعالات من تبقى بالشارع، بدا التجار واجمين حائرين، والمارة في كدر. فقد المكان إيقاعه وضوئه المعتادة.

دقائق أخرى من هدوء ثقيل، لاحظ أن الجميع يلتفتون شرقاً في حالة من الاستنفار، الكل ينظر إلى مدخل الطريق من الجهة الشرقية!

القلة التي ظلت تفسح الجادة للقادمين من بعيد ترجلاً، قادمون كالموت يثير مشهدهم خوفاً وقلقاً، ترقبهم كل العيون بتوجس كظباء مستنفرة ترقب ضباً تمر بأرضها! بعض المتابعين آثروا الابتعاد أو الاختباء!

شيئاً فشيئاً تتضح له شخوص المشهد.

صبية! مراهقون! بينهم أطفال!

هياكل أجسادهم اللحيفة لا تختلف كثيراً عن أقرانهم في المدينة، الفارق أن هؤلاء الأشقياء قادمون من الأحرار يحملون الأسلحة وتفوح منهم تلك الرائحة الكريهة!

يتحركون في مجموعات متناثرة يتجهون للأمام لكن بعشوائية، بينهم بعض شبيهة بكبرونهم سناً يصرخون متصنعين جدية وصرامة!

غير بعيد خلفهم يترجل محارب من مليشيات الرئيس تيلور يجر سلاحه وراءه بلا اكتراث يبدو مضرماً شرساً مغيباً أو مخدراً يتبع الصبية كشيطان يرعى غنماً!

مروا أمام عينيه في تتابع يردد بعضهم نشيد «الشجعان»، من بينهم من وجه له نظرات عابرة بثت خوفاً في قلبه.

لا يفهم نظراتهم تلك! هي ذات النظرات الميئة القاسية في عيون رجال الحرب، يبدو أنهم يتعلمونها في معسكراتهم أو كأن الحياة في الأبراش مع الوحوش تخرجها من غور قلوبهم مجدولة على خليط من مشاعر، يرى فيها الحزن، الأسى، الحقد، القسوة، الخوف. جديلة من الأشواك تعتصر كياناتهم الهشة، عيش يغيب إنسانيتهم كليل يسلب إرادتهم، يشوه طفولتهم، يحولهم إلى أمساخ تتدافع نحو هلاك محقق لا يحورون عنه كأنهم مسحورون مسخرون أو بهم من جنون!

قادة الحرب يسلخونهم من طفولتهم! ينسجون في أذهانهم تلك الأساطير عن البطولات الوهمية والقدرات الخارقة للمحاربين الأشاوس، يغيبون عقولهم بالمخدرات

وأرواحهم بالقتل والقسوة، يسمونهم بأسماء رنانة؛ فهذا مصاص الدماء، وذلك قاتل الأسود، والآخر ظل الموت، وهم ليسوا إلا أطفالاً تعساء جنوداً مرتزقة ووقود آلة جنرالات الحرب. معظمهم يقتل بلا دية ولا يدفن في قبر عليه شاهد، ولم يرتزق في عمره المسلوب غير سويغات التخدير!

بينما هو يتابع مسيرهم الضم إليه البرجي في موقفه عند باب المتجر، توقف أمامه أحدهم

وحدق في وجه للحظات وأشار له بإصبعه
الوسطى يهينه ووجه له السباب، وقال بعبارات
سينمائية سأقتلك أيها الخنزير الأبيض! ثم هرول
مسرعا تجاه رفقته يردد نشيد الشجعان!
أنا! أنا لست أبيض!

(33)

تفاجأ عندما فتح له كلاوس الباب شبه عار، لا يرتدي شيئاً غير «روب دي شامبر»! تفوح منه رائحة الخمر كالعادة، لكن ميّز رائحة أخرى! تشكك، لكن لم ينف عقله ما دلّه عليه أنفه من جسد الأنثى! أو ما كلاوس مُتمتقاً ولم يصفحه، يمناه التي تمسك بطرف ردايه المفتوح بالكاد تداري سوءته! تردد لحظات ولم يدعه للدخول، فظن أن عليه أن يذهب!

أراد كلاوس أن يصرفه ويغلق الباب في وجهه، لكن حيرة عينيه وجبينه المتعرق أثارا فضوله فأفسح له المجال على مضض، فدخل!

أطل كلاوس برأسه عبر الباب ليتأكد من خلو الردهة من آخرين، ثم أغلقه بهدوء، دار حوله واجهه وحدجه بنظرة قاسية ولسان حاله يقول ماذا أتى بك الآن أيها التعس!

تجاوزه وتوجه إلى خلف «البار»، أفلت طرف ردايه وصب لنفسه كأساً من النبيذ الأحمر تناوله جرعة واحدة. خيّرهُ فيما يشرب، فطلب الويسكي دوبل، فامتعض! لكن صب له وصب لنفسه كأس نبيذ آخر. وقف قبالته لحظات طوال يحدق في كأسه، بينما يصب كلاوس لنفسه الكأس.

تبادر إلى ذهنه أنه أخطأ في مجيئه إلى كلاوس، فكيف يطمئنه هذا السكر القميء! ربما عليه أن يجرع كأسه ويعود من حيث أتى، المكان مظلم إلا من بعض ضوء يتهادى عبر الشرفة المشرعة معلناً اقتراب مغيب الشمس، استرجع بعض مشاهدات اليوم، تساءل كيف يترك العالم المتقدم هؤلاء التعساء للموت للاشيء إلا لأنهم ولدوا وعاشوا هنا! هذا جنون! أين أخلاق المتحضرين ومبادئهم! انتبه لصوت أزيز خافت ولضوء آخر لما انفرج باب غرفة نوم كلاوس.

اقتربت على استحياء! تتوسد خطواتها مواطنها

كهريرة ضلت طريقها في فضاء موحش، سمراء منروفية، رقيقة البنية دقيقة الملامح مجدولة الشعر لها نهاد ناتئة، تلبس جينزاً أزرق و«تي - شيرت» فضفاضة أبيض اللون، بدت له أنها تستهل سنوات مراهقتها، تقدمت حتى توقفت على بعد خطوات من حيث وقفها، استقرت خجلى تحديق في الأرض قابضة يمينها على مرفقها الأيسر.

يحدق فيها لا يدري كيف ولماذا! بدون مقدمات رفعت وجهها تنظر إليه بعينين بهما أثر دموع، في وجهها براءة انتهكت وفي سمتها صباً يتحور، نظراتها على سكون حركتها تصرخ مستجدية الخروج من هنا! بدت مفعمة بأحداث ساعة قضتها في هذا المكان الذي لن تنساه ما قدر لها من عمراً!

انتبه كلاوس لما يجري، زم رداءه على خصره، دار حول «البار» واقترب من الفتاة، استرق نظرات لوجهه، ثم أخرج نقوداً من جيب ردايه ووضعها في يد الفتاة التي تلقفتها وجلة، فربت كلاوس برفق على كتفها وأشار لها فخطت أمامه في طريقها للخروج، قبل أن تختفي خلف الباب الذي أوصد على عجل، تلاقت نظراتهما مجدداً بأسئلة مكبوتة.

ذهبت الفتاة، تجاهله كلاوس وهو يتجاوزها في طريقه إلى مخدعه حيث غاب برهة من زمن.

أخذ هو كأسه وخرج إلى الشرفة، الشمس التي بدأت رحلتها إلى ما بعد المحيط القادر أمامه تبدو أكثر احمراراً هذا المساء فتلون الأفق بلونها القاني كأنما تخضبه دماء النجم الجريح.

ما زالت وجوه الجنود الصغار وأصوات الرصاص تضعع وجدانه، لم يجد عند البرجي ما يدلّه إلى سكينته، رحمة أخبرته أنها ستقضي بعض الأيام مع أمها بقرينتهم لماذا أتى إلى هذا الحفير! كيف يسمح كلاوس لنفسه أن يضاجع فتاة

قاصراً! ألا يؤنبه ضميره! ألا تقلقه أخبار المعارك!
يشعر برغبة شديدة في مغادرة منروفيا، لكن
يظل السؤال الملح إلى أين؟ أيصطب رحمة؟
كيف يمكن أن تعيش في المجتمع المصري بكل
عاداته وتقاليده ونظرتة للغرباء، أمه أسماء جاءت
غريبة عاشت عمرها تعيسة ورحلت غريبة!

بينما تراوحه أشباحه والذكريات استفاق على
صوت كلاوس خلفه يسأله مستنكراً:

- وماذا أتى بك هنا الآن بغير موعد؟

- لا أعرف! ما رأيك فيما يتردد عن اقتراب اقتحام
المتمردين لمنروفيا؟

- هل أنت خائف؟

- ربما! ألسن كذلك؟

- كلا، إن هؤلاء التعساء يجمعهم الدولار
وتفرقهم الرصاصة!

- غريب أمرك!

- لماذا؟

- أنت تعيش هنا بينهم منذ سنوات، وتتعامل
معهم في كل شيء، لكن أستشعر دائماً أنك
تكرههم!

امتعض للنقد ولم يتكلف إنكاره، رفع كأسه إلى
فمه وأشاح ينظر في الأفق غير عابئ له!

يدرك أن كلاوس لا يكره الليبيريين لذاتهم أو
لعرقهم، هو يكره الجميع، قلبه يملؤوه حقد
يكفي الكل! الإنسان في نظره كائن حقير يعيش
شهوائياً أكثر شراسة من وحوش الغابات، يحتقر
الجميع خاصة النساء ويكره ذاته لانتيمانه للجنس
البشري، لا يؤنبه ضميره عندما يمعن في احتقار
من حوله عندما يؤذي الضعفاء عندما ينتهك براءة
طفلة!

التفت إليه كلاوس، حدجه بنظرة حملت استخفافاً
بحاله، قرأ في ملامحه حنفاً واستنكاراً، استدار
واتخذ خطوات مترلحة إلى الداخل قائلاً له:

اتبعني!

تبعه إلى غرفة مكتبه دار حول المكتب وضع كأسه واستخرج من جاورٍ مفاتيح ثم توجه إلى خزانة ضخمة استقرت في جانب الغرفة، فتحها، جمع فيها مختلف الأسلحة والذخيرة، بها عدد من بنادق صيد وأسلحة آلية ومسدسات مختلفة الأعيرة والأحجام، مَدَّ يده إلى مسدس revolver تأمله قليلاً ثم قربه إليه قائلاً: خذ! هذا سيشعرك بالأمان!

تفاجأ بما يقدمه له كلاوس، لم يدر ماذا يفعل، لم يحمل سلاحاً قبل، لكن مَدَّ يده متردداً فأخذ المسدس، لاحظ كلاوس ارتعاش يده، فقال له: احذر فهو جاهز للقتل!

زاده ما قال السكير انفعالاً وارتعاشاً!

فما كان من كلاوس إلا أن انتزع من يده المسدس متمتماً بلعنات، ثم عاد للخزانة فأخرج منهاحافظة جلدية خاصة بهذا السلاح وقال له: اتبعني.

خرجا إلى الشرفة مجدداً، أمسك كلاوس السلاح بيمينه وحافظته في يسراه.

هبت نسائم من جهة المحيط فانفرج رداؤه عن سوائه، أطلق بيد مرتخية ثلاثة أعيرة ناحية قرص الشمس الذي يكاد يغرق في المحيط!

جاءه صوت إطلاق النار قريباً مفرغاً كما كان صوت طلقات المتمردين صباحاً، فوضع يديه على أذنيه مذعوراً، تراجع خطوات نحو الزاوية خلف كلاوس.

رأى كلاوس الحال التي هو عليها فنهره صارخاً:
- اقترب هكذا تصوب وهكذا تشعر بالأمان، هنا إن لم تُقتل تُقتل!
- لا أستطيع.

عندما خرج من سيارة الأجرة التي أقلته من حيث مقر الشركة إلى منزله، أحس الرعشة قد غادرت

جسده وتمالك أعصابه إلى حد كبير، اتصل في طريق العودة برحمة فهدات من روعه وواعدته أن تراه صباحًا.

يلعن نفسه لأنه قصد كلاوس ليطمئنه، فعلى العكس اغتم لرؤية القاصر تخرج من مخدعه وذكرته الأعيرة التي أطلقها نحو المحيط بما حدث صباحًا. في هيئته برداء النوم المفتوح عن عورته ورائحته العطنة والخمر الذي يفوح في أنفاسه ما يدعو للغثيان!

كان الشارع ساكنًا وقد أطبقت الظلمة، بعض مصابيح هنا وهناك أرسلت سهامًا تحارب عتمة الليل، لكنها لا تفل فيه شيئًا. لا موسيقى لا صخب، بل هدوء ثقيل خيم على الشارع غير أن مولد الكهرباء ما زال يصدر ذلك الأزيز، لم يعد مزعجًا له بل أصبح هذا الصوت مقترنًا بالضوء! بالأمان.

استدار بعد أن أعطى السائق المتجهم أجرته، ميز زونجا جالسًا القرفصاء أمام باب البناية، تهلل الليبيري العجوز لرؤيته كالعادة وأقدم عليه يحييه، برغم اعتياده على كثير من الروائح المنفرة في منروفيا فإنه لا يستطيع أن يتجاوز رائحة زونجا! ساءل نفسه:

- ألا يستحم هذا الرجل أبدًا!
حكّ أنفه وأوما له وهمّ أن يتجاوزه إلا أن زونجا لاحظ توتره فبادر يسأله:

- ما الخبر Bossman؟ لقد عدت مبكرًا! هل هناك ما يقلقك؟

استثاره السؤال الأبله فرد مستنكرًا:

- ما يقلقني هو ما رأيت صباحًا! ألا تدرك ما يدور حولك!

هز زونجا رأسه وابتسم، رنا لحظات للشارع، وزاغت نظراته بين مارة ملتحفين بالإعتام، وجم للحظات ثم عاد يلتفت نحوه قائلاً بوجه جاد وبصوت من

بيوح بسر:

Bossmann - منروفيا مدينة تسكنها الشياطين،
أنا أعرف ذلك جيدًا!

اقترب من وجهه وأشار بسبابتي يديه إلى عينيه
وقال بجدية لم يعهد لها منه:

- رأيتهم بعيني في هذه الشوارع، لقد جئت
إلى هنا من قرىتي طفلاً وعشت في أنحاء هذه
المدينة إلى يومنا هذا، رأيت الشياطين تعبت
في أرجائها يقومون بأفعال غاية في الخطورة
والغرابة خاصة في الليالي المظلمة! رأيتهم
يقتلون في أوقات كهذه، لا يختارون، بل يحددون
رقاب من يقابلهم أيًا من كان! الناس يموتون
كذلك المحاربون والزعماء! هل تعلم من هو
صامويل دو؟

رد بتردد:

- صامويل دو الرئيس السابق؟

استدار زونجا إلى الشارع وهبط من فوق الرصيف
ومد يديه ومال بجذعه بأسلوب مسرحي يستحضر
الماضي، وقال وهو يدب بقدميه:

- هذا القار شرب من دمه! كنت أقف هناك عند
مدخل الشارع وجاءت الشياطين تحف سيارة ركب
فوقها محاربو برنس جونسون وقد ربطوا فيها
حبلًا غليظًا، في آخره أوثقوا صامويل دو من
قدميه، كانوا يجرون جثته العارية في الشارع، لقد
نظرت في وجهه كان مخضبًا بالدماء وبه بقية
من حياة! تساءلت وقتها كيف يسجل هكذا وهو
نفسه الزعيم الذي جاس هذه الشوارع في يوم
سابق مزهواً بانتصاره بعد أن قتل تولبرت! كيف
استطاعوا أن يوقعوا به؟ حتمًا إنها الشياطين!

صمت متفكرًا ثم أردف مشيرًا إلى منزل بالجهة
المقابلة:

- في ذلك البيت سكن تاجر أبيض، كان غليظًا جدًا
وصديقًا لدو، كان له حارس شرس ضخم البنية من

«كران» ساحل العاج، عندما مات دو أخرج المحاربون هذا الرجل وامراته عاريين، كانوا يركضون هنا والناس تقذفهم بالقاذورات، ورأيت الشياطين ترقص حوله، يتقاذفون رأس الحارس الضخم.

بعد أن أتم جملته أطرق، ثم تنهد بعمق فأتبع:
 - Bossman في بلد الشياطين هذه، البقاء ليس للأقوى! البقاء هنا للضعفاء الزاهدين! كل من يفتتن بالمال والسلطة تأخذه الشياطين، أما نحن الفقراء فنبقى، قد تحصد الرصاصات أرواح بعضنا، لكن الشياطين تأتي خلف أرواح المحاربين والأغنياء وزعماء الحرب. عندما تهب العاصفة تقتلع الجذوع العظيمة أما الحشائش فتبقى في الأرض! هم ذهبوا وأنا ما زلت هنا! أنا لا أملك شيئاً ولا أريد شيئاً، أنا أنام لا أخشى على شيء فليس لدي ما تطمع فيه الشياطين، هكذا نجوت.

أطرق، اقترب منه، تأمل وجهه، ثم رفع كفه ووضعها على كتفه وقال:

- أنت Bossman رجل طيب ولست تاجرًا فلا تخف الشياطين فهي لا تكترث للطيبين!

قالها ثم حك شعر رأسه بأصابعه القذرة وقد حارت عيناه في الأرجاء، ومن ثم عاد يقول له:

- لكن على أي حال احذر أن تصادفك الشياطين!

تلقت حوله لعله يرى ما يراه الليبيري العجوز، لاحظ بالفعل بعض السائرين في الظلام لا يكثرثون لما حدث ويعيشون هذه الملهاة بكثير من التجرد.

استدرك زونجا وسأله مبتسمًا:

- هل أحضر لك فتاة لتسليك؟

جاءت قصص زونجا لتنقله بعيدًا عن أحداث اليوم الثقيل، لا يدري لماذا ذكرته حركات البهلولة الليبيري بمنظر دراويش رآهم في مولد سيدي المرسي أبو العباس عندما اصطحه والده إلى

المولد أول مرة، كانوا يترنحون على طريقة زونجا!
تساءل كيف يوكل أبو عبد الله حراسة هذه
البناية لهذا المختل؟

ربما عليه أن يعيش هذه الحالة لكن كيف؟
همس شاردًا: البقاء هنا للفقراء الزاهدين!

**

(34)

طوت السيارة الطريق المتعرج بين غابات المطاط السامق، بدت له الأشجار في تراصها وشموخها وألوانها الباهية كحرس شرف اصطف على الجانبين يستقبل مقدمه.

كل شجرة كُملت على جذعها وعاء تفيض فيه من خير بلحائها، المرائي على امتداد البصر مريحة للأعصاب خالبة للب مثيرة للخيال، ألوان الطبيعة هنا غضة فاقعة لها ألقٌ مثير، لم ير في حياته مثيلاً لما يرى الآن، أو يتخلله هواء كهذا لا في الإسكندرية ولا في منروفيا أو في أي مكان آخر ساح فيه.

الطقس رطبٌ بعد نوبة المطر، المطر يُثير عطر الأرض فتحمل النسيمات تلك الروائح المتداخلة، عذراء ندية، تثير فرائسه تحتوي شجونه وتطمئنه، تميز أنفه عبق زهور وأديم وأخشاب وصخور، حشائش وأوراق وغدران، المطر يغسل وجه الأرض، تعلق منه حبات هنا وهناك تعكس أشعة الشمس فتتلاًلأ الوريقات والأغصان، المطر يغري الحياة أن تنبض بقوة في كل الكائنات.

يتأمل كل ما حوله عبر النافذة كطفل صغيراً طريق يتعرج بين أحضان الطبيعة، رفق من بين الجذوع في المدى مرجاً يمتد سهلاً، يحتضن بحيرة تلهو على صفحتها طيور، وذا لو توقفت السيارة وقضى عند تلك البحيرة وقتاً ليتأمل.

كم هي نضرة تلك الأشجار في سهولها سامقة في أحضان روابيها، الأشجار هنا لها جلال ساحر لا يستطيع تأويله.

دائماً تبهره عذرية مشاهد المحيط والسماء وهنا في ليبيريا اكتشف سحر الغابة، في كنف الغابة المفعمة بنبض الفطرة يستحضر خياله آدم يدخل جنة الله بعد الخلق الأول.

بعد عدة كيلومترات بين أحراش وغابات كثة من

أشجار المطاط يتفرع الطريق، فرع مُعبّد يصعد ربوة يعلوها مقر الشركة الماليزية لإنتاج المطاط، وآخر ترابيٌّ ينحني هابطًا بين أدغال كثيفة.

في طريقه مر ببعض القرى المنعزلة، بدت فقيرة خارج سياق العصر كأن الزمن يُطوي أمام عينيه فيقرأ صفحات من تاريخ التطور الإنساني، رحلته هذه تخرج به من نطاق المدنية إلى مرحلة حضارية ظنها غابرة، لكن ها هي حاضرة متناغمة مع محيطها لا تتحداه أو تعيد تشكيله، يري في أشكال الأكواخ المبنية طينًا ومعروشة قشًا ولباس السكان البسيط وأشكالهم ملامح لعيش الإنسان البدائي فيما قبل التمدن.

عيش بسيط في سياق تسيطر عليها الطبيعة لا الإنسان، حياة برية لا تشوبها تكنولوجيات معقدة ولا أفكار مركبة، مر بوجوه تحمل ملامحها فروقًا طفيفة فتكاد الوجوه تتماهى وتنمحي تبايناتها حتى البنى الجسدية تكاد تتطابق!

بعد برهة، بدأت السيارة تهتز بعنف فوق المدق الأحمر الذي شفته خطى المارين وأقدام الوحوش عبر التاريخ، ومؤخرًا دواليب السيارات التي تستطيع المرور من هنا.

أحجأ تعترض الطريق، تستحيل على غير سيارات الدفع الرباعي والسائقين المهرة، حفز ملئت من توها بمياه المطر فلا تظهر لأندريه القلق جدًا فلو أصاب السيارة مكروه لن يسامحه كلاوس!

الهواء الثقيل الرطب والترجرج المستمر منذ انحدرت السيارة في هذا المسلك الوعر جعله يشعر بالغثيان والإعياء لم يعد قادرًا على الاستمتاع بجمال الطبيعة حوله، يقاوم الإغماء قدر استطاعته!

الآن، علاقته بكلاوس شديدة الخصوصية، ما زال الألماني الفج متحفظًا لكن بدرجة أقل، أصبح مفهومًا إلى حد بعيد.

ما لا يفهمه عن نفسه هو كيف يراه أحياناً بعين
البغض والاحتقار وبعين التقدير والقبول أحياناً
أخرى!

مشاهدته للقاصر الهزيلة الخائفة تخرج من
مخدعه هي ورقة التوت التي سقطت عن ضميره،
أجبرته أن يرى كلاوس على حقيقة الشطط. ما
زالت نظراتها البائسة تثقب روحه هو، فكيف لا
تؤرق كلاوس! كيف تسول له نفسه قتل الطفولة
في كيان فتاة كهذه! ولماذا يصمت هو فلا
يراجعه في أفعاله المشينة هذه!

لماذا؟ تخاف منه؟ لماذا تقبله بكل أفعاله الفجة
وغطرسته غير المبررة وظلمه للعاملين بالشركة
وتكبره على كل ما هو منروفيا! لماذا لا يثور
عليه؟

أنا لا أقر ما يفعله في حياته الخاصة وأسلوب
إدارته للعمل وتصرفاته اليومية.

إذاً! لماذا تتوطد صلتكما يوماً بعد يوم! لماذا
يرتاح لك كلاوس؟ إن مجرد قبوله لك هو عار على
ضميرك!

بينهما صداقة وثيقة يود لو أنها لم تكن، بينهما
كثير من التفاهات، يتحركان معاً في مساحة
تقاطع، بعدها فضاء لا تداخل فيه، لا يحاكم
أحدهما الآخر، هو في ذاته يجد فيه نفسه ميلاً
للبرود والقسوة لكنه يقاوم نزوعه!

عندما يصارح نفسه يشعر نحوه بإحساس أقرب
للبنوة!

تباً! كيف؟ ليس في هذا الكائن شيء من غزال!
ربما يلتقيان على الوحدة، فكلاهما يواجه هذا
العالم فرداً، لكن بمنوال مختلف، هو يتحاشى
المواجهات في حياته أما كلاوس فيصارع كل
شيء! حتى ذاته المغبولة.

ربما هو ذلك! هذا ما أقدره في كلاوس!
المقاومة المستمرة، التحدي الدائم للحياة!

هي حياته ومنوالها فليعالجها كما يشاء!
لم أقدم إلى منروفيا لأقومه وأعلمه الرحمة
والأخلاق والتأدب مع عمال الشركة والعزوف عن
القاصرات!

يشعر أنه آثم، لكن لا يدري لماذا لا يستطيع
عقله أن يدرك ما يثقل روحه أهو الآن؟ أم
الأمس؟ أم غداً! شيء ما يعذبه، أشباحه تستبيحه
كلما خلا إلى نفسه.

عندما أمره كلاوس أن يذهب إلى الموقع حيث
يقطعون الأشجار الضخمة ليحصيها ويشرف على
تجهيزها تمهيداً لرحلتها الأخيرة إلى الميناء حيث
تقلها السفن الضخمة إلى وجهتها في إيطاليا
فتتحول إلى أثاث فاخر، خاف جداً!

تردد، وضاق صدره، الآن تواترت الأنباء عن هجمات
المتمردين على تخوم المدينة والمعارك التي
تتأجج بين الجانبين. أسر له السائق أندريه أن
وجهتهم هذه قريبة من خطوط المواجهة بين
قوات الحكومة والثوار وأنها تحمل نذراً لمخاطر
جمة على الرغم أنها لن تستغرق أكثر من بضع
ساعات محاولاً أن يثنيه عن الرحلة، لكن لم يجرؤ
أندريه على مجرد التفكير في مفاتحة كلاوس في
ذلك.

لكن لم يكن أمامه خيار!

كلاوس لا يقبل أعذاراً ولا يسمح برفض أوامره!
هو لم يحسم أمره بعد بشأن مغادرة منروفيا، لم
يفتح رحمة في الأمر.

استبد به القلق فأخبر رحمة بوجهته فتهللت!
قالت إن قريبتها على مسافة قريبة من الموقع،
وهي فرصة ليزور بيتها ويتعرف على أمها
وذويها فعلاً، الغريب أن الحماس والسعادة التي
طغت على سلوك رحمة بدأت قلقة إلى حد بعيد!
ارتاح للفكرة ولمصاحبة رحمة له في رحلته،

عندما فاتح كلاوس في أنه ينوي زيارة بيت بعض الأصدقاء بطرف المدينة عقب الانتهاء من مهمته، تعجب لكن لم يسأله من أو أين أو لماذا، بل أمر السائق «أندريه» أن يقله إلى وجهته التي ينشدها عقب انتهائه من معاينة الموقع شريطة أن يعودا في نفس اليوم.

رحمة لا تعول كثيرًا على أبناء الحرب! تتعمد تجاهل مجرد التفكير فيما يمكن أن تجلب من دمار أو قتل، تؤمن بنبوءة والدها بأنها جاءت رحمة من الرب لتنتهي الحرب، هي في ذاتها نقيض الحرب! بات ليلته يستمع لصوتها عبر الهاتف تحكي له عن طفولتها في القرية، عن أبيها وأمها وجدتها، تعده بطعام لذيذ ورقص وغناء!

صباحًا وجدها حاضرة قبل وصول أندريه، تناولا الفطور بشهية مفتوحة، تبدو واثقة متحمسة سعيدة، فاطمان لوجودها بجانبه ومرافقتها له! لا يدري لماذا ينظر إليها أندريه بمزيج من المفاجأة والسخط! تجاهلها السائق الحانق تمامًا، وهي استغربت أيضًا! لكنها فعلت نفس الشيء وتجاهلته! كأنهما على خصام على الرغم أنهما ما التقيا من قبل قط!

في سريره تمدد خائر القوى بعد عناء اليوم الشاق، أنهكته الرحلة والرجرجات. لم يصمت أندريه كثيرًا في طريق العودة وأخذ يقص عليه من أخبار الحرب والمعارك وكان قرار رحمة بالمكوث عند أهلها كان إهذابًا له بالثرثرة!

لاحظ أنه كلما اقترب من منروفيا يقل توتر أندريه وعندما دخل المدينة انفرجت أساريره وتلنفس الصعداء فلم تصب السيارة بأذى ونجا المسكين من برائن كلاوس!

منروفيا المدينة المعذبة التي هي بغية

المتمردين ومرتع مليشيات تيلور مثلت للمسكين الأمان الذي ينشده!

تفكر في أن الإحساس بالأمن مجرد وهم لا علاقة له بالواقع، فسكان هذه المدينة المنكوبة هم دائمًا الأكثر تضرراً ومعاناة من الصراعات التي تدور حول السلطة في ليبيريا! بينما من يعيشون بعيداً عنها فرصتهم في النجاة أكبر!

الأمان إحساس يتولد بدون اعتبار لحقائق الزمان والمكان. رحمة أيضاً تعيش أماناً غير مبرر لكنه يفيض عليه هو شخصياً برغم تناقضه مع ما يرصده في الواقع اليومي في الأسابيع القليلة الماضية! استرجع مشاهد اليوم الحافل، موقع قطع وتجهيز الأشجار بدا له درامياً مهيباً، جذوع مهولة أقطارها تفوق طوله، مجذوزة مسجاة فوق وجه الأرض وقد ربطت بجنازير حديدية وكأنها عبيد يُخشى فرارهم!

خلف الجذوع ربوة، ترشق فوقها عمال الشركة الذين صمتت مناشيرهم وتوقفوا تماماً عن العمل لمقدمه، فبدوا لناظريه عن بعد كجذوع أشجار ضعيفة قطعت أغصانها، عيونهم القلقة تتابع تحركاته باهتمام، لم تستغرق زيارته في الموقع وقتاً طويلاً، فقد أحصى الجذوع المختومة التي جهزت للتصدير، وسجلها في دفتره في أسرع وقت ممكن. الرطوبة خانقة والأرض وعرة والهوام تناوشه من كل اتجاه، الجميع في الموقع يتفرسون فيه، تبدو هيئتهم غريبة مختلفة كأنهم من زمن سحيق أو بلد غير هذا، منفصلين تماماً عن الواقع المنروفي المألوف، كان هو يتصبب عرفاً وهم لا تضايقهم الحرارة أو الرطوبة الخانقة، كان شمس الظهيرة التي جثمت فوق رؤوسهم وتصلبهم كجلاد لا مناص من سطوته ما هي إلا حدث آخر في حياتهم المجحفة! يقطعون بأيديهم جذوع أراضيهم ليأخذها الغرباء فيصنعون أثاثاً وهم ينامون على الأرض!

عندما عاد وركب السيارة بدأ أندريه أكثر توترًا وضيّقًا فهو يتحسب أن يحدث مكروه للسيارة فوق الطريق الوعرة المؤدية إلى حيث قرية رحمة، بعد عناء الاهتزاز حينًا عاد الطريق ممهّدًا وانفتحت الرؤية وهدنت الرجرجات، فسارت السيارة في هدوء على أنغام أفريقية رتيبة حتى ولجت القرية التي بدت صغيرة بسيطة، وجوه كثيرة تحمق في السيارة وراكبيها، تتبعها بحماس.

بدأ له أن الجميع يتوقع مقدمه يستقبلونه بترحاب غير مبرر، ما إن وصل أمام منزل عائلة «ويليامز» حتى قفزت رحمة تهرول نحو بيتها بسعادة كأنها طفلة، غابت داخل المنزل برهة ثم عادت إليه فسحبته من داخل السيارة وقبلته على خده، أشار لأندريه ليوقف سيارته عند شجرة عظيمة وارفة الظل، ففعل بصلف وتكلف.

عندما خرج من السيارة متوجسًا اندهش لما رأى جمعًا غفيرًا جاء يستقبله، عشرات من رجال ونساء شيوخ وأطفال، كان منهم جلوس فلما رأوه انتصبوا ولا يزال يتوافد على المكان آخرون ممن لحقوا بالسيارة، تلاقت عيناه بعيون تحديق في الغريب كأنه قادم من كوكب آخر، لقد اعتاد تلك النظرات المستفهمة الشغوفة ولم تعد لها تلك الرهبة التي أثقلت صدره في بدايات عيشه بهذه الأرض. على العكس انتابه إحساس بالارتياح والأمان لأنه في حضرة رحمة وذويها، ترحل بينهم يحييهم مبتسمًا، خرج من بينهم طفل شجاع بادره ومد يده لمصافحته، انحنى يصفحه، نظر في عينيه فوجد خفر الطفولة وبراءتها، ثم طفل آخر فرجل فأخر فأخرى، تجمعت حوله الوجوه ما بين متسائلة ومبتسمة، تحسسته الألف على استحياء، ثم بشغف! عرف من بينها يد رحمة التي امتدت ليده وسحبته من بين الزحام، مرت بينهم مزهوة شامخة حتى وصلا إلى حيث باب المنزل.

سيدة عجوز تجلس على كرسي ممتاسك على

قدمه في بهو المنزل الصغير الذي بدا كقلة من البيوت التي رآها في الطريق وقد بنيت على طراز غربي خارج سياق أكواخ البدائيين، بناء من الطابوق الأحمر يعلوه قرميد، لكنه كغيره من البيوت مفتوح الأبواب والنوافذ.

احتضنت رحمة العجوز وقبلتها بحب بالغ وأخبرتها أن هذا هو صديقها الذي حدثتها عنه، وها قد جاء للقاءها وتحيتها كما وعد، رفعت العجوز على وهن يداً أعيائها الزمن ونظرت في وجهه بعينين لم تعد قادرة على تمييز التفاصيل، ثم ابتسمت له بثغر فقد كثيراً من النواجد!

تمتمت بكلمات لم يفقهها لكن أحس أنها ترحب به، قربت له رحمة كرسياً فجلس بالقرب من العجوز وقفزت هي تجلس في حجره، بدا متحرّجاً وعيون كثيرة تنظر إليه بشغف، أما رحمة فقد تلاًأت في عينيها سعادة بالغة وقالت مشيرة إلى صورة قديمة في صدر الحائط المقابل لشاب أفريقي وسيم يرتدي قميصاً ورباط عنق، هذا أبي «تشارلز ويليامز» كان مدرساً في المدرسة الثانوية بمروفا في الثمانينيات مات شاباً بعد عدة أعوام من التقاط هذه الصورة كان عضواً حزبياً مرموقاً.

حضرت الأم، تقدمت على استحياء، قامت رحمة من مجلسها وضمت أمها ثم سحبتها من يدها إلى حيث هو، قدمته إليها.

بدت الأم خجلى سمحة، مدت يدها تصافحه وقد أمسكت ساعد الذراع الأيمن بكف يسراها كدأب البسطاء هنا عندما يصفحون ذوي شأن، في رحمة كثير من ملامح أمها إلا أن قصر قامّة الأم أنباه أن طول رحمة من أبيها.

قامت رحمة بلا تردد إلى حقيبة حملها معه، بها لفافات أوصت بها وأعدتها له صديقتها ميمي مديرة متجر البرجي التي سلمته اللفافات ليلة الرحلة بعدما أخذت منه مبلغاً زهيداً. أخرجت رحمة لفافة من الحقيبة أعطته إياها ليقدّمها

للأم وأخرى للجدّة، تلقفتا اللفافتين شاكرتين، كانت الهدايا من أقمشة أفريقية مزركشة غير مخيطة، ثم أخرجت رحمة من الحقيبة ملء كفيها من الحلوى بهية الألوان ووزعتها بين الأطفال المتحلقين حولها.

رحمة تملأ الأجواء حيوية وسعادة بابتساماتها ومداعباتها للجميع، تشع فتنة وفخارًا، تلك الابتسامة الصافية تدغدغ أوتار قلبه وتزين له كل ما حوله فتسبر سر الكون بأسره فيرى فيه جمالًا وسحرًا وتتبدد كل أشباحه، يا لها من إنسان عجيب كيف لها أن تكون بهذا الجمال والنقاء بالرغم مما حدث ويحدث لها وحولها!

أفرغت كل ما لديها من حلوى وانفض الصغار من حولها، ذهبت إلى طاولة قريبة بهو البيت، تناولت من فوقها ألبوم صور عتيقًا، وضعته بين يدي الجدّة، وجلست القرفصاء بجوارها في مقابلته تنظر إليه نظرات تفسر الأمل والهيام، ما إن تلقفت الجدّة ألبوم الصور حتى دبت فيها حياة غريبة أخذت تقلب الصفحات تتحسس الصور وتحكي عن هذا وتلك وعن ذاك اليوم وذا التاريخ.

كل شخص وكل حدث في الصور جلي حاضر في ذاكرتها، بدا له أنها تحكي هذه القصة للمرة الألف. لم يفهم شيئًا ولكنه استشعر الحبور في صوت العجوز الهادئ بإيقاعه البطيء وهي تبوح بما كُنّته ذاكرتها.

تمد الجدّة يدها إليه من حين لآخر فتلمس ساعده وترسم أشكالًا في الهواء، تشير له لينظر إلى تفاصيل الصور، بدت رحمة سعيدة وهي تسمع حكايا جدتها مجددًا، تترجم له جملها الأفريقية، تنظر في وجهه فتفهم لغة عينيه فتطرق في خفر، من بين الصور صور لها ولأبيها وأمها وأخوتها، لاحظ أنها مبتسمة في كل الصور!

قادتته إلى داخل المنزل البسيط في أثنائه،

أشارت إليه حيث غرفة أبيها وأمها ثم غرفة أختها وصغارها ثم غرفتها، بها سرير لمفرد ومراة وخبانة خشبية بغير باب وحصير بالأرض.

قالت له إنها تنام هنا وحدها بعد أن ماتت جيسي، لوهلة أحس الحزن يغزو محياها إلا أنها عادت تتهلل قائلة: تعال سأريك الأرجوحة بالفناء الخلفي، إنها هناك منذ صنعها أبي!

هرولت إلى الفناء المحاط بعريش وأشجار لا تفصله عن المنزل الذي يليه بطرفه الأقصى إلا شجرة هائلة سامقة واسعة القطر، تدلى من فرعها فتيل سميك بطرفه دولاب مطاطي به أثر من طلاء أبيض باهت، وقفت رحمة فوق الدولاب ممسكة بالفتيل تتأرجح بخبرة سنوات طوالٍ من اللعب هنا!

شمس فتية تبت حرارتها في الأرجاء فالتجأ إلى ظل جدار المنزل، لم يدخل منذ زمن، أخرج سيجارة أشعلها وقف يرقبها تتمايل حرة مع الريح كفراشة، أو كأنها فرع لتلك الشجرة الأم يترنح على أنغام معزوفة ربح!

باغته أنها تحارب حزناً يغزو روحها وهي تتأرجح فوق الإطار بكل قوة لتهرب من الأسى الذي يلاحقها!

كل منا يمتحنه الحزن في مناحي من الرحلة، يقسو في أحيان ويرق في أحيان، من البشر من يصاحب الحزن، ومنهم من يقاومه، وكل له ما يبرر مسلكه.

أما هو فالحزن في خلده أنقى وأصدق المشاعر الإنسانية، في رحم الحزن تتخلق الرغبة في السعادة ومن فرط الحزن نهرب للنسيان، الحزن إن وفر في مهجة أحدا يبقى حاضراً وإن تخفى في ابتسامة تتوارى، أو ضحكة تتصنع، الحزن كالطاغوت لا فرار منه إن تملك من نفس ليلبسها ثوب الشجن ويغتسل بالدمعات التي تفيض بها الروح. قد يعتصر الروح حتى تهلك، لكن الحزن

أيضاً هو ما يلهم الفن ويرقق الإحساس ويرفع
 الإنسان فوق حيوانيته، يا لهذا الحزن كما يلهب
 الألم يلهم الأمل.

تركت الأرجوحة واتخذت طريقها عائدة إليه تخطو
 بتؤدة، وقفت في ظله فاعتدل، بينهما نظرة
 سبرت غور رويهما، فتح يديه واحتواها على
 صدره، قر وجهها فوق ضلوعه وأرخی ذقنه فوق
 رأسها، استقرت في دعة وقد غمرتها السعادة،
 تنهدت وتدحرجت دمعة على خدها الأسيل تلمع
 تحت ضياء الشمس!

تهياً له أن يسمع صوت دفقات رصاص قادمة
 من بعيد، لكنه قرر أن يتجاهل ذلك وينصت لصوت
 مولد الكهرباء! بات ليلته هذه وحيداً لكن حالماً
 مطمئناً.

**

(35)

ساعة يجزؤون خطاهم بالطريق تائهيين، وجوه متسائلة تبحث عن إجابات في وجوه حائرة. أشباه أمساخٍ بشرية، أشباح من لحم ودم، حزنٌ خوف توجس، قلوب ترفرف في أقفاص الصدور التي كلت الحصار والترجيع والقتل!

رأى البرجي وقد تحلق بعض المستجدين حوله فأخرج لهم ما في جيبه ثم نهرهم ليبتعدوا على عكس طبيعته السمحة في معاملتهم!

أغلق أبو عبد الله المتجر عصرًا على غير العادة، فالبرجي لا يغلق متجره إلا لغروب الشمس، الشارع ما زال يعج بأقبيه على الرغم من إغلاق كل المحال التجارية في المنطقة مبكرًا!

اقترب منه فأوماً له بفتور، سارا كتفًا بكتف صامتين إلى حيث بناية بشارع قريب يسكنها «أبو حسين» رفيق درب البرجي.

في مسيرهما لم يحدثه بجديد لكنه يستشعر القلق في سمات وجه التاجر اللبناني المهموم بتجارته وتحسبه لدخول المتمردين للمدينة، فكعادة المنتصرين في هذه البلاد يحتفلون بالنصر باغتنام ما تطاله أيديهم وأول ما تمتد إليه الأيدي هو مال التجار!

سبق وأن سمع البرجي ورأى من أفعال المليشيات إذا دخلوا قرية فعاثوا فيها، وخربوا ديارها وسرقوا ونهبوا ما تصل إليه أيديهم.

أبو عبد الله العنيد المتفائل المثابر الخبير الواثق يحس بالإحباط لأول مرة! ليس خوفًا من الحرب أو الموت، فهو إنسان قدرى يعرف أن أجله بميقات هو حتمًا ملاقيه سواء بحرب أو بغيرها، لكن ما يحبط البرجي هو فتور الهمة فلا طاقة له بأن يعيد بناء ما سيخربه هؤلاء. لقد شاخ بعد أن عاند أقداره كثيرًا وسعى خلف حلمه مهما واجه من

المشقة والعراقيل، ربما عليه الاستسلام الآن والهرب مع الآخرين فليس في الإمكان العودة إلى الصفر!

في بيت «أبو حسين» تجمع عدد أقل من الصحاب هذه الليلة، فمن التجار من سافر بالفعل، ومنهم من يعكف على تصفية تجارته ولملمة حقائبه ليفر. كالعادة جلس أربعة بينهم أبو عبد الله إلى طاولة لعب الورق، لكن لا صخب ولا قهقهات ولا «كروت» تتداول، نور خافت، رائحة التبغ، غناء أم كلثوم وقدر الشاي يغلي وقد كاد ماؤه يجف فوق الموقد الكهربائي القريب، الجميع واجم مهوموم بمآل الأحوال ومرهق من متابعة أخبار مواجهات الحكومة والمتمردين.

أشعل البرجي سيجارة وقطع أبو حسين الصمت محدثاً بأن الثوار قتلوا Bulldog - أحد أهم قادة ميليشيات الرئيس تيلور- وألحقوا بالقوات الحكومية هزيمة موجعة عند الجسر الجنوبي القريب من المطار ويبعد أقل من ساعة عن وسط المدينة، ولولا قيام مجموعات أخرى من محاربي تيلور بالتدفق نحو الجسر لكان المتمردون بيننا الآن.

صمت لبرهة وعاد ليسهب بأن شهود عيان قالوا إن المعركة كانت حامية وأن الدماء سالت من فوق الجسر، قوات تيلور حوصرت فوق الجسر عندما فتح عليهم المتمردون الكامنون النيران بكثافة من الجهتين وضربوهم بقذائف الأربعة جي، تساقطت الجثث في النهر، منهم من قفز هرباً غير أن المتمردين التقطوا الـ Bulldog بعد إصابته وقطعوه حباً!

أطرق ثم أتبع قائلاً: عدد كبير من الرفاق كانوا أذكاء فقد سافروا منذ أيام تحسباً لما يحدث الآن، كان من الغباء أن ننتظر هنا حتى هذه اللحظة! أقن بعض الحاضرين على مقولة أبو حسين،

وآخرون تحدثوا بأخبار معارك أخرى وحصار
 المتمردين للمدينة حتى إن الطريق إلى المطار
 لم يعد آمنًا، ذكر أحدهم أن ابن عمه كان مسافرًا
 مع أسرته فخرجوا له من الأحرش وأخذوا السيارة
 والأموال والأغراض، فعاد سيرًا على الأقدام بعد
 أن خسر كل شيء، حمدًا لله لم يقتلوا العيال!

زفر البرجي في ضيق فقد وصلت إليه الأنباء
 أيضًا وأيقن أن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ
 بالنسبة للرئيس تيلور وقواته. ما يعلمه وأخفاه
 عن رفاقه أن أعدادًا من مقاتلي تيلور بدأوا في
 الفرار، وأن المتمردين حصلوا على أسلحة ثقيلة
 وبنادق آلية حديثة ومعدات أحدثت تفوقًا نوعيًا
 لصالحهم! لكنه قال متحدثًا بدون حماس بأن الحرب
 كر وفر يوم لك ويوم عليك ولم يحسم أي شيء
 بعد!

أردف بأنه قد علم أن «القذافي» قد بعث بفرقة
 مدربة ومجهزة لمساندة قوات تيلور ومن المتوقع
 وصولها خلال أيام وهو ما سيقرب موازين الأمور
 لصالح القوات الحكومية!

صاح أبو حسين:

- يا خيِّ ما في أيام! راح يصيروا هون بأي لحظة!
 شو بك إنت! أمريكا ما بتريد تخليه، تيلور أيامه
 بتنتهي، ما بدك تعترف عا رباحتك!

قالها ثم قام مغتاضيًا إلى الشرفة، أشعل
 سيجارة ثم مال يطالع الشارع الذي يدنو عن
 شرفته بطابقين فقط، بدا أن أعدادًا من سكان
 التخوم بدأوا يتدفقون إلى وسط المدينة والأحياء
 المحيطة للاحتفاء بشوارعها من المعارك التي
 تستعر في أماكن سكناهم.

يصل إليه همس الخائفين وأحاديث الحناجر
 المرتجفة تحكي عن أهوال ما رأت! أو ما برأسه
 وقد حسم أمره بالفرار غدًا، لكن كيف؟

في فراشه، أسند رأسه إلى ساعده يحدق في الظلام، يستعيد كل التفاصيل التي سردها اللبنانيون ومشاهد الشوارع التي أضحت تضم مشردين يرتسم الخوف في ملامحهم، لا يدري الكثير منهم ماذا يفعل غير الالتجاء للعزاء يحتمون بشوارع منروفيا من الحرب التي أصبحت واقعا، لعل زونجا كان صادقا عندما قال إن الشياطين تجوب الشوارع!

خائف، يضيق صدره ويتوجس لكل صوت يتناهى إلى مسامعه. عليه أن يفكر جديا في الفرار، البرجي الذي كان مصدر الثقة يبدو كالجَميع خائفا حائزا، لا بد أن يحدث وحيدا صباحا. أو ربما عليه التوجه للسفارة الأمريكية.

وضعت رحمة يدها على صدره سألتها عما يشغل باله! رد:

- إنها الحرب بالتأكيد!

- الحرب بين فريقين يتنازعون السلطة والمال وما شأننا في ذلك، لقد مرت بنا أحداث كثيرة دامية قتل فيها الكثيرون لكن بقينا نحن، لا علاقة لنا بمن ينتصر أو يهزم!

- ألم تقولي إنهم يقتحمون القرى ويقتلون سكانها؟

- نعم، لكن تلك القرى التعيسة لم تحصن نفسها، لكن في مقابل ذلك عشرات القرى الأخرى ما زالت تعيش في سلام، قرينتنا مثلا تخضع لحماية «جوجومان» عظيم استطاع تأمينها وتحصينها لسنوات طويلة فلم يمسسها سوء! ولا عليك إن دخل المتمردون منروفيا سنذهب نختبئ في بيتنا حينما حتى تستقر الأوضاع ثم نعود إلى هنا!

- رحمة! أنا قررت أن أرحل!

- ماذا! وماذا علي؟

- ستأتين معي بالطبع.

- تهللت فرحًا وقامت من مرقدها ثم ألقى برأسها على صدره وضمته بقوة قالت:
- صحيح؟ سنسافر؟ ستأخذني إلى مصر؟
- نعم، أنا لا أتخيل الحياة بدونك!
- كم أنا سعيدة لسماع كلماتك هذه، كنت دائمًا على يقين بأنك تحبني وأنت لن تتركني.
- هل عندك جواز سفر؟
- كلا!
- وماذا سنفعل إذا؟ كيف ستسافرين؟
- لا تشغل بالك لي صديقة ستساعدني في استخراج جواز سفر بسرعة.
- نعم عليك استخراجَه بسرعة حتى أتمكن من ترتيب السفر وتأشيرات الدخول مع السفارة.
- صديقك يعمل هناك أليس كذلك؟
- نعم.
- أنا حقًا سعيدة سأصحبك إلى بلدك وأرى أين ولدت ونشأت.
- غدا لا بد أن تستخرجي جواز السفر.
- لا تقلق.
- يتعجب! كيف يمنحها وهو الخائف القلق المهزوز كل هذا الأمان! كيف تنظر إليه بهذه الثقة في مستقبلهما معًا؟ هي لا تدري أنه هو من يعول عليها لإنقاذ مستقبله من ماضيه. بالرغم أنه بقي مؤرقًا طوال الليل يتناهى إلى سمعه على طول المسافة الهمهمات والأناث وصدى طلقات ودوي انفجارات، إلا أن رحمة نامت في سلام على صدره كطفلة!
- سمع شهقة تأتي من مكان بعيد سرت رعدة في كيانه، إنه الموت حصد روحًا أخرى.
- هل أموت هنا!

(36)

بعد عناء المرور بين الناس الذين تزدهم بهم الشوارع والطرقات،

قدم إلى العمل باكراً، فلم يستطع النوم في ليلته، ولم يفتح البرجي متجره، منذ ولج إلى باحة الشركة استشعر حالة من التوتر وعدم انضباط غير معهود بالمكان. كما لاحظ أن عدداً من العاملين لم يحضروا للعمل اليوم بالرغم من العقوبات الرادعة التي يقررها كلاوس على المتقاعسين!

يتناقل من حضر أنباء المواجهات الدامية والقتل والنهب والنازحين. أقبل عليه البعض يخبره أن المعارك بالفعل دخلت منروفيا، بينما ينفي آخرون الخبر. القلق والتحفز يطل من جميع العيون.

عندما دخل على كلاوس مكتبه، وجده في منتهى النشاط، مرتدياً ملابس كمن سيخرج في رحلة صيد وقد حف ذقنه وصفف شعره بعناية وتحمم، لا تفوح منه رائحة الخمر المعتادة، لا يستشعر فيه قلقاً أو خوفاً، بل وجده متحفزاً متحمساً. لمح في عينيه جنوناً أشبه بالذي يلمحه في عيون جنود المليشيات!

اتخذ كلاوس قرارات استثنائية، أمره بحصر وترتيب كل وثائق وملفات الشركة وكل العقود لإيداعها الخزانة الحديدية التي اقتصرت فيما سبق على أموال وأوراق لا يعلم بأمرها غيره، كما أمر بإغلاق البوابة الحديدية الكبيرة ولا تُفتح إلا بأمر مباشر منه. يحمل مسدساً ظاهراً في جنبه ووضع سلاحاً آلياً فوق المكتب. سأله:

- أما زلت خائفاً؟

أطرق ولم يجب!

زفر كلاوس حائفاً وتمتم بالمانية تبدو كما لو كانت سباباً، ثم فتح درج مكتبه مُقطباً عجولاً منتفخ الأوداج، أخرج المسدس الذي حاول إعطائه إياه في ليلة سبقت، وأمره حسفاً:

- خذ عليك اللعنة! لن يحمل السلاح هنا إلا أنا وأنت، وتذكّر إن لم تقتل تُقتل! إن هؤلاء لن يتركوا في جسدك نقطة دم إن تمكنوا منك فعليك أن تكون مفترسًا لا فريسة! فهمت؟
تلقف السلاح دون تردد، كان على خوفه أقل ارتعادًا وأكثر تماسكًا عندما تلقف السلاح في يده للمرة السابقة!

يستشعر انقباضًا في صدره وتشويشًا في إدراكه، خيل إليه في لحظة أنه يعيش أحداثًا سينمائية ستنتهي ليخرج من قاعة العرض ويعود للحياة إيقاعها المعتاد!

جلس إلى مكتبه يحاول استجماع شتات عقله ليستطيع التركيز في إنهاء ما كلفه به كلاوس، يسمع من وقت لآخر أصوات إطلاق الرصاص وتفجيرات في المدى!

أيقن أن هذه المواجهات في محيط منروفيا أو بضواحيها القريبة، حادثه وحيد منذ قليل وأخبره أن عليه لملمة أغراضه وترك المدينة في أقرب فرصة فالأوضاع تتدهور بشكل متسارع، قوات تيلور تحت ضغط رهيب في جبهتي شمال وجنوب شرقي المدينة. نبهه إلى أنه إذا لم يستطع السفر قبل سقوط المدينة خلال الأيام القليلة القادمة عليه التواصل مع السفارة الأمريكية أو يمكنه القدوم إلى السفارة للاحتماء كخيار أخير.

أراد الاستئذان للملحة أغراضه إلا أن كلاوس لم يستجب وأصر على إنهاء الأعمال أولًا، يتحين أن ينتهي سريعًا ليذهب فيلتقي رحمة ويصطحبها إلى وحيد ليملحها تأشيرة السفر ثم يغادران هذا الجنون معًا إلى مصر على متن أول رحلة مغادرة.

شعورٌ ثقيل بأنه محاصر، نذر شؤم تحوم فوق رأسه، قام لينفث دخان سيجارته عبر الشرفة.

مرائي المحيط الهادر لا تنهى عن شيء مما

يحدث في المدينة أو بالتخوم، الخبرة الهادئة بالقرب من الشاطئ على حالها، لا شيء قد اختلف هنا، ربما عليه أن يهدأ قليلاً حتى يتمكن من إنهاء العمل وترتيب أفكاره بشكل جيد.

فجأة! صوت دفقات رصاص قريبة جداً، تلاها قرع مجلج على الباب الحديدي الكبير ثم ضجيج ومرجّ قادم من صوب الباحة!

دقات قلبه تتسارع، لا يدري ماذا يحدث أو ماذا يفعل الآن! هرع خارجاً يركض فوق الدرجات الهابطة إلى حيث تستعر الأحداث.

تسمر في مكانه عند أدنى درجات السلم واقشعر جلده حين رأى من موقفه كلاوس وقد سبقه وتوسط الباحة، وقف وحيداً رافعاً سلاحه الآلي، يعطي تعليماته للعاملين المرتبكين الجزعين بالأبواب المفتوحة الحديدية، بعضهم ينقل أغراضاً ثقيلة يضعها خلفها حتى يصعب اقتحامها، تلاقى نظراته مع نظرات عابرة من كلاوس، وفم تحمل أي إيماءات أو تعليمات، فكر أن يتقدم ليقف بجانبه لكنه تخاذل!

الحديد يُقرع بعنف! نادى صوت جهوري من الخارج:

- افتحوا الباب وإلا هשמنا! نحن القوات الثورية ولا نريد قتلكم أو قتالكم إلا إذا أردتم أنتم! افتحوا الأبواب هذا إنذار أخير!

أطبق الصمت على المكان، لا صوت ولا حركة، تعلق كل العيون بكلاوس تنتظر رد فعله.

رأى من موقفه وجه كلاوس صارماً مُتحدّياً عندما أطلق دفقة من رصاص في الهواء ثم صرخ بأعلى صوته:

- عليكم مغادرة المكان الآن! لو حاولتم الدخول نحن مسلحون وسنقاتلكم! ثم أطلق دفقة أخرى من الطلقات وتأهب مصوباً سلاحه وُجّل تركيز ناظره على البوابة الكبيرة، عيناه تلمعان

وارتسمت على محياه ابتسامة مجنونة لا يستطيع تفسيرها!

مرت دقائق معدودة من الصمت، ثم دوى صوت انفجار ضخم يصم الأذان، تطايرت أجزاء من البوابة الضخمة وتناثرت شظاياها في المكان، هب التراب ليختلط بالدخان!

كان التفجير شديدًا فارتدى من كان قريبًا من الباب جريحًا أو قتيلاً حتى كلاوس اختل توازنه فوقع على ظهره وارتطمت رأسه بالأرض.

أما هو فقد حماه موقفه في مدخل المبنى، يتنفس بصعوبة ولا يستطيع أن يميز شيئًا عبر الغبار المتطاير، اتخذ خطوات معدودة للأمام، دقق فسمع ولاحظ دخول رجال مسلحين عبر البوابة، دخلوا مختالين متحفزين يطلق بعضهم أعيرة في الهواء للترهيب والزهو، فر من استطاع من العاملين للشارع تحت أعين الدخلاء بينما خر من ظلوا بالمكان على الأرض مستسلمين متوسلين! كان أحدهم يئن لجرح ينزف قرب البوابة لم يجرؤ أحد على التقدم لإسعافه!

تراجع هو ما تقدمه من خطوات على حرص، ليختفي في ظلمة مدخل المبنى مُحاذراً أن يراه أحد المقتحمين، تفرص مختبئاً عند طرف السلم يراقب!

رأى من مكمته كلاوس يقوم مترنحاً بعد صدمة تفجير البوابة، استعاد توازنه بصعوبة، وجهه تخضب بأتربة وركام، الدماء تقطر من جبهته نتيجة إصابته بشظية، وقف أحد المحاربين فوقه مصوباً سلاحه إليه، أمره صارخاً أن يظل على الأرض ويلقي سلاحه، لكن كلاوس لم ينصع، انتصب على قدميه ورفع سلاحه يصوبه في اتجاه المقتحمين! لم تمهله رصاصاتهم والتهالت عليه كالمطر فارتد إلى الأرض تفور دماؤه من رأسه وصدوره!

لدقائق ضقت مسامعه، غام كل شيء أمام عينيه، لا يستطيع السيطرة على انفعالاته، جزع لما رأى من بشاعة مقتل كلاوس.

انسحب زاحفًا فوق السلم إلى أعلى، لسبب ما التجأ إلى مكتبه، لم يجر ماذا يفعل.

أوصاله ترتعد بشدة، جال بخطى حائرة ما بين الباب الذي أوصده والشرفة المشرعة، ولج الشرفة نظر إلى الأسفل، يستحيل أن يقفز على الرغم أنه يبعد عن الأرض مسافة طابق واحد.

لا خيارات أخرى أمامه!

هداه تفكيره أن يتدلى متشبهاً بالسور الحديدي حتى أدنى نقطة ممكنة فتقترب المسافة بينه وبين الأرض قبل أن يقفز!

سمع صوت طلقات قادمًا من الباحة وأصوات توسلات العمال وصياح المقتحمين، فسارع بارتقاء سور الشرفة متشبهاً بالحافة، أخذ يتسلقها هبوطًا، لكن ما لبثت وانفكت قبضته وهوى بضعة أمتار فارتطم جسده بالأرض!

أحس بدوار وعدم اتزان لكنه قاوم أن يفقد وعيه فاستجمع قوته ليقف، يستشعر ألمًا شديدًا في كتفه اليمنى وجانب رأسه، قام وتحامل على نفسه وهرع مترنكًا فوق الصخور هبوطًا إلى حيث الخربة القريبة!

كان المكان موحشًا به نبتٌ كثيف قد اشتجر، لكنه بغريزة البقاء تخطاه ثم تخطى بقايا السور المتهالك بسهولة ودخل غرفة بالبيت المتصدع عبر فتحة بجدارها الخلفي، كل أوصاله تنتفض، ضربات قلبه تتسارع، أنفاسه تنن، لا يستطيع تمالك أعصابه.

تناهى إلى سمعه أصواتًا في مقر الشركة، اختبأ خلف الجدار بالقرب من الفتحة التي دخل منها، كان سقف الغرفة قد سقط فلا يخفيه، فتقرصص محتميًا بالجدار خشية أن يراه أحد المقتحمين،

اقترب من الفتحة واختلس نظرة، فإذا بأحدهم يطل من شرفة مكتبه وآخرين من شرفة شقة كلاوس في الأعلى، تراجع في مخبئه خوفاً من أن يلمحه أحدهم، تساءل هل رأوه وهو يقفز من الشرفة؟

أحس بالأم في رأسه من وقع الارتطام بالأرض، رفع يده إلى جانب رأسه فأحس بلزوجة وحرارة دمه، نظر إلى كفه وقد لطختها دماؤه فانهار بين ألقا وخوفاً!

لم تمر دقائق وفجأة اشتعل الموقف مرة أخرى، صوت إطلاق نار كثيف وصراخ ورمصاصات ترتطم بالحوائط، حُقن أن قوات تيلور جاءت خلف المقتحمين، كان أجيح المعركة الدائرة على أشدها بالشركة يصم الآذان.

من بين كل الأصوات، يميز الموت بوضوح، الشهقات المبتورة والصرخات المفجعة، وضع كفيه فوق أذنيه وقد عجز عن الحركة، ذعره وحالة جسده تمنعانه من الفرار، أخذ يعول مرتعداً ينتظر مصيره، وقد ظن أنه هالك لا محالة فسرعان ما سيجده المقتحمون أو مليشيات تيلور ويلقى مصير كلاوس، لكن في هذه الخربة!

(37)

لا يدري كم لبث في غفوته، كان الظلام قد حل
وسكن كل ما حوله، لوهلة بينما يفيق تناسي
عقله ما مر به في يومه من أحداث عسيرة، عندما
تذكر ظن أنه كان كابوسًا، لكن تقرضه غير المريح
وآلام كتفه دحضت أمله في أن ما مر كان من
أضغاث أحلامه!

فتح مغاليق عينيه فأدرك أن الكابوس لم ينتهِ
بعد! تداعت على عقله أحداث الاقتحام، أشكال
المتمردين وأصوات الرصاص، الصراخ القتل وتشوه
وجه كلاوس ودماءه فأطرق بانسًا خائفًا.

أشعة يبعث بها البدر عبر السقف المتهدم
تسمح لعينيه بأن تميز بعض ما حوله، الصمت
مطبق بالخربة إلا من صرير وحفيف الهوام وهدير
الموج المتكسر عند الشاطئ القريب.

تحسس جرح رأسه فاستشعر تجلط الدم تحت
أنامله، اتكأ على ساعده السليم وزحف على عجزه
في حذر إلى حيث فتحة الجدار التي دخل منها.

مال فأطل ينظر إلى حيث مبنى الشركة، كل
شيء مظلم هاجع كئيب. بينما هو يرنو نحو شرفة
مكتبه شعر بحركة خلفه، استدار من فوره، لمح
خيالًا يمر أمام باب الغرفة، شهق لكن كتم صوته
ووضع يده على فمه خشية أن يسمعه من مر
هناك.

زاد ألم كتفه لما رفع كفه إلى فمه. ازدرد ريق
حلقه وعاد فألصق ظهره بالحائط، صدره يضج
بأنفاسه الجزعة التي بالكاد يكتمها، كتفه ينبض
ألمًا وكذلك موضع الجرح برأسه!

ظل على حاله دقائق لا يسمع أو يرى شيئًا، قرر
أن يجازف ويخرج من الغرفة فقام على وجع يحاذر
أن يحدث صوتًا، عندما وصل إلى الباب شعر أن أحدًا
ما خلفه، استدار فرغًا، رأى عينين بارفتين

تحققان فيه عبر فتحة الجدار، هرع عبر الباب يتحسس طريقه في المكان الذي تهدمت أجزاءه من سقوف وحوائط على ما حوى، يتحسس موقع خطواته المتخبطة يتلفت يمناً ويسرى بحثاً عن تلك العيون التي رآها آنفاً.

فجأة سمع فحيحاً واضحاً في المكان كأنه لأفعى تتربص! شهق وجذّ عبر الهدم وبقايا الأثاث المكسر قاصداً الخروج من البيت إلى حيث الشاطئ.

لاحظ وهو يخطو متخبطاً يتفادى الهشيم حوله صورة ما زالت معلقة بأحد الحوائط في بهو البيت، الصورة لعائلة، أب وأم وصبي، شيء ما دعاه أن يمعن في تفاصيلها التي بالكاد يراها على هدي القمر، فإذا بريقٌ ينجلي بعيني الصبي فهرع راکضاً يجر خطوات ثقيلة جراً إلى أن وصل حد الشاطئ.

هناك وقف يلتقط أنفاسه المضطربة مواجهاً المحيط الهادر والخربة خلفه.

أخذ منه الخوف والألم والإعياء مأخذه، جسده يرتعد بشدة، الرعدة تزيد آلام كتفه، لا يستطيع أن يتمالك أعصابه، أحداث الساعات الماضية وصورة كلاوس والدماء تتدفق من ثقوب جسده تسيطر على وعيه، فانهار راکعاً يبكي وينتحب بحرقة، لم يكن يتصور أن يعيش وقتاً عصيباً كهذا يرى أناساً تقتل ويتهدد الموت حياته.

لا يدري لماذا حُبل إليه أنه يسمع صوت رحمة قادماً من حيث الخربة، التفت على وجلٍ فإذا هو يرى ذات العينين البارقتين تحققان فيه من جوف الظلام، كان بريقهما يزيد كلما أمعن النظر، فأشاح وقام لينطلق بمحاذاة سيف الشاطئ بكل ما تبقى في رجليه من قوة هارباً بعيد عن الخربة، يشعر أن العينين اللامعتين تلاحقانه!

بعد مسافة لا تزيد عن مائتي متر رأى ملفداً صاعداً عبر الصخور، رجح أنه ينتهي إلى الطريق،

توجه إلى حيث الصخور وجلس فوق إحداها
يستجمع شتات ذاته المهلهلة، فكر أن يصعد!
تساءل عما ينتظره هناك الآن، أهم ميليشيات
المتمردين أم ميليشيات الرئيس، لا أمان لأي من
الفريقين.

لا صوت لإنسي في الأنحاء، أجلس هنا حتى
الصباح؟

تحسس جيبه كان هاتفه المحمول ما زال فيه،
أخرجه تفحصه، لا يزال يعمل، رفعه أمام وجهه
وتبادر إلى ذهنه أن يطلب وحيدًا، بعد رنات حسبها
طويله أجابه وحيد متسائلًا: أنت هنا! ما سافرتش!
قص عليه ما جرى بقدر ما استطاع وأخبره
بموقعه تقريبًا فطمأنه وحيد وأخبره أن ينتظره
فسيتحين الفرصة ليأتي إليه.

شعر براحة إلى حد ما لكن ألم جسده يزداد في
برودة الليل.

قبع في مكانه ينتظر، قرر أن يحدث رحمة، ردت
من فورها، جاءه صوتها عبر الهاتف شغوفًا،
سألته: أين أنت؟ أبك سوء؟

جاهد ليقص عليها ما حدث منذ تركها. فطمأنته
أن الأسوأ قد مضى، وأن الأحداث أهدأ الآن بعد
أن استطاعت قوات الرئيس رد المتمردين إلى خارج
المدينة وأن الوضع مستقر إلى حين.

طلب منها أن تنتظره بالبيت وتعد حقيبتيهما،
وأنه سيأتي إليها في أقرب فرصة ليسافرا بعيدًا.
لكن عليه أولاً الصبر على الألم.

(38)

اليوم الأول بالسفارة، وجوه واجمة حائرة لا يعرفها، أناس تبدو مصريتهم في سيماهم، لم يلتق بأي منهم قبل ساعته هذه، اللهم إلا غير اثنين هما حارس السفارة وموظف هريم، رأهما في زيارات سابقة لوحيد.

عُرباء لكن متآلفين يجمع بينهم الخوف، الكل متوجس قلق صامت!

باغته ذات الإحساس الثقيل المستنير الذي أحسه في مقر الشركة قبيل الاقترام، سرت رعدة في جسده لمجرد التفكير في احتمالية تكرار ما حدث هنا أيضًا!

عندما حضر إليه وحيد فجراً، ليغيثه كان خائر القوى زائغ البصر من فرط إعياء وألم وجوع، لم يقو أن ينفذ ما طلبه وحيد بأن يتسلق الصخور إلى حيث نقطة الالتقاء جانب الطريق، فقع في مكانه يحدث رحمة همسًا لكيلا يسمعه أحد، يغفو ثم ويصحو جزعًا فيكلمها مرة أخرى، ظل على حاله ما بين اليقظة والإغفاء ساعات أحسها طويلة ثقيلة لا يُسرّي عنه في محنته غير صوت رحمة تطمئنه وتطارد أشباح الهلع في هذه الليلة الموحشة الكئيبة.

ظل على حاله إلى أن جاءه وحيد، فتسند على كتفه وأعانه فتسلقا الصخور معًا حتى وصلا إلى السيارة وانطلقا لمسافة قصيرة إلى حيث مقر السفارة، بالرغم ما حل بجسده من ضعف وعقله من تشويش إلا أنه لاحظ اختفاء جموع النازحين من طرقات المامبابوينت، أين فروا؟ كم قتل منهم؟ أسئلة دارت في ذهنه!

بمجرد أن دخلا السفارة وصعد درجات السلم إلى حيث البهو طلب وحيد من شخص ناداه بالدكتور محمد أن يساعده ويطببه، جاء الرجل ضخم البنيان من فوره، أخذ بيده مرتفقًا وأجلسه على أريكة

قريبة وجلس هو فوق الطاولة القصيرة أمامه. فتح حقيبته التي تضم أدواته الطبية، أخذ يتحسس موضع إصابته وطلب منه تحريك كفه وأصابع يمينه المصابة فحركها متألِّفاً، لاحظ الطبيب زرقة وسواداً عند أعلى ساعده فأخرج من حقيبته أقراصاً لتخفيف الألم وقام بتنظيف جرح رأسه وضمده وطلب من أحد العاملين بالسفارة قماشاً، صنع منه حمالةً لذراعه ثبتها حول رقبته، قال له بأنه ليس متأكداً لكن يشك في أن يكون بمفصل الكتف خلع، لكن أكد تعرضه لكدمة قوية سببت تهتكاً ما في أعلى عظمة الذراع، لا يستطيع تحديد مدى الإصابة أو خطورتها الآن؛ لأن ذلك يستلزم إجراء مسح إشعاعي، وأردف أنه سيصطحبه إلى العيادة عندما تهدأ المعارك لإجراء فحوصات دقيقة، أما الآن فعليه عدم تحريك ذراعه وتحمل الألم قدر الإمكان، ثم سأله بفضول عن سبب إصابته.

لا يقوى على الحديث فأخبره باقتضاب، أو ما الطبيب ثم أتبع:

- يجب أن نلاحظ ذراعك خلال اليومين القادمين إن لم يتحسن حالها قد تتطلب تدخلاً جراحياً، أما جرح رأسك فهو شج سطحي سيلتئم. وأنهى حديثه مواسياً: حمداً لله على السلامة.

بعد أن هدأ روعه وسكن إلى ما حوله، بدأ يدرك أنها المرة الأولى التي يحس فيها بألم جسدي كهذا، فهو لم يتعرض قط لإصابة أو مرض سببت له مثل هذه الأوجاع التي يحس بها منذ الأمس.

الألم الجسدي يصرف تفكيره عن أي شيء آخر غير ذلك النقح المستمر والنهض الموجه الذي لا يهدأ.

رفع يده السليمة يتحسس ضماد رأسه فتعجب، على الرغم أن الدماء سالت من رأسه ويشعر بالألم إذا ما تحسس موضع الجرح إلا أن ألم كتفه يعفبه من ألم رأسه فبالكاد يشعر به، بعد برهة عندما

بدأت الحبوب المسكنة تؤتي مفعولها راح في
سبات عميق.

صحا من نومه شاهقًا جزعًا لما أحس بيدٍ تهزه
وإن كانت برفق، كان من أيقظه هو وليد العربي
حارس السفارة ممشوق القامة الذي كان يحملق
في وجهه وبادره قائلاً:

- نعمت كثيرًا! خذ كُـلْ ده، قدم إليه صحنًا ساخنًا
به حساء من عدس مخلوط بأرز وبطرفه قطعة
من جبن رومي وحبّة طماطم مقسمة أربعًا،
فاعتدل مُحاذِرًا لذراعه المصابة وتلقف الصحن بيده
السليمة متلهفًا شاكرًا، وضعه في حجره وشرع
يأكل بنهم فهو لم يأكل منذ يوم وبعض يوم.

الطعام طيب الرائحة شهوي جدًا لذائقته، يكاد
يجزم أنه لم يأكل حساء عدس أطيب من هذا في
حياته، أكل كل شيء الحساء وقطعة الجبن وحبّة
الطماطم. انتهى من طعامه بسرعة وود لو أن
هناك مزيدًا لكنه استحي أن يطلب!

نظر في ساعة يده، لقد جاوزت الثالثة عصرًا، قدر
أنه نام قرابة ثماني ساعات، ما زال الألم بذراعه،
لكنه يحتمله إلى حد ما أفضل من ساعات قبل
نومه.

جال بنظراته المختلصة ليتعرف على ما فعلوه
بالمكان، كان على وضعه منذ جاء بالأمس يجلس
في بهو السفارة الفسيح بطرف أريكة وثيرة
بمفرده، قريبًا جلست إلى طاولة سيدتان إحداهما
بيضاء نحيفة متوسطة القامة وأخرى سمراء
ممتلئة قصيرة، قريبًا منها وقف طفل صغير
ليبيرري السميت والمحيا، قدر أنه لم يتجاوز سنه
الست، كان الطفل يحدق فيه بشغف، فلما تلاقت
عيونهما استدار الطفل حجلًا يواجه أمه.

أشاح فرأى الطبيب الذي عالجه آنفًا يجلس

بالكرسي القريب إلى يمينه مُسبلاً عاقداً ذراعيه فوق صدره يغط في نومه، بالكرسي الآخر في مواجهة الطبيب جلس الأستاذ محسن مسؤول الشؤون الإدارية بالسفارة وهو رجل مسن بدين مصري السمرة، أصلع الرأس، يضع نظارة طبية واسعة العدسات مذهبة الإطار، كان مُغمضاً أيضاً لكنه مُستيقظ يتمتم كأنه يقرأ آيات من القرآن أو يصلي جلوساً.

غير بعيد عبر باب البهو الحديدي ناحية الشرفة التي يصعد إليها السلم الحجري من حديقة السفارة وقف وليد العربي يتحدث وزميله حارس الأمن الآخر «مُصليح»، كان مصلح مُقطباً عبوساً، يلقي إليه ولغيره بنظرات نافرة حادة من حين لآخر.

بينما هو على حاله يتعرف على الوجوه حوله جاءه وحيد عبر العمر المؤدي إلى مكتبه بطرف البهو. اقترب منه وجلس إلى جواره بالأريكة، نظر في جرح رأسه وذراعه المعلقة فوق صدره، أمعن النظر إلى عينيه وسأله:

- أحسن؟

- الحمد لله.

- إنت كنت تعبان أوي! كويس إنك طلعت منها على خير، أنا عرفت إن المعركة في الشركة الصينية كانت معركة شرسة جداً، المتمردين اتحصنوا فيها وقتلوا كثير من القوات الحكومية قبل ما يقدروا يدخلوها ويصفوهم كلهم، ماحدث نجى منهم، ومثلوا بجثثهم، كانت مذبحة!

- كل حاجة حصلت بسرعة، فجأة لقيناهم جوه الشركة بعد ما فجروا الباب وقتلوا كلاوس!

- أيوه ده خبر موته جا في كل وكالات الأنباء والسبي إن إن بس واضح إنه قاوم؟

- مالحقش!

بينما هما على حالهما كذلك، إذ بيد تفرع الباب

الحديدي بشدة! تنبه الجميع، وسمعوا أحدًا ما ينادي: افتحوا أنا الدكتور محمد شاهين! افتحوا بسرعة!

هرب وحيد إلى شرفة السفارة التي يستطيع من خلالها رؤية البوابة والشارع، أشار لحارسي الأمن أمرًا أن يفتحا البوابة ويحضرا من بخارجها.

بالفعل هرول وليد وخلفه مصحح يهبطان درجات السلم وفتحا الباب بحذر فلقيا الدكتور محمد شاهين واقفًا يلهث مكفهرًا متعرقًا، انزاح وليد فدلف الطبيب على عجل بينما أطل وليد عبر البوابة يسترق نظرات في الشارع الخاوي، ثم عاد فأغلق البوابة التي كانت عبارة عن هيكل حديدي ينغلق فيه لوحين من حديد مسط يكسوهما دهان أخضر، لم تش هياتها بالإحكام أو المنعة على عكس بوابة الشركة الضخمة التي فجرها المتمردون بكل سهولة.

كان العرق يتصبب من الطبيب القادم من المجهول، أنفاسه تتلاحق، وقد تلبس الإعياء الشديد ملامحه، لاحظ الجميع أن ملامحه قد تلطخت بدماء امتزجت بسخم وعفرة، لوح له وحيد وطالبه بالصعود، بينما حرص الطبيب الآخر الدكتور محمد عبد المنعم على استقباله عند مدخل البهو وقدمه إلى حيث تجمع كل من بالمكان، فتعلقوا حوله تنضح عيونهم بعلامات الفضول والريبة.

سلم عليه وحيد بحفاوة وأجلسه بالأريكة، ارتاح الدكتور محمد شاهين في مجلسه والتقط أنفاسه وهو يجفف ما ينضح من جبينه بمنديله الأبيض المتسخ محاولًا استعادة السيطرة على أعصابه؛ حيث بدا على وجهه وفي نظراته مزيج من الخوف والإنهاك والغضب، جاءه صافي ساعي السفارة الشاب بكوب من الماء شربه عن آخره بجرعة واحدة وتلنفس الصعداء حامدًا الله ثم أرخى ظهره.

بادره وحيد الذي جلس أمامه وسأله عما جرى له فقص الطبيب بصوت جهورٍ غاضب أنه منذ أيام

ثلاثة لم يغادر المستشفى العام؛ حيث يعمل كجراح منذ تم إيفاده من قبل الصندوق المصري للتعاون الفني مع أفريقيا للعمل في تطبيب الليبيريين بالمستشفى العام الوحيد الكائن بطرف المدينة الشمالي، لا يوجد في عموم ليبيريا جراحو نساء غير وزير الصحة الليبيري الذي تركه بالمستشفى على شفا الانهيار يجري العمليات للمصابين.

أردف الدكتور شاهين أنه خلال الأيام الثلاثة الماضية استقبلت المستشفى عشرات وعشرات من مصابي الحرب، معظمهم من القوات الحكومية وقليل منهم مدنيون نساء وأطفال، وعلم من مساعديه أن عددًا مَعْن ماتوا على طاولة العمليات بين يديه كانوا قادة ذوي شأن بالجيش الحكومي حيث إن المتمردين يستهدفونهم.

زفر وأتبع حانقًا أنه لم ينم منذ ثلاثة أيام! حتى إنهم لم يسمحوا له بمغادرة المستشفى منذ اشتداد المعارك ودخولها منروفيا.

زفر في قنوط مردفًا أنه قام بعمليات كثيرة لا يستطيع إحصاءها، معظمها عمليات بتر أعضاء وجراحات دقيقة للجنود المصابين؛ نتيجة شظايا في أغلب الحالات وليست مجرد أعيرة نارية، وهي جراحات مرهقة وتتطلب جهدًا ووقتًا ونقل دماء لم تعد متوافرة بالمشفى الذي يفتقر للمهمات الطبية الأساسية من ضماد وأدوات تعقيم ومسكنات، مشيرًا إلى أنه اضطر إلى غلي أدواته داخل غرفة العمليات، وقام بالجراحات دون تخدير!

صمت لحظات كمن يسترجع الصور والمشاهد المفجعة التي مرت به، ثم أتبع بقوله إنه عندما أخبر وزير الصحة أنه لم يعد قادرًا على المواصلة ويحتاج إلى الراحة، نهره ولم يأذن له بالمغادرة وعين جلدًا يتبعه، فلما دخل مكتبه ليرتاح برهة وسلحت له فرصة هربٍ اختلسها وجاء إلى هنا ما بين ركض وسير من حيث المستشفى التي تبعد

ما يقرب من سبعة كيلومترات.

طأ رأسه يسترجع الأحداث ينتقي منها ما يحكيه، ثم رفع رأسه مخاطبًا وحيثًا قائلاً: بالتأكيد سيأتون بحثًا عني، وأنا لا أريد العودة إلى هناك، ليس لدى الجهد أو الإمكانيات الطبية للاستمرار فقد استنزفت كل المهتمات الطبية وأنا مرهق جدًا ومتوتر ولا أستطيع العمل في مثل هذه الظروف!

هز وحيد رأسه وقام من مجلسه ونظر في وجه الطبيب المنهك وربت على كتفه مطمئنًا وقدم إليه سيجارة تلقفها الطبيب بامتنان فأشعلها له وأشعل لنفسه أخرى، ثم خرج إلى الشرفة يحدق في اللاشيء مهمومًا حائرًا كأنه يحاول أن يقرأ في رأسه سطورًا مبهمًا لعلها تفك شفرة مستقبل الأيام القادمة هذه.

وحيد يقدر أن القادم أسوأ، فعليه الآن أن يجد سبيلًا لإخراج من معه من المصريين من جحيم الحرب الأهلية، كيف السبيل إلى ذلك لاسيما أن المطار والطريق إليه الآن أصبح تحت سيطرة المتمردين، أخبره أصدقاؤه من الذين حاولوا الهرب اليوم باكراً أن المتمردين يترصدون السيارات المارة في الطريق المؤدي للمطار لسرقتها وسرقة ركابها، فإن قاومهم أحد قتلوه بدم بارد، هذا غير أن الطيران توقف منذ أمس، ولا تريد أي شركة إرسال طائراتها إلى هنا! الخروج من منروفيا جواً أصبح مستحيلًا، وبرًا كذلك، أما بحرًا فكيف السبيل إليه والميناء أغلقته القوات الحكومية ومنعت أي شخص من الاقتراب منه.

لم تمض ساعة منذ مقدم الطبيب شاهين حتى سُمع طرقٌ حاد على الباب، تقدم وحيد إلى الشرفة ورأى عند بوابة السفارة سيارة جيب بها مسلحون تابعون للحرس الرئاسي، يبدو أن الرجل قد صدق حدسه، لقد جاءوا في طلبه.

شرفة المبنى ظاهرة لمن يقف خارج البوابة، فأشار الضابط الذي كان يقرع الباب لوحيد أن يأتي إليه، فلوح له وحيد بحزم أن ينتظر، واستدار تجاه مصلح الذي يقف خلفه وأسر له بأن يظل هنا بجانب الشرفة منتصبًا عبوسًا واضعًا نظارته الشمسية وليكن موقفه ظاهرًا فيراه الجند عند البوابة في وضع الاستعداد، ففعل الرجل ما طلب رئيسه، ثم خاطب وحيد الحارس الآخر وليد العربي وهو ينزل درجات الشرفة:

- أنت تنزل معاي، أنا هاخرج لهم بره وإنك خليك وراي سد البوابة بجسمك ولو حصل أي غدر ما تخرجش! ارجع واقفل الباب بسرعة وخذ الناس ونطوا من السور الخلفي على الفيلا اللي ورانا واطلعوا على بوابة السفارة الأمريكية، مفهوم؟ فأوما وليد إيجابًا وتبع رئيسه الذي نزل السلم بتؤدة ورباطة جأش.

فتح وليد الباب فدخل منه وحيد خارجًا لمقابلة جند الرئاسة بينما وقف وليد يسد الباب كما أمر. بدا الضابط مهيبًا كظيمًا ضخم البنية يرتدي نظرات شمسية سوداء بادره وحيد سائلًا:

- ماذا عندك؟ ماذا أتى بك إلى هنا؟

- جئنا لناخذ الطبيب شاهين إلى المستشفى!

أبدى وحيد اندهاشًا ورد:

- ماذا! بحسب علمي الدكتور شاهين بالمستشفى!

- كلا لقد غادر صباح اليوم، وهناك من رأوه قادمًا إلى هنا!

رد وحيد بحزم:

- وأنا أقول لك إنه ليس هنا! أنا تحدثت معه هذا الصباح وكان ما زال يعمل بالمستشفى منذ ثلاثة أيام متواصلة!

- نعم، لكنه هرب قبل عدة ساعات وجاء إلى هنا! أشاح وحيد برأسه متأنفًا ووضع يديه بخاصرته

وعاد ينظر إلى الضابط بغضب وسأله بحسم:

- ما اسمك أيها الضابط؟

رد الضابط باقتضاب:

- أنا لفتنانت جيلبرت سميث.

قال وحيد بنبرة هادئة لكن بحزم:

- وأنا أحمد وحيد القائم بأعمال السفارة المصرية.

أكمل بثقة:

- اسمع أيها الضابط سميث، أنا لا أعلم أين الدكتور شاهين الآن، وأنا أطلب منك أنت تحديداً أن تبحث عنه وأن تجده وتأتي به إلى هنا، وأنا سأوصله بنفسي إلى المستشفى بعد الاطمئنان على سلامته، إنه مواطن مصري يقدم خدمات مهمة للمستشفى ولقوات الرئيس، وإذا حدث له أي مكروه سأحملك أنت شخصياً المسؤولية، أنت تعرف كولونيل إدجار صامويل؟

- بالطبع أعرفه إنه رئيسي قائد الحرس الرئاسي.

- هو صديقي، لو جئت بالدكتور شاهين إلى هنا

سأخبره بما قدمته لنا من خدمة عظيمة!

فكر الضابط سميث للحظات فيما يفعل، ثم حدق في وجه وحيد ورفع رأسه إلى حيث يقف مصلح ثم أدار عينيه في الأرجاء، ثم تراجع خطوة للخلف أطرق لحظات! ثم رفع يده وأدى تحية عسكرية لوحيدا!

ردها الأخير له!

دار الضابط على عقبيه وقفز في سيارته الجيب التي انطلقت على الفور. تقدم وحيد خطوتين إلى حيث كان يقف الضابط وعقد ساعديه فوق صدره وتابع السيارة التي تبتعد بسرعة حتى وصلت آخر الشارع وانحرفت وغابت عن النظر!

تلفس وحيد الصعداء وتأمل الشارع الذي يقف عند مدخله اثنان من القوات الحكومية وعاد أدراجه ليدخل السفارة، ابتسم له وليد العربي قائلاً:

اعصاب حديد يا باشا.

رد وحيد بانتسامة ساخرة: ده ربك بيستر!

مساءً، رجّع تفجيرات وصوت دفقات الأسلحة الآلية يُسمع في المدى ويقترب من حين لآخر، بالرغم من تسارع الأحداث والشحن النفسي الذي ألم بالملتجئين للسفارة خلال الساعات الماضية إلا أن بُعد المامبا بوينت النسبي عن مواقع الالتحام وإحساس الاحتماء في السفارة أضفى هدوءًا على المشاعر المرتجفة.

بدأوا في استيعاب ما يحدث. جلسوا جميعهم في البهو، تباروا في قص ما صار معهم وأمام أعينهم من أحداث مرعبة، الحديث بينهم له طنين ووقع مزعج على أذنيه.

منذ قليل قدم وحيد وتوسطهم، أخبرهم بما قرره من لوجيستيات الإقامة غير معلومة المدة هنا، الترتيب أن ينام الرجال بأي شكل يروق لهم في محيط البهو حيث قام حراس الأمن ومعاون الخدمة بتقديم ما يستطيعون من أغطية ووسائد تساعد الرجال على النوم بأفضل وسيلة ممكنة، أما السيدتان والطفل فقد تم تهيئة غرفة مكتب الأستاذ محسن إداري السفارة بالقرب من الحمام ليناما فيها.

نظرًا لعدم جلاء الأمور، فقد قرر وحيد الحفاظ على البترول اللازم لتشغيل مولد الكهرباء لأطول مدة ممكنة، فعلى الرغم من وجود مولدين بالسفارة كانا يعملان بالتبادل يوميًا قبيل اشتعال المعارك، فإنه قرر تشغيل مولد واحد فقط من الثامنة للعاشرة صباحًا ومن الرابعة للسادسة عصرًا؛ حيث إنه سيصعب الحصول على البترول بأي شكل الآن!

كان من حسن الحظ أن فتحت شركة اتصالات الأجهزة النقالة التي يملكها رجل أعمال لبناني المكالمات داخليًا ودوليًا دون مقابل، وهو أمر أثبت

انه غاية في الأهمية حيث إنه منذ اندلاع المعارك انقطعت الاتصالات الأرضية حيث كان السنترال العام ومبنى التليفزيون ساحتين لمعارك ضارية دمرت قدرات التشغيل بهما.

تطوعت السيدتان بإعداد الطعام مما تبقى من مؤن حارسي أمن السفارة، فكما جرت عادة الأجانب والقادرين في منروفيا باستيراد ما يحتاجونه شهرياً واختزانه، ما اختزنه حارسا الأمن من مؤونة وزجاجات مياه معدنية لن تكفي من التجاوا للسفارة طويلاً، كما أنّ من كن يحملن الخضروات والفواكه الطازجة واللحوم المذبوحة للبيوت ما عدن يرومون الطرقات لبيعها، وأغلقت الأسواق والمحلات التي لم تنهبها الجنود أو الغوغاء أبوابها. قدر وحيد أن الطعام الموجود بالسفارة قد يكفي يومين على أكثر تقدير إذا ما تم ترشيده؛ حيث إن شهر يونيو قد انتصف ومؤونة شخصين لأسبوعين لن تكفي أحد عشر شخصاً لأكثر من أيام معدودة.

لم تزل ذراعه تؤلمه، دخل الحمام للاغتسال ولقضاء حاجته، كان يرغب في الاستحمام وتغيير ملبسه المتسخة بدمه وآثار الأمس، لكن لا سبيل إلى ذلك بسبب إصابته، لم يستطع إحضار ملبسه إلى هنا كما فعل الملتجئون الآخرون، قالت له رحمة إنها قامت بإعداد الحقائب وتركتها بالقرب من الباب لحين حضوره، يحدثها من حين لآخر خلسة بعيداً عن كل الأذان التي حوله وتتجسس على كل كلمة جهراً كانت أو همساً! لا يشعر بالراحة بينهم، لم يعتد على هذا العدد من البشر في محيطه المباشر الأمر الذي يسبب له قدراً كبيراً من القلق.

منذ قليل وبعد أن ارتاح الجراح محمد شاهين استشاره الدكتور محمد عبد المنعم بشأن إصابته؛ حيث رجح شاهين أنها كدمة قوية أو شرح بإحدى

عظام مفصل الكتف على الأكثر وستلتئم تدريجيًا ولن يحتاج إلى تدخل جراحي طالما أن الألم يستجيب للمسكنات وأن الورم يقل. دكتور محمد عبد المنعم متخصص في الأمراض الباطنة؛ لذلك كان متشككًا في تقديره للحالة، لكنه اغتبط لما أخبره الدكتور شاهين وهو الأكبر سنًا وأكثر خبرة ومتخصص في جراحات العظام بأن تشخيصه سليم. تحدثا كطبيين بينما يجلس هو بينهما مستسلفًا، يطيع أوامرهما ويتابع الحديث في صمت، في العادة هو لا يحب الأطباء ويتشكك فيهم، فداءً أمه لم يفلح معه أي من علاجات الأطباء وقبلها سكت نبض والده في المشفى، لكن ما باليد حيلة فالألم يجعل الإنسان يتقبل ما لا يتقبله في المعتاد، والحاجة ترغم أنف صاحبها. الغريب أنه ومع اعتياده ذلك الإحساس بالألم المبرح، بدأ يستعذب نشوى لحظات السكينة التي تتلو لحظات هياج العلة، فإذا سكن نقح كتفه حرّكه برفق فسرى الألم شرارة في كيانه تستقطب كل مشاعره وحواسه لبرهة من وقت فلا يشعر بأي شيء ولا يعي غير هذا الألم، تتلاشى كل الحقائق وتتعطل حواسه، يختفي العالم بكل ما فيه ما عدا وجوده الممزوج بالألم، فتساءل إن احتجب العالم عن حواسه ومداركه ولو للحظات فما هو كُنْهه الفعلي!

لو كان العالم المحسوس حقًا أفان غاب عن مجمل حواسنا فلا نميزه يظل حقًا؟

يحدثنا كل اللاهوت على اختلافه عقيدة وأزمة عن عالم آخر لا يخضع لهذه القواعد الحسية، تراه كيف وأين ومتى؟

استحضر عمدًا شيئًا من الألم تلتته إثارة تلاها ارتياح!

يا لهذا الإنسان الكائن الباحث عن الراحة والسعادة التي تغيبه عن حقيقته تلك الحقيقة التي تلجى فقط في الألم!

الألم هو ما يجعل الإنسان يكتشف أغوار ذاته،
يزيح أسبلاً تكفر صفات ماهيته فيتعرف على
من هو متجردًا من شهواته ورغباته وتطلعاته
واعتقاده بما أو من هو.

قام الطبيبان عنه فاستعاد وعيه بمحيطه،
وأخبرته أنه لا بد وأن يغير ملابسه في أقرب
فرصة، أم تراها رائحة عرق الدكتور شاهين الذي
سار سبعة كيلومترات وجسده ينضح؟

منذ كان بالشاطئ ليلة الأمس علقت بأنفه رائحة
كريهة أقرب لرائحة الجيف، ما زال يشمها في
الجو حتى هذه اللحظة، ربما هي رائحة جثث قتلى
الحرب.

فجأة تذكر تلك العيون الوهاجة التي كانت
تطالعه بالخبرة!

وحيد لا يوجد في البهو مع الآخرين، إنما يغلق
عليه باب مكتبه معظم الوقت، يخرج من حين لآخر
ليتفقد الأحوال وينقل ما لديه من أخبار المعارك
والمواجهات ليطمئنهم.

ترى لو طلب من وحيد أن يصحبه إلى شقته
لإحضار ملابس نظيفة أيوافق؟ وأيضا يستطيع
أيضا أن يحضر ما اختزنه من طعام في شقته
ليعين في إطعام كل هؤلاء، يبدو وحيد شديد
التركيز دائم التشاغل بإجراء مكالمات هاتفية، هل
يفاتحه الآن في أمر رحمة؟

لا بد أن تحدثه في شأن تأشيرة الدخول إلى
مصر!

الآن؟

إن لم يكن الآن فمتى؟ لا وقت لإضاعته، يجب أن
تنتهز أي فرصة لتنفرد به وتطلب منه ذلك!
هل يقبل وحيد أن تأتي رحمة وتمكث معهم
في السفارة؟

إذا لم يقبل سأترك هذا الجمع وأصطحبها إلى

السفارة الأمريكية، بالتأكيد هناك لن يمانعوا إذا
أحضر وهو مواطن أمريكي صديقه للاحتفاء!
لو خذني وحيد لن أمكث هنا دقيقة واحدة،
سأقطع علاقتي به نهائياً وأرحل!
كيف لا يحترم مشاعري تجاه الإنسانية الوحيدة
التي أحبها!

**

(39)

اليوم الثاني في السفارة، أفاق الجميع على أصوات جلبة قادمة من خلف السور، تقدم الملتجئون تباغًا إلى الشرفة، وقفوا يتابعون المشهد الكئيب، الشارع يغص بجموع من التعساء الذين مزقت الحرب الدائرة حياتهم وتخطفت أرواح أحياء لهم.

مسيرة أنفيس غاضبة أو حزينة تتصارع أو تنتحب، يسرون متأزرين ملتحمين، المفجع للعين والروح أن سار بينهم أفراد حاملون فوق الأعناق والكاهل جثثًا بشرية مشوهة بفعل الحرب!

غطت سعاد السيدة السمراء القصيرة عيني صغيرها محمد كي لا يرى الجثث المعلقة فوق رؤوس المارين.

رفع البعض رايات الولايات المتحدة والبعض أعلام ليبيريا، قصدوا بوابة السفارة الأمريكية في آخر الشارع، مرّ تحت أعينهم مئات رافعين أذرعهم في السماء ملوحين بسبابات أيديهم ويلغطون بما لا يفهم من عبارات إلا بعض جمل وألفاظ تستنجد بالله وبأمريكا!

حملت الجموع القانطة خمس جثث شبه عارية بينها جثة لصبي مبتورة الذراع وأخرى جسد برأس شامت ملامحه، وأخرى لامرأة مبقورة البطن!

كان المشهد قاسيًا مروعًا فلموت حرمة ورهبة لا تعرفها الحروب، أحياء يسرون والموت جاثم فوق رؤوسهم، قطعان اغتصبت الحرب إنسانيتهم وغيب الأسى والغضب عقولهم فهدوا كجحافل تترى تروم الانتقام أو الانتحار.

لاحظ بعض المتظاهرين في مسيرتهم الملتجئين المصريين متحلقين في شرفة السفارة لمتابعة ما يجري فتوقف أحدهم وأخذ يشير بقبضته تجاههم صائحًا، وقف غاضب آخر إلى جواره ثم بضعة آخرون مرددين هتافهم، علد هذه اللحظة قرر وحيد أن

هذا يكفي، فطلب من الجميع بالانسحاب في هدوء للداخل بينما أكد على حارسي الأمن التوجه إلى حيث البوابة ومتابعة الموقف عن كثب دون الظهور للعيان تحسبًا لمحاولة أي من المتظاهرين اقتحام المكان.

في الداخل، ما زالوا يسمعون أصوات السائرين تحت الأموات، سألت دموع على خد سعاد فأشاحت في حسرة تكفكف دموعها في صمت فهي لم تسمع عن زوجها ضابط الشرطة الليبيري منذ أيام، لاحظتها نبيلة فاحتضنتها تهدئ من خاطرها.

حارت الأعين وتطأطأت الرؤوس، ظل معظمهم واقفين على توجس وتحفز مخافة أن يقوم المتظاهرون بمحاولة لاقتحام المكان، دفع الإحساس المقبض الذي يخيم على المكان الطفل محمدًا للبكاء فانتحت به أمه جانبًا تحاول تهدئته، لكن ظل الصغير في نشيجه إلى أن تقدم منه وحيد وركع أمامه، نظر في عينيه بعزج من حزم وحنو ثم قال له بإنجليزية ليبيرية خذ هذا، ناوله جهاز «الووكي توكي» الذي كان في يده، ثم أمضى دقائق يشرح له عمليًا كيف يعمل الجهاز، وقال له أنت من الآن ضابط الاتصال الأول بالسفارة تستطيع أن تكلمني مباشرة من هذا الجهاز في أي وقت لتخبرني بتطور الأحداث مفهوم؟

استعادة الطفولة فضولها في وجه الصغير، فأوما إيجابًا وهو يمسح دمع عينيه وقد سكت نشيجه.

ابتسم له وحيد وأمسك بمرفقيه قائلاً: لكن عليك أن تعرف أن الضباط لا يبكون، من الآن فصاعدًا لا أريدك أن تبكي أبدًا، فأوما الصبي إيجابًا فابتسم له وحيد وربت فوق رأسه وتركه لأمه التي شكرته عيناها الملتهبة.

صور الموت وأحاسيس الفقد والخوف والألم

واقتراب النهاية أطبقت في صمت على الجميع الذين فترت همتهم وتملك منهم اليأس، بكت سعاد تحتضن صغيرها، اغرورقت العيون وتطاطأت الرؤوس وضافت الصدور.

مضت قرابة ساعة والصبح والهرج مستمر في الخارج، ثم سُمع دوي لإطلاق دفعات من ذخيرة حية قادم من جهة سور السفارة الأمريكية القصي، خرج وحيد إلى الشرفة ومعه وليد وأشار بيده للملتجئين ألا يتبعوه!

رأى وحيد أن بوابة السفارة الأمريكية الحصينة لم يصبها سوء لكن على ما يبدو أن جنود «المارين» الذين يحمون سور السفارة قد ضاقوا ذرعًا بالمتظاهرين فأعلنوا عن ذلك بإطلاق دفعات من الرصاص في الهواء.

أدى صوت الأعبيرة إلى جزع وتفرق جموع المتظاهرين. بعد وقت قصير وقبل انتصاف شمس الظهيرة كان الغاضبون قد اختفوا من الشارع لكن خلفوا وراءهم الجثث التي كانوا يحملونها أمام بوابة السفارة وبالقرب من سورها المنيع!

على مرمى البصر من الشرفة، كفن المتظاهرون جثة بالعلم الأمريكي وتركوها وباقي الجثث حذاء سور السفارة الأمريكية وذهبوا! بعد برهة مرت سيارة دورية رباعية الدفع بها ثلاث جنود من قوات الميليشيات التابعة للرئيس يقف أحدهم خلف مدفع آلي مثبت في محل الكراسي الخلفية للسيارة التي انتزع منها السقف والأجناب والكراسي الخلفية، هم أيضًا مروا بالقرب من الجثث وذهبوا.

الوحيد الذي تقدم ليتفقد الجثث المسجاة في الشارع كان كلبًا ضالًا!

اقترَبَ من وحيد وطلب منه سيجارة فأشعل له سيجارة وأشعل لنفسه أخرى، فبادره قائلاً:

- وبعدين إنت شايف إيه؟

- واضح إن تيلور بيحاول يضغط على أمريكا
عشان توقف الحرب وبعث المتظاهرين لدفع
الأمريكان للتدخل وإيقاف المتمردين، الحقيقة
الوضع حرج جداً ولا يمكن التنبؤ باللي هياحصل.

- والعمل؟

زفر وحيد في حلق ورد:

- العمل عمل ربنا! باحاول مع القاهرة أشوف حل
لخروجنا من هنا.

مرت لحظات من الصمت بينهما، ثم عاد فبادر
قائلاً:

- على فكرة أنا عندي أكل كتير في البيت، تفتكر
هاينفع نجيبه؟

فكر وحيد للحظات ثم رد:

- لكن إحنا مش عارفين الوضع في وسط البلد
عامل إزاي؟ مش هاينفع نروح ونسيب الناس في
السفارة.

- طيب كلم أبو عبد الله يمكن يكون لسه هناك.

- ممكن؟

رفع وحيد هاتفه أمام وجهه وطلب البرجي الذي
رد من فوره بحماس قائلاً:

- حبيبي أبو علي كيفك؟

- الحمد لله أبو عبد الله كيف حالك وحال
الشباب؟

- بخير الحمد لله، هاولي الرُعران خربوا البلد يحرق
حريشون!

- طيب وانت فين؟

- ولو شو بك؟ في بيتي ومعني صحبة حلوة،
أبضيات.

- مسلحين؟

- إي معنا سلاح.

- يعني إنت كويس؟

- ما تشيل هم!

- يعني المكان عندك أمان؟

- والله أبو علي لهله أمان لكن الوضع ما بيظمن، الزعران صاروا بيكزروا على رياحتهن وخربوا وحرقوا أشغال كتير البارح، ما عندك أخبار؟

- لا والله، مافيش جديد بس ربنا يسهل، خليني أشوف وأكلمك تاني.

- حبيبي أبو علي في أمان الله، دير بالك على حالك!

أنهى المكالمة مع البرجي، ثم التفت وحيد نحو صاحبه قائلاً:

- من كلام أبو عبد الله الأمور مستقرة وفي فرصة للوصول للبيت والوضع هادي، إيه رأيك؟

- طبعًا نروح على الأقل نضمن نجيب أكل يومين كمان.

- وممكن نروح البيت عندي نجيب اللي هناك، جهز نفسك أنا هاستعد ونروح حالًا.

- ماشي.

كان بالطبع مهتمًا بإحضار ملابس نظيفة والطعام والماء المخزون ببيته، لكن هدفه الأهم كان رؤية رحمة وإحضارها إلى هنا، ساءلته نفسه: أيخبر وحيدًا بذلك الآن أم ينتظر؟

لربما إن أخبرته لا يذهب وتضيع الفرصة.

لا سابقني الأمر سرًا حتى اللحظة الأخيرة فيجد وحيد نفسه أمام أمر واقع فإما أن تأتي رحمة معهم أو أظل هو معها!

حقًا! أظل معها لو رفض وحيد؟

لم لا؟ هي هادئة وواثقة بأن الحرب ستنتهي وتعود الحياة لمجراها، أو من الممكن أن نذهب مع وحيد حتى بوابة السفارة الأمريكية وللتجئ إليهم.

عاد وفكر مستدرجًا وحيد شهم ولن يخذلني فهو صديقي،

قد يغضب!

نعم! لكن بالتأكيد سيتفهم أنني أحبها.

سيفاجأ بأمر رحمة ولماذا لم يخبره بشأنها!

سأقول إنني لم أكن متأكدًا أنني أحبها لكني الآن لا أستطيع العيش بدونها وسأتزوجها! نعم سأتزوجها.

أراد أن يبعث لها برسالة لكي يخبرها بأنه قادم لكن فاجأه صوت وحيد قائلاً: جاهز؟

فارتبك وهو يدس هاتفه في جيبه وقال مترددًا: جاهز.

نزلا السلم حتى وقفا أمام سيارة وحيد، وما إن فتح وحيد باب سيارته حتى جاءه وليد وحال بينه وبين الركوب ممسكًا بمقود السيارة وسأل رئيسة في حزم: رايح فين سيادتك؟

- رايح أجيب أكل من البيت!

- ما ينفعش الوضع خطر.

- طيب وهانأكل الناس اللي فوق دي إيه؟ تراب!

- يبقى رجلي على رجلك اللي يجرى عليك يجرى

علي!

- يا ابني استهدى بالله خليك هنا لو...

قاطعته وليد بحزم: مستحيل! مش هاسيبك!

نظر وحيد في عيني الشاب الشجاع، فوجد إصرارًا وجسارة وولاء يدفعه لخوض المغامرة التي لا بد منها، فكل يوم سيزداد الوضع سوءًا، ولا يمكن توقع كم ستطول أيام الحصار هذه. أطارق قليلًا ثم قال له: تعال اركب جنبي.

قفز وليد في الكرسي الأمامي وركب وحيد وأدار محرك السيارة بينما ركب هو في الكرسي الخلفي مُحاذرًا لذراعه، ثم أشار وحيد لمصلح أن يفتح البوابة ثم مال إليه يحدثه سرًا لو مارجعناش قبل الليل خذ اللي معاك وروح على بوابة السفارة الأمريكية يا تدخل يا تموت!

أوما مصلح إيجابًا وقد اكتست ملامحه حدة
وصرامة.

دقائق معدودة ووصلت السيارة نهاية الشارع
عند حدود الامبا بوينت كان ثلاثة جنود تابعين
للمليشيات الحكومية يضعون برميلين صدئين
يقطعان به الطريق، ما إن رأوهم قادمين حتى
توسط أحدهم الطريق شاهراً سلاحه في مواجهة
السيارة فأوقفها وحيد من فوره ثم لوح بيده
صائحًا:

- نحن دبلوماسيون مصريون وغير مسلحين!
خطا جندي آخر على مهل يجر سلاحه خلفه بتراخ،
وقف إلى جانب زميله الذي ظل متأهبًا على وضع
التصويب.

أشار الجندي المتراخي للسيارة بالتقدم، فتقدم
وحيد على مهل، وما إن توقفت السيارة حتى
دار الجندي المتأهب حولها وأدخل عنق سلاحه
الآلي عبر نافذة وليد مصوبًا فوهته لصدر وحيد،
أراد وليد أن يقاوم هذا الفعل لكن وحيدًا أشار
له بعينه كي لا يفعل، فسكن حانقًا يحدق
في عيني الجندي اللتين اكتستا بحمرة لفرط ما
تعاطاه من مخدرات، دار الجندي الآخر ناحية وحيد
ومد رأسه ينظر داخل السيارة وتفرس في وجوه
الركاب الثلاثة، ثم اقترب بأنفاسه من أنف وحيد
وسأله: من أنت؟

فرد وحيد متأفمًا من رائحة فمه الكريهة قائلاً:
أنا القنصل المصري، ونحن نساند الرئيس تيلور في
حربه، دعني أمر!

فرك الجندي لحية غير مشذبة حول شفاه غليظة
وسأل: أين أنت ذاهب؟

مال وحيد كأنه يسر له أمرًا جليلاً: أنا ذاهب لأمر
هام!

فكر الجندي لحظات وحك جانب رأسه الأجرد، فقد
ميز اللوحات الدبلوماسية التي تحملها السيارة،

حدق في وجه وحيد باستخفاف وقال: عليك أن تدعم القوات المحاربة الآن.

فهم وحيد مغزى ما قال الجندي، فأوما إيجاباً ودس يده على مهل في جيب بنطاله وأخرج ورقة من فئة العشرين دولاراً أمريكياً، أمسكها بين السبابة والوسطى وقربها من وجه الجندي الذي هس للورقة الثمينة وأخذها ووضعها في جيب قميصه وتراجع مؤدياً التحية العسكرية، رد وحيد التحية وقال له: كن يقظاً أيها البطل وسنمر من هنا عائدين فتذكرنا، أوماً الجندي إيجاباً فانطلقت السيارة!

التفت وليد يرنو ناحية الجنود فرأى ثلاثتهم قد تحلقوا مبتهجين بالعملة الأمريكية، فاستنكر أن أعطى وحيد الجنود عشرين دولاراً كاملة، لكن الأخير ابتسم بتهكم قائلاً: مش أحسن ما ياخدوا أرواحنا، دول مش شايفين من المخدرات!

مرت عليه الدقائق ثقيلة وقد انحسر البول في مئانته لما أحاط الجنود بالسيارة، رائحتهم نفاذة جداً حجت رائحة الموت التي علقت بأنفه طيلة يومين، تقترب السيارة من وسط المدينة حيث سكن حتى ليلتين مضتا! تبدو المشاهد غريبة لناظريه كأنه يروم هذا الطريق للمرة الأولى، حشود من البشر الخائفين مثله تسد أدنى الأفق، تزدحم بهم جنات الطريق الراكد عن حركته، بطيء إيقاعها كالاختصار، يعيق تكديسهم تقدم السيارة التي مخرت عبا بهم على مهل.

حدقت فيه العيون بنظرات مشلوحه فوق صلبان الخوف، مستعطفة تستجدي، التصقت بعض الأكف الضارعة بزجاج النافذة قبالة وجهه بدت له بواطنها المصفرة رقائيق من أسفار قديمة نقشت في شروخها حكايا تقص عذابات هذه الأرض القاسية أو كأن تلك الخطوط والشقوق الغائرة تلامس لتعاوِذ تبوء باللعة على حاملها.

يا لهذه الحياة، كل هؤلاء يعذبون لمجرد أن
أقذارهم شاءت أن يولدوا لبييريين، يا للسخرية هم
محاصرون لا حيلة لهم يُقتلون على المشاع في
وطن سجن اشتق اسمه من الحرية!

هذه الإنسانية؟ إلى أين؟ كيف لم يتعلم البشر
وقد استهلوا ألفية أخرى تركت وراءها تاريخًا من
دماء خضبت وجوه كل الأمم من أقصى الأرض
لأدناها!

الإنسان أقسى من وحوش الأحرار وأكبر نهماً
من ضوايرها!

قرر وحيد أن ينعطف في شارع جانبي قاصداً
بيت البرجي أولاً، الشارع الجانبي أقل ازدحاماً من
الشارع الرئيسي، وصل فأوقف السيارة أمام الباب
ونزلوا جميعاً، كان أمام الباب فتیان عفيان بدوا
مأجورين، وقفا بحزم يسدان المدخل فلا يدخله أحد
من الجموع المتحلقة، لما رأوهم قادمين أفسحا
لهم الطريق مباشرة دون تحفظ فدخلوا وصعدوا
السلم المظلم.

باب البرجي مفتوح كعادته، الصالة تعج بوجوه
يعرفون معظمها وبينهم بعض من غرباء، تهلل
أبو عبد الله لرؤيتهم وأخذ كل واحد منهم بين
أحضانهم، ثم رفع وحيد يده تحية للجميع فلوحت له
الأيادي وهدرت الأصوات بالتحيات.

بادر أبو عبد الله سائلاً:

- شو وراك؟

أجاب وحيد:

- جينا نطمئن عليك ونشوف الوضع هنا.

اشراب أبو عبد الله بكتفيه وقال لوحيد:

- ما في حل غير إنو نفل من هون. ما في حل!

لكن يا خي كل الطرق للمطار قطعوها الزعران ما
بأعرف شو بهصير. عندك حل؟

أطرق وحيد ولم يجب.

هذه هي المرة الأولى التي يعترف فيها البرجي أنه لا يدري شيئاً عن شيء، بدا حائزاً كالجميع.

بعد هنيهة تحاشت فيها العيون العيون، رفع وحيد رأسه قائلاً:

- أكيد فيه حل، إن شاء الله، هاكلمك بس خللي تليفونك مشحون.

رد أبو عبد الله في ضجر:

- هيو مشحون!

لاحظه أبو عبد الله يقف مطرقاً خلف وحيد ونظر في عينيه الزائغتين فاقترب منه وربت على كتفه يطمئنه وقال له:

- ما تخاف راح تنحل وأردف مشجعاً، أنت معك وحش. مريباً على كتف وحيد واستدرك:

- بس ما تنسوننا!

قال وحيد:

- إن شاء الله خير أول ما أعرف حاجة هاقول لك. ثم دار ثلاثتهم على أعقابهم، عادوا إلى السيارة أخذين طريقهم إلى حيث يسكن هو.

المسافة التي كان يقطعها بالأمس سيراً على الأقدام بين مسكن البرجي وبنائته في صحبة أبو عبد الله فيراقبه وهو يداعب هذا أو تلك ويسلم على صديق ويحيي آخر أضحت اليوم أكثر طولاً وكآبة، الشارع اليوم ملجأ للمرعوبين زائغي العيون! استرجع وجه البرجي المهمووم. لأول مرة منذ عرفه رأى في قسماته قنوطاً وأطل من عينيه يأس لم يختبره فيه، بدا عاجزاً عن الفهم أو تبرير ما يحدث، لا يدري أخذه حلمه أم استفاق على ألوان الواقع؟

هذه لم تكن الحرب الأولى للبرجي المغامر لكن نظراته البائسة قالت إنها الأخيرة، الرجل الذي أمضى حياته بمنطق الحوادث على ما بهوى أو يأمل ويهني الحلم في مروفيا للمعدمين الطيبين

هزمه الواقع الدامي لهذه الأرض التي لم ترتو بكل الدماء التي سالت في دروبها حتى الآن، لا يدري لماذا، لكن انقبض قلبه لما خطر له أنه لن يرى البرجي مرة أخرى!

وقفت السيارة أمام البناية مباشرة، وكان لعجبه أن وجد زونجا في مكانه المعتاد يذود الناس عن دخول العمارة بصوته العالي واضطرابات جسده الهزيل، تهلل زونجا لرؤيتهم قادمين وبانت ثنيته المكسورة. تذكر حديث الشيخ الصدي منذ أيام عن شياطين منروفيا، إنه على حق! فتلك العيون التي رآها في الخبرة ليست لبشر لا بد أن زونجا كان صادقًا هو لا يملك من حطام الدنيا شيئًا يخاف عليه من الحرب فلا مال ولا ولد ولا رجاء في قادم، يدرك أن أيامه في هذه الدنيا معدودة إن لم تأخذه الحرب أخذه المرض أو نال منه الهرم!

تجاوزوا زونجا الذي سألهم إلحافًا فبره هو مما في جيبه، هس الشيخ وتركه لحاله وعاد يجادل من حوله، أخذ وحيد مفاتيح الطوابق من يديه، تعجب هو لما رأى كل الأبواب الحديدية للطوابق مفتوحة مصارعها لكن لا دخلاء، استراح لذلك لأن رحمة وحيدة بالشقة.

عندما وصلوا إلى حيث باب به بالدور الخامس وحانت لحظة المواجهة، تقدم ومد يده فأخذ مفاتيحه من وحيد ونظر في عينيه مستعطفًا وجلاً كأنه يسأله ألا يخيب رجاءه في أن يصطحب رحمة، ساعده وليد في فتح الباب الخشبي حيث كان الباب الحديدي مفتوحًا.

صعق الجميع لما انفرج الباب ورأى بشقته رجلين يجلسان على الأريكة، وبضعة أطفال يركضون ويملؤون المكان، وسيدات ثلاث جلسن أرضًا بالقرب من المطبخ وأمام غرفة نومه!

ران صمت وتلاقت العيون على توجس وتحفز، فإذا بخادمه عمر يخرج من المطبخ عار الصدر، تقدم جلاً مطرفًا فهو لم يكن يتوقع عودته.

سأله بحلق: ما هذا يا عمر؟ من هؤلاء؟
 رد عمر: هؤلاء أهلي يا سيدي، جئت بهم إلى
 هنا من أقصى المدينة للاحتماء!
 عاد فأطرق وران صمت الدهشة بين الجميع،
 لكنه قطع الصمت وصرخ في وجه عمر سائلًا: أين
 رحمة؟ انطق!

لم ينبس عمر بكلمة ونظر في الأرض متبلهًا!
 تخطى عمر وحاس في جميع الغرف يبحث عن
 رحمة، لم يجدها!
 فعاد وجذب عمر من ذراعه وسأله: أين ذهبت
 رحمة؟

رد عمر منفعلًا: لا أدري يا سيدي!
 في هذه اللحظة قرر وحيد التدخل عندما أحس
 بالموقف يحتدم وبدأ أهل عمر يتمايزون لما يحدث
 أمامهم، فتقدم من عمر، ربت على كتفه وقال
 له: حسناً فعلت أن جئت بأهلك إلى هنا، هكذا
 يحتمون ويحمون الشقة ومحتوياتها، هيا ساعدنا
 في إنزال بعض الحاجيات للسيارة، ولا تقلق
 سنترك لكم قوتًا وماء.
 فأوما عمر منصاعًا.

شرع عمر ووليد في حمل زجاجات المياه بينما
 أحضر وحيد حقيبة تحت أعين السيدات أمام غرفة
 النوم، حملوا أرزًا ومعلبات غذائية ترك وليد بعضًا
 منها في المطبخ، أما هو فقد وقف مشدوهمًا لا
 يدري ماذا يفعل فنهره وحيد قائلًا: اتحرك مافيش
 وقت!

ولج غرفة نومه باستحياء، بحث عن حقيبة فوجد
 حقيبته الصغيرة ما زالت في مكانها فوق خزانة
 الملابس فارغة، جذبها بيده السليمة سقطت، مال
 على ألم ورفعها على السرير بينما وقفت امرأتان
 متقابلتان تختلسان النظر إليه عند حافة السرير
 من الجهة الأخرى القريبة من الشرفة، حاول فتح
 الحقيبة لم يستطع فتقدمت إحداهما على

استحياء وتطوعت بفتحها له وساعدته في وضع بعض ملابسه قالت لها عيناها شكرًا فأومات عيناها في تخرج.

كاد أن ينسى أوراقه لكن تذكر فمد يده في رف الخزانة العلوي فوجد جوازي سفره المصري والأمريكي وبعض أشياء أخرى فأخذها وألقاها في الحقيبة. أقفلتها السيدة فأوما لها ممتنًا وما زال الذهول يتلبس ملامحه، خرج تحت أعين أهل عمر يجر الحقيبة فوجد وحيدًا ووليذًا وعمر ينتظرونه.

ترك بيته للغرباء!

نزلوا الدرجات على عجل حتى وصلوا إلى حيث السيارة التي تجمع حولها نفر غفير وقف زونجا يصايحهم ويهشهم، فتح وحيد بابها الخلفي ووضعوا ما حملوا، غطى وحيد ما يستطيع مما حملوا بقماش غطاء السيارة ثم ركبوا وتحركوا مسرعين مخافة أن يهاجمهم الجائعون إذا ما رأوا الطعام. الحركة في الإياب كالمجيء بطيئة مقيمة، نظر وحيد إلى عداد الوقود فكان يشير أن بالسيارة أقل من ربع ملء خزان الوقود فتوجس أن يؤدي بقاء السيارة إلى نفاذ الوقود ولا إمكانية للتزود الآن.

قد يضطرون إلى ترك ركوبتهم بما حملت والإياب سائرين بين الجموع يتجشمون الذبابة، لكن لحسن الطالع وبعد ساعة استطاعت السيارة وقطعت المسافة حتى النقطة التي وقف عندها الجنود الثلاثة وهي مسافة لا يتجاوز قطعها عشرة دقائق في الظروف العادية، عرف الجند السيارة فحركوا البراميل فمرت في سلام.

يقطن وحيد في ركن من العاصميا بوينت به عدد من الفيلات الصغيرة مسورة بسور، لم يزل حارس السور في مكانه، لما رأى السيارة عرفها ففتح البوابة بعد مسافة قصيرة توقفت السيارة أمام

باب مسكن وحيد مباشرة فنزل ومعه وليد بينما ظل هو مشدوهاً مغيباً في مقعده الخلفي. لا يزال يفكر فيما جرى لرحمة! استغل فرصة انفراده حاول الاتصال بها لكن هاتفه نفذت طاقته فلم يستطع.

لم يتغيب الرجلان كثيرًا داخل المنزل وعادا بأغراض وضعها بالسيارة، وكررا الدخول والعودة للسيارة حيث وضع وحيد هذه المرة حقيبة في الخلف بجانبه، وبعد أن جلس خلف المقود التفت إليه ورمقه بحق وتشكك متسائلًا:

- مَن رحمة؟

**

(40)

هذات عودتهم سالمين النفوس القلقة بالسفارة، فغيابهم وخاصة وحيد لساعات طوال في المجهول جعل الملتجئين يشعرون بالانقطاع، فكان إيابهم عصرًا بمثابة عودة الروح للجسد خاصة لمصلح الذي توترت أعصابه وجلس يفكر في كيف سيقود الناس إلى السفارة الأمريكية وكيف سيدخلونها وكيف سيتعامل مع «المارين» إذا ما أوقفوهم أمام بوابة السفارة، أسئلة سرّها في خلده وتبخرت بعودة وحيد.

رحب الجميع بالعائدين الظافرين وجدّوا في إخراج ما أحضروه من أطعمة ومياه. مؤن خفت وطأة الخوف من الجوع، فمعهم ما يتزودون به ربما لثلاثة أيام إضافية.

كعادته اختفى وحيد في مكتبه ثم خرج بعد برهة وقد بدل ملابسه بأخرى نظيفة وحمل ملابس للدكتور شاهين الذي تلقفها شاكراً وسارع إلى الحمام ليغتسل ويبدل ثيابه المتسخة ثم خرج متحرّجاً في الملابس النظيفة التي بدت أقل وقاراً وأضيق مقاساً من لباسه التقليدي عادة، لكن الملمات تستدعي الضرورات!

سارع بملابسه المغسولة إلى فناء السفارة الخلفي لتنشيرها وتجفيفها، الطبيب محمد شاهين هو من يؤم الصلاة، له هيئة متأففة وسمات متغطّسة لا تنم عن أخلاقه الحميدة في المجل!

طبيب الباطنة محمد عبد المنعم أكثر الملتجئين ثرثرة وحديثاً، ما إن يسمع صوت مولد الكهرباء حتى يسارع إلى قابس الكهرباء لشحن هاتفه المحمول ويثابر في طلب الأرقام حتى ينجح، فيثرثر مع زوجته أو أي من أهله معظم وقت عمل المولد لا يمل ولا يفرغ مستغلاً فتح المكالمات الدولية بلا مقابل، بمجرد أن يفصل الهاتف عن

شاحنه يحاذر جداً في استعماله ويشرع في الحديث مع باقي الملتجئين في كل شيء، لا يتكلم في الحرب فقط، ولكن يتكلم في أشياء أخرى بينها ذكريات طفولته وتعليمه الجامعي.

نبيلة الفتاة الطويلة هي أكثر الموجودين تحفظاً وغموضاً لا تتحدث كثيراً، لا يعرف عنها غير أنها جاءت إلى أبيدجان صحبة صيدلاني لبناني تساعده على عمله، ثم أتت معه إلى منروفيا عندما قرر أن يجرب حظه فيها.

أما الأستاذ محسن إداري السفارة فهو الأشد خوفاً بين الجميع، علامات القلق لا تغادر ملامح وجهه ربما لمرضه وسنه المتقدم، محسن ينهي مسيرته المهنية خلال أسابيع معدودة عمل خلالها في دول أوروبية وعربية، وشاءت الأقدار أن تكون منروفيا خاتمة عمله فقد بلغ الستين إلا أياماً قليلة ولولا قيام الحرب لكان يعد نفسه الآن للسفر ومن ثم التقاعد في سلام ودعة بمنزله.

هو صامت تائه بين أفكاره، تتلاعب به أشباحه، يحاول أن يكتشف في ذاته صيغة لاستيعاب الحرب، خاصة هذه الحرب الأهلية الذي تذوب فيها الفوارق بين القاتل والقتيل وتدفع البشر دفعاً إلى أغوار التاريخ الوحشي، الحرب تعيد النفس الإنسانية إلى غرائزها المجردة لا فرق بين إنسان يعيش في هذا الزمن أو أزمان خلت، الكل تحت سلطان الموت تلقائيون في تشبثهم بأسباب الحياة، تختفي كل المشاغل إلا الانشغال بالبقاء، الحرب تضع المسلمات محل شك تمتحن الإرادة وتختبر خيرية النفوس. تمحو كل خطوط التحضر من الذاكرة البشرية.

قلبه ينقبض وعقله ينغلق على فكرة واحدة وهي أن عمر خادمه يضم شيئاً عن اختفائها، وإلا لماذا أطرق ولم يُجب وبدا حائراً لا يدري ما يقول وهو يسأله عنها، هل طردوها؟ هل أصابها منهم

مكروه؟

بالتأكيد عندما دخل عمر وأهله ووجدوها أبدت مقاومة لفكرة احتلالهم البيت، ربما قتلوها!
لا كرامة لحياة في حرب، المعادلة قطعاً صفرية فلماذا يحفلون بحياتها! تجسدت له صورة كلاوس وهو يقول «تُقتلُ أو تُقتل» وعمر في الأساس يكرها ويكره أنها تأكل الطعام وتحظى باهتمامه.

عمر يا لك من قذرا! لقد أحسنت إليك وأغدقت عليك وجزائي أن تسيء إليّ فتقتل المرأة التي أحب؟ بل الإنسان الوحيد الذي يحبني في هذا العالم! تباً لك!

لكن لا أثر لدماء أو مقاومة بالبيت! ربما مسحوا الدماء أو ربما خنقوها بأيديهم فأزهقوا روحها وتخلصوا من جثتها أو ألقوها عارية بقارعة الطريق كتلك الجثث الممددة أمام السفارة!
يا للبخاعة، تباً لك سأعود وأقتلك يا عمر! نعم سأقتلك يا عمر كما قتلتها!

لا أغلب الظن أنهم طردوها، هم كثيرون وأكد هي لم تقاوم فلم يقتلوه، ربما رقت لحالها واحدة من النساء!

ظلت نفسه توسوس له والأطيفاف تراوحه تشعل النار في عقله وروحه، تسيطر عليه فكرة قتل عمر معظم الوقت!

غابت الشمس واصطف بعض الملتجئين خلف الدكتور شاهين للصلاة التي كان يجهر بها صوته الأجهش، أما هو فقد وقف يدخن سيجارته الأخيرة في الشرفة، أعطاه وحيد علبة من مخزونه وأوصاه بالاعتقاد فيها لكن ما يستعر في قلبه جعله أكثر شراهة للتدخين يفكر في حيلة للتسلل خارجاً والذهاب لقتل عمر والعودة.

جرب تحريك ذراعه، حركتها أفضل لكن تؤلمه لو زاد تأرجحها، ما زالت الجثث التي خلفها

المتظاهرون أمام عينيه، أين ذلك المسدس الذي أعطاه له كلاوس ربما في الخربة التي تسكنها الشياطين ذات العيون المضيئة!

ربما عليه مغافلة وحيد أو مصلح وأخذ سلاح أي منهما لإنجاز قتل عمر انتقامًا لرحمة، كيف سيقطع المسافة من هنا إلى بيته؟ هل في سيارة وحيد وقود كافٍ؟ كيف سيخرج دون أن يشعر أحد؟ زفر حانقًا ناقمًا.

ما إن حل المساء حتى بدأت المعارك تتردد أصدائها في المدى القريب، القصف وأصوات القذائف تتسلط وتعلن عن خروج قبح الإنسان مع غروب آخر خيوط الشمس، بعد ليالي الإصغاء للموت يستطيع الآن تمييز أصوات الأسلحة، هذا الصوت المكتوم يتلوه الانفجار لقذيفة «مورتر»، صوت الصغير ثم الانفجار دانة مدفع، صوت أزيز الرصاصات المتتالية هو الكلاشينكوف، جلس ينصت للدوي في المدى وقد غيب الحقد والفقد حواسه، بالرغم أن ذراعه لم يشف بعد لكن الغل يسيطر على وعيه فلا يدرك شيئًا آخر غير أن عليه الانتقام، الانتقام سيشفي غليله.

فجأة بدون سابق إنذار رن هاتفه، أخرجه من جيبه ونظر في شاشته فصعق! رفعه إلى أذنه مجيبًا بسرعة، كانت رحمة على الطرف الآخر، فغر فمه مشدوهاً وسارع بسؤالها إن هي بخير؟

قالت له إنها بخير ذهبت في الصباح الباكر للاطمئنان على أهلها فلم تستطع الخروج من منروفيا وعندما عادت وجدت عمر وأهله في البيت، وهي تقف في الشارع أمام البناية لا تدري ماذا تفعل الآن، طلب منها ألا تصعد إلى الشقة وسألها هل تستطيع الوصول إلى المامبا بوينت؟ قالت سأحاول!

شدد عليها أن تأتي إلى السفارة لتبقى معه هنا، فهنا أمن لها. فوافقت وقالت إنها ستأتي

من فورها.

وضع هاتفه في جيبه، تهددت كل غيوم حقه على عمر، فلم يعد يرى وجهه بين الأطياف، بدت الغبطة على ملامحه ولمعت عيناه، رحمة ما زالت حاضرة، لم يفقد وجودها الذي يذود عنه الخوف من الوحدة والقلق من المجهول وويلات الحرب، رحمة حية إذا الأمل باق!

بينما تتسارع في نفسه أحاسيسه المفعمة بالحب والرجاء، أدرك أنه قد حانت الساعة لمفاتيح وحيد في أمر رحمة، يجب أن يخبره الآن.

في وقت العشاء، جلس الجميع متأهبين في أنحاء البهو إلى أن جاءت سعاد بطنجرة كبيرة مملوءة أرزًا ووضعته على طاولة الاجتماعات، وحملت نبيلة أطباقًا وأدوات مائدة، بينما أحضر وليد طنجرة أخرى أصغر تفوح منها رائحة فول بالصلصة صنعوه من المعلبات التي أحضروها من بيته آنفًا، تحلق الجميع حول الطعام، فظروف الأكل المقنن جعلت الجوع حاضرًا دائمًا وللطعام الذي يقدم مذاقًا وشهية غير مفهومة.

أخذ وليد يغرف للواقفين بحماس، غرفتي أرز وغرفة فول، كان هو آخر من تقدم للطعام، على الرغم من أنه لم يأكل منذ وجبة الصباح إلا أنه لا يشعر بالجوع كسابق يومه أو يحركه نهم كمن حوله، كل ما يشغل باله الآن هو رحمة ومفاتيح وحيد بأمرها.

جلس كلُّ أين يروق له مع من يروق له ليأكل، أخذ هو صحنه وجلس بطرف الأريكة التي باتت بألفها، الكل منهمك يأكل على وقع أصوات الحرب في المدى، الصمت لم يحزّه سوى صوت الدكتور محمد عبد المنعم عندما توجه إلى سعاد ووليد بالشكر على الفول اللذيذ، أطلب الدكتور محمد شاهين على ما قال زميله ردت سعاد في امتنان وعقب وليد مرهقًا. استمروا في تناول الطعام

بينما تبوء محاولات سعاد لتحفيز ابنها ليطعم بالفشل، الطفل هو الوحيد بين الملتجئين الذي عاف ما قدمته أمه إليه من الفول، يأكل الأرز الأبيض فقط على مريض!

وحيد جالس بالقرب من الأستاذ محسن، بينما يختلس هو النظرات إليه، لاحظ وحيد نظراته المريبة التي يرمقه بها فقام من مجلسه وجلس إلى جواره، ازدرد ما في فمه من طعام وهو يستقر في مجلسه وسأله مباشرة بصوت خفيض: إيه حكاية رحمة؟

أسرى السؤال قشعريرة في جسده، توقف عن المضغ وجال بناظره بين الحضور، فتأكد أن أحدًا يتابع حديثهما غير الأستاذ محسن الذي يجلس غير بعيد وقد قارب على الفراغ من صحنه، لكنه تشاغل بما بقي به لما رآه ينظر إليه، عاد يحدق في وجه وحيد ورد سائلًا:- ممكن نتكلم في مكتبك؟

تأمل وحيد ملامحه المتوسلة هنيهة، ثم أوما له وقال:

- بعد ما تخلص أكل تعالى.

ثم قام من مكانه وقد فرغ من طعامه وضع الصحن بالقرب من نبيلة شاكرًا، ثم اتخذ طريقه إلى مكتبه.

فرغ هو أيضًا من طعامه بسرعة، وذهب إلى حيث وُضعت الصحون الفارغة، صادفه الدكتور شاهين فبادره بالسؤال على حال ذراعه، فأجابه بأنها أحسن وقد خف النقر عن ليلتين مضتا، هز شاهين رأسه برضى وطالبه بالآلا يستعجل في تحريكها وأن يبقيها في الحمالة فترة أطول، كان الدكتور محمد عبد المنعم قد غير ضماد رأسه وطمانه أن جرحه يلتئم دون مشاكل. وقف محمد شاهين يسأله عن شخصه وحياته وتطوع بأن يقص عليه كيف أنه بدأ حياته العملية في مستشفى التأمين الصحي بالإسكندرية، وأنه يكن للمديلة عاطفة خاصة؛ حيث أتاها أول مرة قادمًا من بركة

السبع لدراسة الطب. هو يرد باقتضاب حيث كان يتحرق أن يذهب إلى وحيد، بدا شاردًا وهو يستمع إلى محمد شاهين إلى أن جاء الدكتور محمد عبد المنعم فاسترعى انتباه شاهين لموضوع آخر، فانسحب من بينهما بهدوء، توجه إلى حيث باب وحيد المغلق فقرعه فجاءه صوت وحيد من الداخل: تفضل!

جلس أمامه وقد تندى جبينه، صمت قليلاً يرتب أفكاره، ثم بادر وهو شاخص لا ينظر في وجه صاحبه:

- وحيد أنا بأحب رحمة وعايز أجيها هنا تاخد فيزا!
- مين هي! وفيزا إيه؟ هو ده وقته!
- ما هي لازم تسافر معايا، مش ها أقدر أسيبها هنا، مش ها أقدر أسافر من غيرها!
- أرخى وحيد ظهره بالكروسي وسأله بهدوء:
- ومن إمتى حكاية الحب دي!
- مش من زمان
- ما قولتليش!
- ماكنتش متأكد، والموضوع جه بسرعة.
- تشكك وحيد في منطقه المتحجج المتلعثم، فأجابه:
- عامة لكل حدث حديث، مافيش مطار، بعد الدنيا ما تهذا نشوف موضوع الفيزا.
- ما يقول وحيد منطلق لا يستطيع محتاجته فيه. استجمع شتات أفكاره وسأله:
- طيب كنت عايز أطلب منك طلب!
- اتفضل.
- ممكن تهجي تقعد معنا هنا؟
- مين؟
- رحمة!

كاد وحيد ينفجر غضبًا، لكنه تمالك أعصابه ورق قلبه لحال صديقه المهموم بحبه، فصمت، ثم مال

وقال بهدوء:

- أنا فاهم إن في مشاعر عندك لرحمة، أيا كانت رحمة، لكن لازم تفهم إن ده وقت عدم استقرار وحرب، وفي أي وقت ممكن نلاقني نفسنا في موقف بيهدد حياة الجميع لأتفه الأسباب، أنا مسؤول فقط عن المصريين هنا، وما فيش وقت ولا مكان ولا إمكان أتحمل عبء حد تاني، لو كان بإيدي كان أولى أجيب أبو عبد الله مثلًا! لكن أنا عندي مسؤولية مهنية وضميرية تجاه المصريين فقط، وما أقدرش أخاطر بحياتهم لأني سبب تاني، إحنا هنا بنعدي الأيام يوم بيوم لحد ما نشوف آخرتها، ولو سمحت لصاحبك تيجي كل واحد بره ممكن يقول لي ودي لازمته إيه تشاركنا، أو كل واحد يقترح يجيب فلان أو علان!

- بس!

- آسف جدًا الموضوع منتهي! وما فيش نقاش فيه.

انتهت الجلسة على غير ما رغب، فترك مكتب وحيد عابسا مغاضبا! نزل إلى فناء السفارة الأمامي يزرعه ذهابًا وإيابًا، غير عابئ بالهمز واللمز والعيون التي تترصد خطواته الحائرة حول المكان.

يا له من ظالم قاس! لا يوجد في قلبه رحمة!

نعم، رحمة في قلبك أنت!

لكن كيف تسمح له إنسانيته أن يغلق أبوابه أمام إنسانه ضعيفة تستنجد به من خطر الموت المحقق!

إن رحمة شأنها شأن كل هؤلاء المعذبين الأبرياء، تسحقهم النفوس التي يعميها المال والسلطة، ألا يستحقون فرصة في الحياة! لماذا لا تطول النار غير عظام المسحقين، أين العدل أين الرحمة! أنت ساذج!

استرجع مشاهد المسيرة والجثث المحمولة فوق الأعناق! توجهوا إلى السفارة الأمريكية يستنجدون ففرقت جموعهم المذعورة بالرصاصة.

هم بشر مثلنا لهم حقوق أبسطها الحياة!
 ما يحدث في منروفيا هذه الأيام هو انحطاط بشري لكل إنسان في العالم يعلم بأمر هذه المأساة ولا يفعل شيئاً! كيف يتركون الناس للقتل العشوائي بلا ذنب أو جريرة!
 إنهم يقتلون لا لذنب أو هوية أو ملة هم يقتلون لأنهم هنا!

ما ذنب طفل أن يُقتل في قلبه طفولته ويتحول لمسوخ قاتل، بشر مسالمون يذبحون ولا يتحرك قلب أحد!

هل هي الحرب فقط التي تقتل الأطفال؟
 لا أدري أنت دائماً تحاول أن تكون متفلسفاً متشدقاً، وأعلم أنك تريد أن تلوم أمي! لكن ليس كل الناس ينعمون بطفولة سعيدة، هذا قدر!
 رحمة لم تولد في وطن سعيد، ولا أسرة دامت في هناء وأنظر إليها متفائلة دائماً وإيجابية ليست مثلك أو مثل هذا الذي يتشدد بمسؤولياته!

أنت منحته فرصة أن ينقذ إنسانيته بإنقاذ رحمة فأبى!

ماذا يعني هذا؟

يعني أنه منحط هو الآخر، لقد خان صديقه أبو عبد الله البرجي بأن لم يُجره! والآن يخونني فلا يسمح لرحمة أن ترافقني!

إنه بذلك يقتلني!

إنني ميت بغير رحمة، ومن يملعني عنها سأقتله!

بعد برهة من اللقاء الثقيل بينهما، خرج وحيد إلى البهو ثم إلى الشرفة، كان يبحث عنه، التفت نظراتهما بدا لوحيد شخصاً وجلاً معذباً، حيواناً

جريبًا وقع في فخ لا يدري كيف أو أين المفر.
 أراد مواساته لكنه رمقه بغلٍ وأعرض عنه، ظل
 يذرع الفناء بعصية زادت مع معرفته أن وحيدًا
 يراقبه من الشرفة!

اقترب وليد من وحيد وسأله:

- هو فيه إيه! ما له ده؟

رد وحيد:

- أعصابه تعبانة شوية، سببه في حاله، كل واحد
 فيه اللي مكفيه، ومش كل واحد أعصابه حديد زي
 أعصابك!

مد يده في جيب قميصه أخرج علبة سجائره
 أعطاهها لوليد وطلب منه أنه يحملها إليه، ثم عاد
 أدراجه إلى مكتبه.

نزل وليد درج الشرفة إلى الفناء بخطوات رياضية
 واقترب منه حتى وقف أمامه وحدق في عينية
 بنظرات شرسة وقال:

- وحيد بيه باعت لك دي!

وضعها في يده بتأفف. تلقفها هو بلهفة، فقد
 نفذت سجائر العلبة الأخرى في وقت سابق.

بينما هو منهمك في إشعال سيجارة استدار
 وليد وابتعد عنه صاعدًا سلم السفارة لكن التفت
 نحوه فلاحظ أنه يرمقه بنظرات ملؤها الحقد،
 فتوقف من فوره وسأله متحديًا:

- فيه حاجة؟

فأشاح هو ودار على عقبيه ولم يجب.

هذا وغد آخر، مغتر بفتوته، مخلص لرئيسه
 كالكلب!

كلهم كلاب قساة، حتى الطبيب ترك الجرحى
 وجاء يركض باحثًا عن سلامته!

وأنت ماذا فعلت؟ ألم تترك كلاوس يموت؟
 هربت، جبانًا ترتعد كالفار!

كلاوس اختار مصيره وما كنت لأمنعه!

لماذا لم تحاول؟
وماذا كان بإمكانني أن أفعل!
لقد كانوا قتلة متعطشين للدماء!
وانت؟
لست قاتلاً!
متأكد؟

اصمت عليك اللعنة، أين رحمة لماذا تأخرت؟
صمت الصوت وصدعت الذكرى في كيانه ترجرجه،
صورة أمه تناوله كوب الشاي الذي أعدته لوالده
وهي تقول بتوتر:

- خذ ودي لأبوك الشاي وإياك تدوقه!
حمله إلى أبيه بحذر فتناوله أبوه الجالس في
كرسيه المعتاد بالشرفة مبتسماً شاكراً. ارتشف
من الكوب ووضع على منضدة قريبة منه.

ساعات قليلة طويلة مرت وهو على حاله في
الفناء، تعب من حركته البندولية فجلس بطرف
السلم، يرقب البوابة الخضراء، انتصف الليل،
أصوات نقيق وصرير، يلوح حركة بين الأشجار، لا
يميز سببها ربما وطاويط، من وقت لآخر ينتبه
فيسمع أصداء المعارك!

الكل نيام إلا هو، بعد العشاء، توقف مولد
الكهرباء عن العمل فسربل الظلام الملتجئين،
تموضع كل في مكان نومه، ثرثرة لدقائق ثم
الصمت يقطعه بعض حشرات وشخير.

تتداعى في خلده تلك الأطياف تأمره وتعنفه!
يكاد يصرخ جهاراً «كفى» لكنه يكبت صرخته، يترنح
في مجلسه من فرط انفعاله، أفكاره متضاربة
مشوشة.

في قمة انفعاله، سمع همساً بالقرب من الباب
الحديدي الأخضر، اعتدل واقفاً، ظن أنها رحمة،
اقترب متوجساً تحسس الباب بأنامله وأطرق
يسمع، جاءه صوتها مجدداً، نعم إنها رحمة!

أخذ يفتح المزلاج الصدي على مهل، كلما أحدث صريرًا توقف عن جذبه حتى لا يوقظ وليد، وليد يضر له شرًا هو على يقين من ذلك!

دقائق مرت دهرًا لكنه فتح الباب، ومن انفراجه مرت رحمة إلى الداخل، هي جميلة كما عهدها لكن تبدو مرهقة، أشار لها وهي تدخل -بأصبعه على فمه- ألا تحدث صوتًا!

دخلت فوقفت خلفه لا يختلج لها طرف، تتابع حرصه في غلق البوابة، عامل المزلاج حتى أغلقه ثم سحبها من يدها وسار بها محاذًا، مر بجوار المبنى حتى وصلا إلى الفناء الخلفي، نظر إلى حيث نافذة وحيد التي تطل على هذه الناحية، تأكد أن لا عيون ترصده تابع سيره إلى حيث الغرفة التي استقر بوسطها مولد الكهرباء، دخلها وهي من خلفه!

ما إن أغلق الباب حتى أخذها بين ذراعيه، ضمها بقوة وأخذ يلثم وجهها بلهفة واشتياق لا يرتوي، كان الظلام حالكا لكنها أضاءت روحه، يراها بجلاء كل تفاصيلها التي تؤنسه ورائحتها التي تدغدغ مشاعره وضممتها التي تقيه شرور أشباحه.

حبيبتي كم اشتقت إليك خشيت عليك من أن يصيبك سوء، كدت أجن عندما ذهبت إلى المنزل ولم أجدك، أريد أن أعترف لك بأنني أدرك أن لا حياة لي بدونك، أنا أحبك نعم أحبك بكل ما في وجودي من أحاسيس، من اليوم وإلى الأبد لن نفترق حبيبتي!

(41)

اليوم الخامس في السفارة.

يبدو على الجميع علامات الإعياء والضرر، ضاقوا بمنوال الأيام التي تمضي ثقيلة، فلا نوم هانئ ولا طعام يشبع، لا راحة ولا خصوصية ولا نهاية تلوح في الأفق.

مجريات المعارك أصبحت عند معظمهم مجرد هاجس تبلدوا له، الحرب أصوات يسمعونها في المدى تذكرهم بما يدور خارج عالمهم المحاصر! ساعات النهار شائكة وساعات الليل محبطة، لا تخلو أوقاتهم معًا من أحاديث ناقدة أو متحدية أو مستهزئة، التشاحن فيما بينهم يفرضه الملل مع القرب.

اعتادوا وجوه بعضهم بعضًا، فبدأت مساوئهم تتكشف، الساعة في المحنة كالدهر في النعمة، يتعلم فيها الإنسان دروسًا أعمق عن الذات، عن الآخر، عن الحياة، فيتخفف من أثقال انشغالاته وينكسر أمام مكتشفاته أو يثور على مسلماته.

كل يوم يمر يكبرون شيئًا على خوفهم، توالي الأيام يكسب أحاسيسهم منعة غير مبررة، السؤال الذي يتبادر في أذهان معظمهم: هل ما يحدث خارج هذا المكان يستأهل هذا الحبس الإرادي؟

صباح أمس دخلت نبيلة للحديث مع وحيد في مكتبة، دخلت في حياء من يخفي خزيًا ما، طلبت منه أن تذهب لإحضار بعض ما يلزمها من مسكنها القريب من فندق المامبا بوينت، لم يستطع منعها موافقًا على مضم.

يرمق الدكتور شاهين نبيلة بنظرات امتزج فيها الاحتقار بالرغبة والترفع بالفضول، فقد علم من حديث النميمة بشأن علاقتها بالصيدلاني اللبناني، ووضع علامات استفهام كثيرة حول ترحالها معه دون إطار أو مبررات مقنعة. يريد إسداء النصح لها وتذكيرها بالحرام والمنهي عنه وتقبيل شفيتها

وتحسس نهديها الناتئين، لكنه لم يقدم قطّ على التودد لها بل يتعمد أن يرميها بتلك النظرات التي فهمت مغزاها وتجاهلتها.

بعدها تابعها وهي تخرج من البوابة الخضراء ذهب شاهين إلى وحيد وأعرّب أيضًا عن رغبته في الذهاب إلى مقر سكنه بالقرب من المستشفى، فعارض وحيد الفكرة بشدة لبعد المسافة وموقع المسكن في مناطق المعارك. فثارت ثائرة شاهين وقال محتدًا إنه لا يطلب إذنه بل يخبره فلا وصاية لأحد عليه، فما كان من الدبلوماسي الشاب إلا أن تركه ووقف متوسطًا البهو وقال بنبرة حاسمة حانقة أن من يريد المغادرة فليغادر، لكنه غير مسؤول عن أي منهم بمجرد خروجهم من بوابة السفارة! ولن يستطيع إغاثة أحد غير الموجودين هنا، وأن من سيخرج فسيخرج على مسؤوليته بعد أن يقر بذلك كتابة!

ثم تراجع إلى مكتبه، فسكت الجميع وبكى الطفل!

بعد تفكير قصير، تراجع شاهين عن فكرة الخروج وقرر -دون أن يعلن- الاستمرار في السفارة. بعد ساعات قصيرة عادت نبيلة، يبدو أنها تحممت ووضعت بعضًا من عطر وأحضرت حقيبة، يروق لشاهين تعطرها وهيئتها المنتعشة بالاستحمام!

خارج العاصميا بوينت أحداث الحرب تتوالى، قوات «الموديل» المتمردة أحرزت انتصارات متوالية ضد القوات الحكومية وأصبحت تسيطر على التخوم الشمالية للمدينة وبعض ضواحيها وتدفع في اتجاه القصر الرئاسي.

تتواتر أنباء عن إمكانية تدخل قوات حفظ سلام من غرب أفريقيا لفض الاشتباك، الولايات المتحدة تضغط على الرئيس تيلور لتسليم السلطة لحكومة انتقالية لحين عقد الانتخابات ديموقراطية تتولى بعدها حكومة شرعية.

القوات الحكومية بدأت في الانحلال، كثير من أفراد الميليشيات الذين اعتادوا الكر والفر لا طاقة لهم بالتمركز والمواجهات المستمرة، فأخذوا يفرون إلى الأحرار التي تحتوي قواهم الخائرة وتخفيهم عن أعين أعدائهم وأحلافهم، فلم يعد لديهم من المؤن ولا الذخائر أو الأموال ولا المخدرات ما يحفزهم على الاستمرار في القتال! يبدو أن أيام تيلور رئيسًا أصبحت معدودة.

أما هو فمئذ حواراه مع وحيد مختفٍ عن الأنظار، يتحاشى الاختلاط بالملتجئين، معظم الوقت نظراته متحفزة، كلماته مقتضبة، عابس دائمًا! لم يعتد كغيره أجيح المعارك القادم من المدى، ما زال يجزع ويتصور أنهم قادمون لقتله، أصبح حاله ومسلكه لغزًا محيرًا للجميع خاصة وليد الذي يتربب جدًا من تصرفاته غير الطبيعية، فهو يقضي وقتًا كثيرًا في غرفة المولد الكهربائي حتى في ساعات عمل المولد بالرغم من الضجيج الذي يحدثه والحرارة ورائحة حرق الوقود الخائفة!

منذ أمس الأول قال لوحيده إنه هو من سيُعنى بالمولد وتشغيله وفق الجدول المعمول به فوافق وحيد ظنًا منه أن يريد التشاغل بشيء عن ضياع أمله في محبوبته.

عصرَ أمس، دفع الفضول وليدًا إلى أن يذهب ويتحرى أمره، لماذا يقضي كل هذا الوقت منعزلًا في تلك الغرفة الكئيبة!

لما أدرك اقتراب وليد، واجهه هو عند الباب محاولًا الحيلولة بينه وبين الدخول!

أحس وليد بحدسه الأمني أنه يخفي شيئًا ما بالداخل فتجاوزه على عجل ودخل، الغرفة مظلمة خاوية إلا من المولد الذي تمتد منه أسلاك إلى سطح الغرفة وملها إلى مبلّي السفارة، جال بنظره، برمبلا الوقود بالركن كما هما، وجده قد

أعد فراشاً على الأرض في طرف الغرفة الأقصى
ووضع كرسيين بالقرب من الفراش! قدّر وليد أنه
يستعمل أحدهما كطاولة صغيرة!

لماذا ينام هذا المعتوه هنا؟ لماذا يعاقب
نفسه؟ تساؤلات طرحها وليد على نفسه ولم
يجد لها إجابة! يجزم أن هناك خللاً ما في سلوكه
أو أنه يخفي شيئاً ما، ربما يخبئ مآلاً ولا يثق
بالملتجئين؟

وقر في عقله بأن لو أصابهم سوء سيكون
بسبب هذا المعتوه!

وقت العشاء اصطف الجميع كما اعتادوا، عشاء
الليلة أرز ولحم التونة المعلب، العلب الأربعة هي
آخر طعام بالسفارة عدا نصف جوال من الأرز وبقية
من علبه ملح وما يكفي يومين من المياه الصالحة
للشرب!

وقف الدكتور شاهين في الصف خلف نبيلة
يتفرسها بناظريه، وحيد مهمووم مقطب ينتظر خبر
دخول قوات حفظ السلام لمنروفيا لحلحلة هذا
الوضع الحرج.

أما هو فيتعجل دوره في الحصول على الوجبة،
عندما وصل إلى حيث سعاد وضعت في صحنه
عُرفت من أرز وشيئاً من التونة، لم يتحرك ومد
طبقه ثانية دون أن يتكلم، فهمت سعاد فوضعت
بصحنه نصف غرفة أرز إضافية، نظر إلى صحن
التونة فتجاهلته ونظرت إلى الدكتور محمد عبد
المنعم خلفه ومدت يدها تلتقط الصحن منه.
فذهب هو عنها متأفماً ضجراً بتقثيرها عليه، قرر
أنه سيعطي الطعام الماسخ هذا لرحمة لتأكله
وسيظل هو بدون عشاء.

بينما تشاغل الجميع بالعشاء، اتخذ هو طريقه
لحو غرفة المولد، كان صوته مزعجاً جداً يكاد يُجن

بوضائه لاسيما أنه لا يستطيع أن يترك رحمة هنا بمفردها ولا يستطيع الصعود بها إلى هوى السفارة، لكن يبدو أن رحمة اعتادت عليه، فقامت إليه وتلقفت الصحن مبتسمة برضى!

قدرية وجودها تستدعي سكينه روجه فتتلاشى المنغصات والضوضاء وينحسر إدراكه عن كل شيء إلا عنها.

جلست فجلس أمامها وضعت الصحن في حجرها ووضعت فيه ملعقة تقلب محتويات الصحن، ثم رفعت الملعقة بالخليط وقربتها من فمه مبتسمة كما تحت صغيرها على الأكل.

فجأة، وبينما يفتح فاهه دوى صوت انفجار رهيب في المكان لدرجة أن سقط هو على الأرض وتوقف المولد عن العمل وأظلم المكان!

سمع صراخاً في الملتجئين وميز صوت الدكتور شاهين يدعو يا رب استر! يا لطيف!

انكفا هو فوق رحمة متوجسًا يرتعد لا يدري ماذا يفعل! مشوشًا فاقداً للسيطرة، رحمة ترتعد في صدره والخوف يتدفق في سرواله حارًا!

صور ما مضى من عمره تعبر برقًا في خلده، أمه تضع من ذلك السكر الذي تخفيه في كوب شاي والده، صفعاتها التي تنهال على وجهه، والده المسجى بسريره في المستشفى، كلاوس والدماء تنزف منه، تلك العيون البارقة في الخبرة، وجه منى الشاحب، مراني الإسكندرية، المحيط الهادر!

قذيفة مورتر سقطت فوق البيت خلف السفارة مباشرة، مجرد أمتار عن موقعهم، لم تمض دقائق حتى سقطت قذيفة أخرى غير بعيد في فناء السفارة الأمريكية القريب، كانت أصوات الانفجارات تصم الأذان، وتكرر الصراخ!

ميز صوت وحيد وهو يقول:

- كله على الأرض، خذ ساتر.

دوي هائل يعقبه صمت، ثم صفير ثم دوي!
الجميع ينتظرون المقذوف القادم فوق
رؤوسهم!

**

(42)

احتدم القتال ليلة أمس، رجرت القنابل المباني وسمعت صرخات الموت ونداءات المتقاتلين وضجت أسلحتهم، احتدم القتال من شارع إلى شارع بالأحياء التي ظلت تحت سيطرة قوات تيلور حتى ذلك الوقت، ولأول مرة منذ بداية المواجهات تسقط المقذوفات العشوائية بكثافة على بيوت ومباني المامبا بوينت، دارت المعارك الطاحنة في محيط القصر الرئاسي، لحسن الحظ لم تشأ قوات المتمردين اقتحام المامبا بوينت، لا يريد أي من الفريقين استثارة قوات المارين أو القوات الفرنسية التي تمركزت في مقر بعثة الاتحاد الأوروبي وفوق أسوار القلعة الأمريكية.

لم ينم أي من الملتجئين في ليلته، أبقاهم الموت المنتظر في أي لحظة متيقظين وجلين حتى ساعات الفجر الأولى، تتحسب دقائق قلوبهم المرتجفة لحين سقوط القذيفة بينهم لتحر أعمارهم، قضى الأستاذ محسن ليلته تحت مكتبه يتضرع باكياً على حاله وحظه التعس، بينما احتمت نبيلة وسعاد تحت الطاولة في البهو جزعتين منتحبتين، أما الطفل محمد فلم يكف عن الصراخ في أحضان أمه حتى نام من الإنهاك، واتخذ الآخرون سواترهم حول المكان المظلم فلم يتم تشغيل المولد الكهربائي هذه الليلة، واكتفى الجميع باستخدام البطاريات الضوئية إذا ما استدعت الضرورة التحرك. محمد شاهين لا يكف عن الدعاء الجهوري وتقرص بجواره محمد عبد المنعم يعرض على خوفه بالنواجذ، الكل على شفا الموت ما بين مرتعد ومبتهل مستمسك بأمل البقاء. هذا الليل حليف الموت لا يكثرث للأتات ولا يرق للصرخات التي تتلو دمدمة القذائف، القلوب الراجفة والنفوس الخائفة لا تقوى على شيء غير الرجاء وقد بلغت القلوب الحناجر!

ما إن أشرقت الشمس وبدأت حدة القصف تخف

تدرجياً حتى تنفس الملتجنون الصعداء، كانوا خائري القوى مجهدين نفسياً، واثاهم الحظ فلم تسقط المقذوفات فوق السفارة، ولم يصب أحد منهم بسوء.

غادر وحيد المبنى منوهاً إلى أنه سيذهب للقاء القائم بأعمال بعثة الاتحاد الأوروبي لبحث إجلاء الملتجنين ضمن إجراءات خروج الجاليات الأجنبية من منروفيا وطالب الجميع بالحذر الشديد وتجهيز ما خف من متاعهم استعداداً لعملية الإجلاء، وأنه سيطلعهم على التفصيل عند عودته.

قرص الجوع أحشاء صغيرها، فطهت سعاد الأرز مسلوفاً بالماء فقط فتعجن، لم يبق في السفارة شيء من طعام غير بعض من أرز، حتى الملح نفذ، لم يمس طنجرة الأرز أحد، ساعات الليلة المروعة قد ألفت في جوفهم ما يكفي من الرعب ليسد شهيتهم عن أي شيء، يسود بينهم إحساس باليأس والقنوط في انتظار مجهول يتجهمهم.

بعد قرابة الساعة من غيابه، عاد وحيد، الإعياء باد عليه لكنه وقف بين الملتجنين في جدية وحماس وطالبهم بالإنصات، فقال إن المتمردين يسيطرون الآن على معظم أرجاء المدينة ويحاصرون القصر الرئاسي الذي تدافع عنه القوات الحكومية باستماتة في معركة بقاء.

أتبع ذلك بقوله: تروج شائعات عن هروب تشارلز تيلور إلى نيجيريا، وأنه يجري حالياً الإعداد لإجلاء الرعايا الأوروبيين والأجانب من منروفيا بمعرفة القوات البحرية الفرنسية عن طريق مقر بعثة مفوضية الاتحاد الأوروبي!

طمأنهم أن المصريين سيكونون ضمن خطة الإجلاء لكن يتعين أن يذهب الجميع إلى مقر الاتحاد الأوروبي اليوم؛ حيث ستحملهم الطائرات المروحية من المقر إلى بارجة فرنسية على مقربة من الساحل، موضحاً أنهم سيتركون السفارة

متوجهين إلى مقر البعثة الأوروبية بعد حلول الليل حتى لا يلفتوا الأنظار إلى أن السفارة قد تم إخلاؤها. طلب من الجميع التركيز والتزام الهدوء وإحضار ما يلزمهم فقط فيما لا يزيد عن حقيبة صغيرة؛ حيث لن يسمح بدخول أمتعة إلى مقر الاتحاد الأوروبي.

كان الجميع ينصتون إليه باهتمام إلى أن فرغ من حديثه، سرت حالة من التفاؤل بين الجميع وأخذوا يبحثون في أغراضهم لحمل ما خف وغلا.

فطن وحيد إلى عدم وجوده بين الملتجئين، فسأل وليد عنه فرد الأخير أنه لم يره منذ البارحة، مرجحاً أنه ما زال في غرفة المولدا!

سارع وحيد يتبعه وليد إلى حيث غرفة المولدا، فتحتها فوجده نائماً في وضع جنيني على الفراش في ركن الغرفة المعتمة، اقترب منه فاشتم رائحة بوله الكريهة تفوح منه، فمال عليه، هزه فأفاق مذعوراً وتشبث عفوياً بيد وحيد!

استبد به الخوف، حاول وحيد جاهداً أن يهدئ من روعه، وأقام أوده. وطالبه بأن يطمئن فسينتهي كل شيء قريباً بعدما تم ترتيب الإجلاء، وأنهم سيغادرون اليوم.

ظن وحيد أنه سيرتاح لهذه الأنباء، لكن على العكس انفجر باكياً وأناخ على ركبته حتى كاد يسقطه، توصل إليه أن يصطحب رحمة أفلت وحيد ساقه من قبضته قائلاً:

- أظن حسنا الموضوع!

- أتوكل إليك مش هاسيبها هنا أرجوك!

- ونجيبها مينين دلوقتى؟

صمت لحظات وأقر أنها تختبئ هنا.

ذهل وحيد للمفاجأة ونظر إلى وليد الذي الدهش أيضاً وعاد يسأله:

- هنا؟ إزاي وإمتى!

- من ليلتين فاتوا.

- ليلتين!

نظر وحيد إلى وليد مستغربًا لانفًا، ثم أردف:

- طيب هي فين؟

فأشار هو بيد مرتعشة إلى برميلى الوقود بالركن، فتوجه وليد من فوره متوجسًا إلى البرميلين، نظر خلفها لم يجد شيئًا فقال:

- مافيش حد هنا!

لكلمات وليد وقع الصدمة على روحه! لقد رآها منذ لحظات قبل دخولهما وقد قامت لتختبئ عندما سمعت وقع أقدامهم قادمين!

فانتفض واقفًا وهو يصرخ بجنون:

- أزاى؟ عملت فيها إيه؟ وديتها فين!

هرول إلى حيث وقف وليد مذهولًا، نظر خلف البراميل لم يجدها، فأمسك بتلابيب وليد الذي ضرب ساعديه بقوة، ففك قبضتيه عن قميصه، ألمه ذراعه المصاب فصرخ! ثم عاد ينظر إلى وحيد مذهولًا، وقال وهو يهذي:

- يمكن خافت وخرجت!

ركض بكل ما في رجليه من قوة خارجًا من الغرفة، يبحث عنها في كل مكان بالسفارة وهو يصرخ باسمها!

لفتت هيئته وسلوكه المضطرب نظر الملتجئين، ركض وحيد خلفه فأمسك به محكمًا قبضته على ساعده قائلاً:

- اهدأ!

حاول الفكك لكن لم يستطع!

رضخ، تتلاحق أنفاسه من فرط انفعاله ومال على يد وحيد مستجديًا:

- أبوس أيدك لازم تهجي معانا!

- هي فين؟ مش يمكن خافت من القصف وهربت؟ هي لبيبرية؟
هز رأسه إيجابًا!

فاتبع وحيد:

- أكيد هاتبقى في أمان ما تقلقش!

- لا لا يمكن تسببني!

فجأة سكت، مد يده يبحث في جيبه، أخرج هاتفه بكفه المرتعشة ورفعته إلى أذنه ثم عاد ونظر فيه ثم أعاد رفعه إلى أذنه، انتظر لحظات وصرخ بالإنجليزية:

- أين أنت؟ لماذا هربت! ألم أقل لك أنك ستسافرين معي إلى مصر!

كان في حركته وانفعاله ما يريب فانتزع وحيد الهاتف من يده ينظر فيه، كان مغلقاً! فقد نفذت منه الطاقة! فقال له باندهاش:

- التليفون مش شغال!

رد بانفعال:

- إزاي! مش سمعتني باكلماها دلوقتني!

اختطف الهاتف من يد وحيد ونظر فيه ورفعته إلى أذنه ثم مد يده ليضعه على أذن وحيد بعنف قائلاً:

- أهو بيرن!

أشاح وحيد جانباً.

جذبه وليد من قميصه يبعده عن رئيسه، فألقى هو الهاتف وركع على الأرض، يهتز بعنف ويبيكي بحرقة وقد ذهل الحاضرون لما يرون مما آل إليه حاله.

أطرق وحيد في أسى وأدرك مأساته، فمال عليه قائلاً:

- مش مشكلة هانشوف رحمة، المهم دلوقتني غير هدومك واغسل وشك عشان نمشي.

- لا مش هامشي من غير رحمة، ممكن تكلمها إنت أو خلي أبو عبد الله يكلمها. أيوه أبو عبد الله هايبثت لك إلي أنا مش مجنون، كلمه! هي كانت بتشتغل عنده، أرجوك أرجوك! عارف إنك مش مصدقني لكن كلمه هو عارف كل حاجة!

نظر وحيد في عينيه البائستين المغرورقتين
دموعًا وقرر أن يسايره رافة، أخرج هاتفه يحدث
أبو عبد الله، بضع رنات ثم رد أبو عبد الله، فسلم
عليه، سأله عن حاله، وتبادلا معلومات بشأن
الإجلاء، واتفقا على اللقاء لاحقًا في مقر البعثة
الأوروبية، تردد وحيد هنيهة ثم استدرك وسأله
عن رحمة!

رد أبو عبد الله بأنه لا يعرف أحدًا بهذا الاسم
ولم تعمل في متجره قط!

**

(43)

بعد سنوات من إقامته في هيوستن، ما زال وحيداً، يعمل الآن بإدارة الكروت الائتمانية في أحد فروع البنوك الشهيرة في حي ناءٍ بضاحية من المدينة الهادئة، استقرت به الأيام هنا بمسقط رأس أمه بعد أن قرر الهجرة للولايات المتحدة.

عقب نجاته من الحرب في منروفيا ورجوعه إلى الإسكندرية بشهور قليلة، تملكت منه هواجسه وأشباحه لدرجة شلت حياته، فكان يرى رحمة في كل مكان ويسمع صراخ أمه بشكل مستمر، يرى أمه تضع لرحمة من السكر الخاص في راحتها، تسفه رحمة سفاً فيسيل الدم من بين نواجذها!

يظل مؤرقاً لأيام يتحدى النوم حتى لا تغافله أو تهرب منه رحمة مجدداً، فقد شهيته للطعام وانزوى وأطلق شعره ولحيته، لم يخرج إلا لشراء ما يلزمه. استرعت حالته النفسية انتباه بعض من حوله بالعمارة وتدخل بعض ذويه فدفعوه في اتجاه العلاج!

طبيبه النفسي بالإسكندرية ساعده إلى حد كبير فاستعاد شيئاً من توازنه بالعلاج والأدوية، لكن نصحه الطبيب بأن يقوم برحلة علاجية إلى أمريكا عندما علم بازدواج جنسيته.

قرر هو الهجرة هرباً من أطيايف الإسكندرية التي تعذبه ليل نهار، ونظرات الناس حوله التي تصمه. رحل لعله يجد في أرض الأطلام مهرباً مما يحرق كيانه. هيوستن مدينة هادئة لا تحمل له ذكريات، شخوصها تتوازي حيواتهم وحياته الجافة الباردة، يومه رتيب من غير مفاجآت يحيا مهمساً خفياً لا يكثر له أحد، يحاذر أن يكشف أستاره أي ممن في محيطه، بيته المؤجر صغير منفصل عما يجاوره من بيوت، ليس به شرفة ويبعد المحيط عن مكان إقامته فلا يراه أو يشتم رائحته، تكاد أحداث يومه

تتكرر بحذافيرها كل يوم.

لا يختلف عليه هنا إلا طقوس المواسم، تثير زوابع الريح والمطر شجونه ومخاوفه، يذكره صوت الرعد في معظم الأحيان بوقع القنابل في منروفيا.

كان في زيارة للطبيب، أخبره بأن حالته تتحسن وسأله عما يرى ويسمع؟ فأخبره أنه لم تعد تزوره الأطياف، فهز الطبيب رأسه مبتسماً وقال إن هذا جيد، لكن عليه أن يحافظ على تعاطي الدواء بانتظام، وخاصة مضادات الاكتئاب والهلوسة، وتفادي استرجاع ذكريات طفولته أو أحداث الحرب في منروفيا، فقد كانت تجربة صعبة وأحد الأسباب المباشرة لاستثارة مخاوفه، وبالتالي زيادة التهيؤات وحالات الهلوسة، فأطرق مقرراً.

أردف الطبيب قائلاً: إن أعراض «السايكوسس» التي تداهمه يستثيرها بشكل مباشر شعوره بالخوف وعدم الاستقرار، وأن حدثها تزيد مع تزايد إحساسه بالخطر وارتفاع مستوى الاكتئاب. فعليه دائماً أن يتفادى أي مواقف تثير مخاوفه أو قلقه. أكد أنه أحرز تقدماً طيباً، وأنه لا حاجة له في أن يعاوده قبل ثلاثة أشهر إلا إذا أحس بضغط أو عاودته الهلوسات التي تغيبه عن الإدراك.

أوما إيجاباً واستأذن في أن يذهب، فأذن له الطبيب.

قال للطبيب إنه يتناول أدويته بانتظام، لكن الحقيقة أنه كثيراً ما ينسى أو ربما يتناسى! ما لم يبح به للطبيب أيضاً أنه يمضي أياً ما متتابعة دون نوم، منذ عدة أسابيع وفي إحدى ليلات الأرق، جلس كما اعتاد يتابع صفحات «الفييس بوك» يتجسس على زملائه في العمل وغيرهم ممن يعرف أو لا يعرف!

انتشى وشعر بحنين حين عثر على أبو عبد الله،
لكن تردد كثيرًا وقاوم الحنين الذي تهيجت له
ذكريات منروفيا، هو الرجل الذي كان كواحة في
صحراء أيامه الخاوية!

في ليلة تشجع وحدثه، ثم تحدثا عدة مرات، كان
آخرها منذ أيام قليلة. أخبره البرجي أنه يعيش
الآن في كندا مع عائلته منذ إجلائه من منروفيا
استرجعا معًا الذكريات طوها ومرها. ألح عليه
البرجي أن يزوره وأنه ينتظر مقدمه، فوعده
بالزيارة.

عندما تجسس على قائمة أصدقاء أبو عبد الله،
وجد بينهم ميمي مديرة متجره في منروفيا، ما
زالت تعيش هناك! كما وجد عددًا من الشخصيات
التي يعرفها مثل أحمد وحيد وأبو حسين، لكن ما
أذهله واقشعر له جلده هو أن وجد رحمة!

استقر في وعيه الباطن أنه هو من كان على
حق! رحمة حقيقة لا تقبل الشك! ها هي قد
حققت حلمهما وهاجرت إلى نورث كارولينا!

لكنها لم تسع إليه! لماذا؟

ربما لا تعرف أنني هنا!

أو ربما تعرف وخانت العهد!

نعم خانته هذه العاهرة!

تزوجت وأنجبت طفلًا، وتعمل ممرضة في أحد
المستشفيات!

كيف تفعل ذلك!

ربما يجب عليك الذهاب إلى نورث كارولينا
لمواجهتها.

لن أقبل الخيانة حتى وإن كانت من رحمة!

(التهى)

هيوستن - شتاء 2020

(١) ما سبق خاطرة كتبها أثناء وجودي بأبيدجان في

يوليو 2003 بعد رحيلي عن مروفيا بسبب الحرب الأهلية التي عشت أحداثها كاملة في عام سبق، ووجدت فيها تقيماً مناسباً لهذه الرواية التي تهلل من معين الأرض الأفريقية المعطاءة الضئيلة الحبيبة القاسية الملهمّة المحبطة الجاحدة العالحة، الأرض التي ستدوم ما دام الزمن.